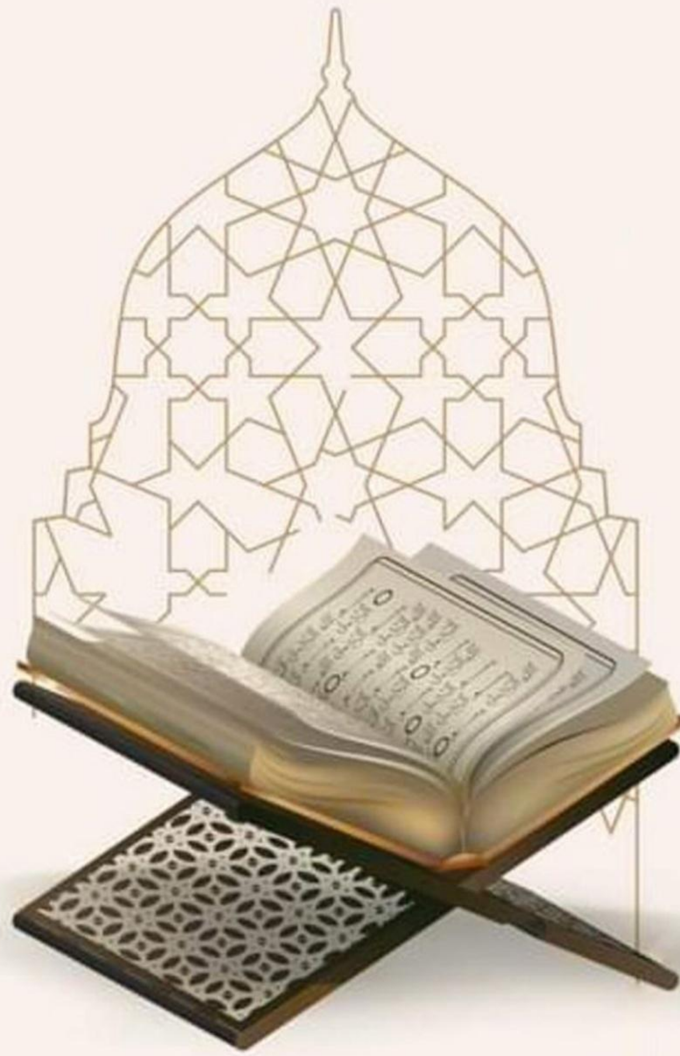


من هدايات القرآن في مجالس رمضان

ليلى حمدان

د. ليلى حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

من هدايات القرآن

في مجالس رمضان



لكل مسلم ومسلمة ..

الفهرس

المقدمة

الحمدُ لله الذي أحكمَ ببيانِه الأصول، وأنزلَ ببرهانِه ما يشفي الصدورَ والعقول. جعلَ القرآنَ للحقّ مَنارًا، وللخلقِ تبصرةً ونَهارًا، فهو الحبلُ المتين، والمنهلُ المعين، مَن تمسكَ به نَجا وفاز، ومَن رغبَ عنه خابَ وانحاز. وصلواتُ ربِّي وسلامُه على مَن بُعثَ بالكتابِ المُنير، بَشيرًا ونَذيرًا، وسِراجًا مُستنيرًا، نبيّنا محمدٍ الذي كان القرآنُ خُلقَه، والوحيُ نُطقَه، وعلى آلِه الطيبين الأطهار، وصحابتِه الأبرار، مَن سلكوا منهاجَه القويم، واتبعوا صراطَه المستقيم، ما تعاقبَ الضياءُ والظلام، وتوالتِ الشهورُ والأعوام .. أما بعد،

فإن شهر رمضان موسم تتنزّل فيه الرحمات، وتُفتح فيه أبواب القرب والاستدراك، وتتهيأ فيه القلوب لسماع كلام الله عز وجل كما ينبغي له أن يُسمع، وتدبّره كما يليق به أن يُتدبّر. وفي هذا الشهر العظيم، تتجدد الصلة بالقرآن، تلاوةً وفهمًا وتفكّرًا واهتداءً.

ومن هنا جاءت هذه المجالس الرمضانية، التي كانت تُنشر في ليالي الشهر المبارك لعام ١٤٤٧هـ، حيث حرصتُ في كل ليلة على عرض تدبّرٍ لآياتٍ من كتاب الله عز وجل، أختارها متوكلةً عليه، منتقيةً ما كان لها وقعٌ في القلب في حينه، بما يسّره الله تعالى؛ محاولةً للاستبصار بهداياتها، واستحضار معانيها، وربطها بواقع النفس والحياة.

لم تكن هذه التدبّرات دروسًا علمية مجردة، ولا بحوثًا تفسيرية موسّعة، بل كانت وقفات قلبية، يُراد بها الإيقاظ والتذكير وإعادة الارتباط الوطيد بمعايشة معاني القرآن العظيم في حياتنا.

وهذا الكتاب هو ثمرة تلك المجالس؛ جمعٌ لتدبّراتٍ قُدّمت على امتداد ليالي رمضان، في محاولة للاقتراب من نور القرآن، واستلهام هداياته، وتلمّس أثره في تزكية القلوب وتقويم السلوك وإصلاح ما أحدثه البعد عن القرآن العظيم في واقع المسلم والمسلمة.

وهو دعوة مفتوحة لكل قارئ أن لا يمرّ على الآيات مرورًا عابرًا، بل أن يقف عندها وقفة المتأمل، ويسائلها مسائلة المسترشد، ويجعلها دليلًا يهديه في ظلمات الطريق.

فالقرآن لم يُنزّل ليُتلى فحسب، بل ليُتّبع ونورًا يُهتدى به، ومَن لم يجعل له مع القرآنِ "خلوةَ تدبُّر"، فقد فاتَه من الخيرِ أوفَره، ومِن النعيمِ أعظمه.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، مباركًا في نفعه المديد، وأن يفتح لنا به أبواب الفهم والاستقامة، ويرزقنا به حياة القلوب وصلاح الخواتيم، إنه وليّ ذلك والقادر عليه. وصلّ اللهم على نبينا مُحَّمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديته واستنّ بسنته إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

ليلى حمدان

كيف نبدأ شهر رمضان الفضيل

كيف نبدأ شهر رمضان الفضيل، في خضمِّ ما نعيشه من ازدحام الأفكار، وتراكم المشاغل، وتزاحم الأحداث، وثقل الهموم والخيبات؟

لا أجد أبلغ ولا أصدق من الانكسار بين يدي الله ﷻ؛ بكامل ضعفنا، وعمق أسانا، وحرقة قلوبنا.

أقِم نفسك يا مؤمن على عتبة الانكسار بين يدي مولاك، واخلع عنك غرور الرضا عن نفسك، والاطمئنان إلى حالك. فما أحوجنا إلى صدق يعرّي أوهامنا، ويعيدنا إلى مقام العبودية الخالصة.

إنها اللحظات الأجدر في حياتك، لحظات الصدق مع الله تعالى:

أتيتك يا رب بثقل ذنوبي، وضعف قلبي، وبضاعتي المزجاة، أبتغي رضاك ورحمتك، وقبولك وإن سخط الناس أجمعون.

اللهم إني أتوب إليك من كل ذنب وخطيئة، ومن كل لحظة بُعدٍ وغفلة، ومن كل زمنٍ مضى في تضييع موجبات رضاك ورحمتك.

اللهم لا تحرمني فضلك بقلة عقلي وهوان نفسي، واجعل رمضان شفاءً وترميمًا، وانبعاثًا لقلبٍ موحِّدٍ صادقٍ مجاهد.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا، ومتعنا بفضائل الاستقامة، وشرف الهجرة والمسابقة في سبيلك. لا إله إلا أنت.

انكسر أيها العبد، وأيتها الأمة؛ يكفينا عامٌ من الغرور، وسنونٌ من التأجيل والتسويف. ليكن هذا الشهر شهر استدراكٍ مهيب، حازمٍ صارم، لا يقبل المجازفة ولا يرضى بالتضييع.

أقبل إقبال مودِّع، واحذر موهنات العزم، وفتور الصدق في الاستجابة.

بسم الله نبدأ الشهر، وباسم ربنا الأعلى نسجد ونقترب.

سُنّة ربانية لا تتبدل في قصة طالوت

قال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

جاء في تفسير هذه الآيات:

"فلما خرج طالوت بجنوده لقتال العمالقة قال لهم: إن الله ممتحنكم على الصبر بنهر أمامكم تعبرونه؛ ليتميَّز المؤمن من المنافق، فمن شرب منكم من ماء النهر فليس مني، ولا يصلح للجهاد معي، ومن لم يذق الماء فإنه مني؛ لأنه مطيع لأمري وصالح للجهاد، إلا مَن ترخَّص واغترف غُرْفة واحدة بيده فلا لوم عليه.

فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء، وأفرطوا في الشرب منه، إلا عددًا قليلا منهم صبروا على العطش والحر، واكتفوا بغُرْفة اليد، وحينئذ تخلف العصاة.

ولما عبر طالوت النهر هو والقلة المؤمنة معه -وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا لملاقاة العدو، ورأوا كثرة عدوهم وعدَّتهم، قالوا: لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء، فأجاب الذين يوقنون بلقاء الله، يُذَكِّرون إخوانهم بالله وقدرته قائلين: كم من جماعة

قليلة مؤمنة صابرة، غلبت بإذن الله وأمره جماعة كثيرة كافرة باغية. والله مع الصابرين بتوفيقه ونصره، وحسن مثوبته."

هذه الآيات العظيمة ترسم لنا سُنّة ربانية لا تتبدل: أن طريق النصر يبدأ من النفس وقوة الاستجابة قبل أن يكون في المعركة ونية المقاتلة.

ابتلاء النهر لم يكن اختبار عطشٍ فحسب، بل كان امتحان طاعةٍ وانضباطٍ واستجابة.

الماء مباح، والحاجة إليه قائمة، لكن الأمر الإلهي قيّده؛ فظهر الفارق بين من يقدّم أمر الله على شهوة عاجلة، ومن تغلبه لحظة ضعف.

الذين انكبّوا على الماء حُرموا شرف المواصلة، وتخلّفوا عن موطن الكرامة.

أما الذين صبروا، وكفّوا أيديهم، واكتفوا بغُرفة، فقد عَبَروا... عَبَروا إلى ما هو أعظم: إلى معية الله ونصره.

وهنا تتجلّى الحقيقة المتكررة:

المعصية لا تحرم صاحبها الأجر فقط، بل تحرمه الثبات والمعية والفتوحات الربانية.

المعصية تحرم صاحبها صفاء البصيرة عند اشتداد الموقف، وتحرم قلبه سكينة اليقين ساعة الاضطراب.

الذنب يثقل القدم يوم الزحف، ويورث وهناً في العزيمة، ويزرع عجزًا وخوفًا وسوء ظن بالله حيث ينبغي أن يكون الصبر والتوكل واليقين.

الذين شربوا أكثر من المأذون لم يُمنعوا عبور النهر فحسب، بل مُنعوا شرف الوقوف في الصف القليل الذي كتب الله له النصر.

وهكذا كل مخالفة: قد تبدو صغيرة في ظاهرها، لكنها قد تكون فاصلاً بين أن تكون من "الذين آمنوا معه" أو من المتخلّفين على الضفة الأخرى.

إن الكرامات من فضائل الاستقامة والسمع والطاعة.

والتأييد الإلهي لا ينزل على كثرةٍ منفلتة، بل على قلةٍ صابرة.

كلما كان العبد أقوى استجابةً لأمر الله، وأشدّ صبراً عن شهوته، وأصدق انقياداً في الخلوة قبل العلانية، نال من فضائل ذلك معيةً خاصة، وتثبيتاً عند الزلزلة، ونصراً يتجاوز الحسابات المادية.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معية تأييدٍ وتوفيقٍ وتسديد.

أما اليوم، فكثير من الناس يريدون عبور النهر دون اختبار، ونصراً بلا توبة، وفتوحاتٍ بلا مجاهدة.

تتفلت النفوس، وتكسل الجوارح، ويُؤجَّل الاستدراك، ثم ننتظر أن تتنزل علينا سنن النصر كما تنزلت على من سبقنا!

أو ترى المخالفة بإصرار .. ثم إعلان الاستحقاق!

لا يكون ذلك.

فمن أراد أن يكون في صفّ الثلاثمائة وبضعة عشر المؤيدة بنصر الله عز وجل، فليبدأ من نحره الخاص:

من شهوته التي لم يضبطها، ومن عادةٍ قبيحة لم يتركها، ومن تقصيرٍ قادحٍ لم يتب منه. ومن استجابة لا يزال لم يف لها، هناك يبدأ الطريق. ومن هناك تُكتب المعية، ثم يُكتب العبور، ثم يُكتب النصر حتى حين تكون موازين القوى في يد العدو أكبر منا.

وفي القرآن العظيم تربية عظيمة.

بين التمكين والانتكاس: دروس من قصة بني إسرائيل

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

تأسرك هذه المعاني، وتأخذك هيبةُ التمكين الذي منّ الله به على بني إسرائيل بعد سنوات الاستضعاف والقتل والتنكيل. نصرٌ بعد صبر، ووراثةُ أرضٍ بعد قهر، وإهلاكُ طغيانٍ بعد استكبار. ولكن ما تلبث أن تندهش من سرعة نسيانهم لفضل الله تعالى عليهم؛ فما إن شقّ الله لهم البحر، وأراهم آياته الكبرى، وأنجاهم من آل فرعون، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾،

حتى انقلبوا إلى حال الجحود والشرك.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

لم تجفّ أقدامهم من ماء البحر بعد، ولم يبرد في قلوبهم مشهد الغرق والهلاك، ولم تزل آيات الله العظيمة شاخصة أمام أعينهم، ومع ذلك طلبوا الشرك!

إن أعظم المعجزات لا تثبت في قلبٍ لم يتربَّ على التوحيد، ولم يترسّخ في أعماقه معنى العبودية الخالصة لله حقًا.

ولهذا جاء الإسلام مؤسسًا على أصل التوحيد قبل أي مظهر من مظاهر الخوارق؛ فربّى النبي ﷺ أصحابه على توحيد الله وتعظيمه بحجةٍ تشرق معها الفطرة، ويستقيم بها العقل، ويطمئن بها القلب. وكان القرآن العظيم دليلًا ومنهج حياة، لا يشقى معه موحّد، ولا يضلّ معه من استمسك به.

ثم إن الاعتزاز بالهوية، والاستعلاء بالإيمان، والصحبة الصالحة، والوسط الآمن، كلّها عناصر تحفظ القلوب من التبعية والانبهار. وكذلك القدوة التي يتبعها الناس لها موقعها العظيم في تثبيت المعاني وترسيخها.

فما إن مرّ بنو إسرائيل على قومٍ يعكفون على أصنامهم، حتى تمنّوا أن يكون لهم مثلها. وهذا يعلّمنا أن القلب إذا لم يتحصّن بالحق، تعلّق بأول باطل يلوح له، وانجذب إلى كل مظاهر الزيف مهما رأى من الآيات قبلها.

ونرى في قصتهم كيف أن العبد في الشدّة يصدق في لجوئه واستغاثته بربه، لكن بعد النجاة قد يضعف تعلّقه بالله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

فما أقصر المسافة بين معجزة النجاة وفتنة العجل! وما أسرع التحول إذا لم يكن الإيمان متجذرًا في القلب. فالقلوب الضعيفة سريعة الانتكاس، وأكثر الناس وقوعًا في الفتنة أسرعهم انبهارًا وأقلهم رسوخًا.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

إن الإيمان الذي يعتمد على الأشخاص لا يثبت إذا غابوا، أما الإيمان الراسخ المبني على العلم واليقين فيبقى ولو تبدلت الظروف وغاب القادة المؤثرون. وهذا درس عظيم في التربية الإيمانية للجند والأفراد. ولذلك قال الله ﷻ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

ولهذا جاء القرآن حجةً دامغةً إلى قيام الساعة، ورسالةً خالدةً مع آخر الأنبياء، لا يهزمها باطل، ولا تزعزعها شبهة، لمن تمسك بها حق التمسك.

إن قصة بني إسرائيل ليست للتاريخ فحسب، بل تتكرر في سور القرآن لنتدبرها ونتعظ بها.

فالنجاة لا تعني العصمة، والتمكين لا يعني الاصطفاء الدائم، ورؤية المعجزات تأثيرها محدود دون بصيرةٍ وإيمانٍ متجذر، والتوحيد يحتاج إلى حصانةٍ دائمةٍ وحفظٍ مستمر.

ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

فإياك أن تمرّ على دروس بني إسرائيل مرورًا عابرًا، أو تغفل عن الاعتبار بقصصهم؛ فإن القرآن ما قصّها إلا لتكون مرآةً للقلوب. والمرابط على القرآن العظيم متأدبٌ به، متبصّرٌ بدروسه، مستمسكٌ بهديه، حتى لا يتكرر في حقه ما تكرر في تاريخ من سبق.

فوق أرتال القوة... يمضي قدر الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

حين يقرأ القلب قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: ٣١)

يقف أمام حقيقة كبرى تستوجب وقفة خشوع وتدبر: فليست المشكلة في قلة الآيات، ولا في ضعف البرهان، ولا في قصور الحجة؛ فلو كان في الكون كتاب تُزحزح به الجبال من أماكنها، وتُشقّ به الأرض، ويُخاطَب به الموتى في قبورهم، لكان هذا القرآن العظيم. لكنه ليس كتاب خوارق حسية بقدر ما هو كتاب هداية، يخاطب القلوب ويقيم الحجة على النفوس.

وتأتي في قلب هذا الوصف المهيب، الكلمة الفاصلة: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.
لتنحلّ عقدة الاستعجال، ويسقط وهم التحكم في مجريات الصراع.
فالهداية ليست قهرًا، والنصر ليس استعراض قدرة، والعقوبة ليست رد فعل آنٍ، بل الأمر كله بيد الله ﷻ، يُدبّره بحكمة، ويُجريه بميزان لا يختل.

ولهذا قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.
أي أفلم يعلموا أن الله لو أراد هداية الخلق جميعًا لهداهم؟ ولكنه لم يشأ أن تكون الهداية قسرًا، بل ابتلاءً واختيارًا، وتمييزًا بين من ينصر الحق ومن يعانده. فالصراع وطوله، ليس دليل عجز، بل ساحة امتحان، يُظهر فيها صدق الإيمان وثباته ويقيم به الحجة على المكذّبين ثم تكون العاقبة بما تستحقه!

ومن هنا نفهم سرّ امتداد المواجهة، وتكرار القوارع: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾.

إنها ضربات متتابعة، ليست استئصالًا فوريًا، بل إنذارًا بعد إنذار، وقرعًا بعد قرع، لعل القلوب تستفيق. ينكشف معها المرتابون، ويتساقط في أثنائها المنافقون، ويفجر المرتدون! ويحسب الكافرون أنهم على شيء! لكن الله ﷻ قادر على أن يُنهي الباطل في لحظة، إلا أنه يُمهل ولا يُهمل، ويُمهل لتقوم الحجة، وليبلغ الحق مداه، وليتميز الصف. حتى يحل النصر المبين، بهيبته وقيمته الحقيقية!

وهذه المعاني تقودنا إلى قول الله تعالى وهو سبحانه يطمئن المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

فمهما بدا الباطل متقدّمًا في الظاهر، أو متغلبًا في جولة من الجولات، مهما حشد من أرتالٍ وقوى، وأشعل من وهج القتال! فهو لا يسبق قدر الله عز وجل، ولا يُفلت من تدبيره. إنما يسير في مسار مرسوم، وأجل مكتوب:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

هكذا يتشكل الصراع في سنن الله تعالى، ليس كما يتوقع المستعجلون، ويطغى بجهالة المرتابون: حسمًا خاطفًا يُنهي القصة منذ بدايتها، بل مسارًا ممتدًا تُختبر فيه النفوس، وتُصقل فيه الجماعات، وتُغربل فيه الصفوف. ولو أُهلك الكافرون أول مرة، لضاع معنى الصبر، وذابت قيمة الثبات، ولم يظهر الفرق بين إيمان ساعة وإيمان محنة. ولم يدرك الناس قيمة النصر والحكمة من الصبر!

إن الله قادر على الإهلاك، لكن حكمته اقتضت الإمهال. قادر سبحانه على القهر، لكن سنته جرت بالابتلاء. قادر سبحانه على أن يجعل الناس أمة واحدة على الهدى، لكنه أراد أن تكون الهداية خيارًا يُختبر فيه صدق العبودية.

فإذا رأيت امتداد الصراع، وتكرار الجولات، فلا تظنن أن الأمر فلتة، ولا أن الباطل سبق، بل تذكّر: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

فأيها المسلم، أيتها المسلمة، أولوية الوقت، إقامة النفس على معاني ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠)

على الاستجابة بصدق وإخلاص، بأدبٍ مع الله تعالى وتدبر في آياته، التي كثيرًا ما يغفل عنها الناس مع أنها حاضرة دوما في فصول الصراع، وبأوضح ما يكون لمن تعلق قلبه بالقرآن العظيم.

فمن استطال الطريق، ليعلم أن القوارع تضرب لا تتوقف .. وليعلم أن بين يديه أعظم حجة ومنهج ودليل ونور، فلا يفرط فيه أبدًا.

وليتذكّر أن النهاية ليست لمن استعجل، بل لمن ثبت ونجح في تجاوز امتحانات الصدق بلا ارتياب ولا مخالفة لأمره عز وجل، وأن الوعد حق! والله إنه لحق!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

بين اليقين والوجل: معالم الطريق إلى الله عز وجل

تشتدُّ ظلمةُ المشاهد، وتضيقُ المواقف حتى تكاد القلوب تختنق كمدًا، ويتسرّب إليها اليأس خفيًّا وإن تظاهرت باللامبالاة!

ثم ما تلبث أن تُتلى آياتُ الله عزّ وجلّ، فإذا بالنور يشقُّ العتمة شقًّا، وإذا بالوحي بلسمًا ينساب في العروق، يغسل مرارة الاستياء، ويعيد ترتيب المشهد من جديد؛ فيتحوّل الاضطراب سكينةً، ويتبدّل القلق يقينًا، وينقلب كلُّ تفصيلٍ مُقلقٍ باعثًا على الاستبشار والثقة بوعد الله الحق، ﷻ.

فلا يخرج المؤمن من القرآن إلا عزيزًا بالبصيرة، ثابتًا باليقين، مطمئنًا إلى سنن الله تعالى التي لا تتخلّف ولا تتبدل أبدًا.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

آيةٌ واحدة، لكنها ترسم خريطة الصراع كلّه: بدايته، ومساره، ونهايته.

إنه صراعٌ ممتدٌّ بسنةٍ ماضية، لكنه منتهٍ بحسمٍ مهيب.

﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

ليس حديث الآية الجليلة عن إنفاقٍ عابر، بل عن مشروعٍ متكامل؛ أموالٌ تُضخّ، وإعلامٌ يُسخَّر، وتحالفاتٌ تُعقد، ونفوذٌ يُستخدم، وخططٌ تُحاك... كلّها تُسخَّر لصدّ الناس عن سبيل الله تعالى وإطفاء نور الحق.

لكن انظر إلى الترتيب الإلهي الدقيق:

فسينفقونها... أي أنهم مستمرون في البذل والجمع والتعلق بأستار القدرات المادية!

ثم تكون عليهم حسرة ... أي أن النتائج لن تكون مجدية كما ينتظرون، ولن تثمر جهودهم ولا تمويلهم المستمر نتائج مرضية لهم. بل ستكون على العكس تماما، حسرة، مؤلمة ومفجعة لهم!

ثم يُغلبون ... أي أن النهاية حاسمة في المآلات، بهزيمة مؤكدة.

ثم إلى جهنم يُحشرون ... ليس فحسب الخسارة في الدنيا، بل وخسارة الآخرة أشدّ وأبقى.

أي أنها خسارةٌ مركّبة: حسرة مفجعة في الدنيا، وغلبة مثخنة في الميدان، وعذاب شديد في الآخرة.

وكلّ ذلك يُختصر في آية واحدة!

قد يذهل الناس من ضخامة الأرقام، وضجيج الإعلام، واستعراض الترسانات، فيحسبون الكثرة قوّة، والانتشار تمكينًا، والسيطرة انتصارًا.

لكن الوحي يضع الأمور في ميزانها الصحيح: كلّ ذلك وقود حسرةٍ قادمة، ومقدّمةُ غلبةٍ محتومة. لا شك في ذلك أبدًا.

ولكن مما يجب الوقوف أمامه أيضا، بأدبٍ مع الله عز وجل وحياء! أن سنة الغلبة للمؤمنين على قوة أعدائهم لا تسير لوحدها!
فمع أن النهاية محسومة، إلا أن طريقها ليس مفروشًا بلا ابتلاء.
وهنا تتجلّى السنة الأخرى، المرافقة لسنة الغلبة في الآية التالية مباشرة:

قال الله ﷻ ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٧)

وقد ذكر الله عز وجل هذه السنة في عدة آيات في القرآن، منها ما جاء في سورة آل عمران، حيث قال ﷻ ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

فالابتلاء سنة ثابتة في مسار النصر، وجزءٌ من هندسته الربانية.

هذه الآية تكشف وجهًا آخر من الصراع: الصراع لا يُسقط الباطل فحسب، بل يكشف الصفوف. فلا يترك الدعوى بلا امتحان، ولا الشعار بلا اختبار. بل يخرج الصفوة، وينقيها من كل دخن وكدر!

والتمييز ليس بمفهومه السطحي! باغترار الظنون، إنما بعمق الكشف، لما تسّره الصدور!

والله عز وجل لا يترك المؤمنين في حالة اختلاط وغموض، ولا يسمح بأن يستمر الالتباس بين صادق ومدّعٍ.

لذلك التمييز لا يكون بالألقاب المتضخمة، ولا بالشعارات المتوهجة، ولا بالتزكيات المتملقة، ولا بالجماهير المصفقة.

إنما يكون بصدق المعادن وإخلاص القلوب الذي لا يشوبه ارتياب ولا خبث! وإن كان في معزل عن الأضواء ومرامي الاهتمام والتبجيل. وهو الذي لا يعلم صدقه إلا الخالق عز وجل.

وهكذا تتهاوى في مواسم الفرز التي لا مناص منها، أوهامٌ كثيرة:

فلا تنفع كثرة الأتباع إن تلوّث الإخلاص.

ولا تغني الشعارات إن خالفت السيرة.

ولا تُجدي تزكية الناس إن لم يرضَ ربّ الناس.

الله عز وجل لا يترك القلوب مختلطةً ولا الصفوف متداخلةً بل يُرسل الابتلاء غربالًا، ويجعل الأحداث كاشفة، والفتن ممحّصة، والمحن مطهّرة. ومع توالي الأيام تنكشف الحقائق وتمتحن الدعاوى، فتخشع النفوس لحكمة ربنا!

إذن نحن أمام حقيقتين متوازيتين:

الباطل مغلوبٌ حتمًا.

والصفُّ المؤمن ممحَّصٌ قبل التمكين دومًا.

فلا يغترّن أحد بقوة الأعداء، ولا ينهزم أمام مشهدهم، وأيضا لا يستعجل الحسم قبل اكتمال الفرز. ولا يغترن بكونه في صفوف النصرة!

فالمعركة ليست لإثبات أن الحق سينتصر – فهذا قد قُضي – وإنما لإثبات من يصدق في نصرته كما يحبّ الله ويرضى.

ليست القضية: هل سيُغلب الباطل؟ بل: أين موقعك أنت حين يقع التمييز؟

ومن هنا ينبعث الوجل ... ليس خوفًا من غلبة الباطل، بل خشيةً من سنة التمييز. وليس رهبةً من أموالهم، بل رهبةً من خذلان النفس القاتل.

فالآية الأولى تحسم المصير: ﴿ثم يُغلبون﴾.
والثانية تُبقي القلب يقظًا: ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾.

وفي معاني الآيتين، لفتة عظيمة تستوجب الوجل!

فأموالهم التي ينفقونها اليوم... ستكون حسرة لهم غدًا. وصخبهم الإعلامي... لن يغيّر سنن الله ولن يقلب موازين الحق. ومحاولات الصد ... لا توقف النور، بل تفضح أصحابها.

وأول من يجب أن يتأدب بذلك المسلمون! فلا يمكن الاحتيال على الله عز وجل، ولا اختلاس فضله سبحانه، ولا يمكن امتهان الغش، لحيازة الألقاب والتزكيات، ولا ينفع صخب إعلامي حين تتلوث النفوس بالخبث والظلم والبغي، ولا ينفع الالتفاف على شريعة الله تعالى لنيل فضل الله تعالى .. فالنهايات دوما محسومة لصالح الطيب الصادق!

لذلك أرجى ما يجب أن يشغل المسلم نفسه به اليوم، هو تحقيق القبول من الله عز وجل! لا من الجماهير والناس المصفقة .. !

هذا ما يجب أن يشغل المسلم اليوم!

ليس الخوف من الكافرين! بل الخوف مما يرافق هزيمة الكافرين المحتومة!

وهذا يوجب إقامة القلب على الاستجابة لأمر الله عز وجل، بالتصدي لمكرهم وطغيانهم على قدر الاستطاعة، بالاستعلاء بالإيمان وبجهادهم، وبيقين لا ينهزم تحدوه عبادة الوجل.

وعبادة الوجل حكمة عظيمة، تحفظ القلب من الغرور، وتمنعه من الاتكاء على الاسم أو الانتساب والارتهان للتزكيات البشرية القاصرة.

كما تحفظه من الاطمئنان لسنة الله في أن حسرة الكافرين مؤكدة فيتكّل ولا يعمل.

ثم تلجمه عن الظلم والتفلت! فينشغل وجلًا بالعمل خشية أن يكون من الخبيث المركوم.

الوجل يجعل المؤمن يسأل نفسه عند كل منعطف: هل يقبل الله عملي؟ هل أخلصت ديني لله وحده لا شريك له! هل تزودت لما هو آت! ما الذي يؤخرني أو يهدد إيماني وخاتمتي؟

لأنه مدرك أن المسير لله تعالى يتطلب وجلًا وحياءً وتعظيمًا لله تعالى .. وأن الغربال مستمر، وامتحانات الصدق لا تقبل الغش أو الاحتيال ولا حتى الوساطات! بل ما يقبله الله عز وجل.

وهكذا يعيش المؤمن، مدرك أن الصراع محسوم، لكن الامتحان قائم.

فلا يركن إلى تزكية، ولا يغترّ بعنوان، ولا يطمئنّ لثناء. ولكن يثبت على إخلاص الدين لله وحده، ويجدد تقواه في كل موقف، فإن نهاية الصراع محسومة، لكن موقعه فيه هو الذي يُختبر.

وحقيقة الإيمان الوجل! يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾

فلا يجتمع الإيمان والغرور في قلب واحد، ولا تُنال النجاة بلا وجل.

وكلما ازداد اليقين بحسم النهاية، ازداد الخوف من التقصير في الطريق، وازداد التحصّن من موجبات الاغترار والخسارة! وتلك حقائق يعرفها جيّدًا أهل الجهاد والمراغمة!

فاللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم لا تجعلنا من القوم الخاسرين!

سلام الله على موسى وهارون!

آياتٌ معدودات، لخصت دروس الحياة الأرجى، بكل فصولها وتفاصيلها المعقدة!

يقول الله جلّ جلاله في سورة طه:

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ
مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَب مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ
أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ
(٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلا جَسَدا لَّهُۥ خُوَار فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)
أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّا وَلَا نَفۡعا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ
مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن
نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ
(٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي
خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ
يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَة مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا
وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (٩٦) قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ

وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا (٩٧) إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡما (٩٨) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرا (٩٩) مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا (١٠٠)﴾ سورة طه.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾

لابد أن تشدك شخصية موسى عليه السلام، فقوة الحق فيها مهيبة، وقوة المحبة، لا تقل هيبة أبدًا. يسأله الله ﷻ سؤالا في طيّاته عتابًا لطيفًا، فيرد النبي المحبّ، بمنتهى الصدق والحياء: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

يعجل موسى لقاء ربه .. لرضا ربه وحده لا شريك له..! تاركا وراءه سيادة قومه وكل شيء! فلا شيء يقارن بلحظة لقاء الله عز وجل.

هكذا كانت شخصية نبي من أولي العزم من الرسل، تتقدّمها الرغبة في مرضاة ربها قبل كل شيء. وهكذا يجب أن تكون بوصلة كل مسلم ومسلمة: الرضا الإلهي وإن سخطت البشرية!

هيبة موسى ليست في صوته المرتفع، بل في وجهته الواضحة. وقوة شخصيته ليست في شدّة بأسه فحسب، بل في سرعة إقباله على ربّه. إنه القائد الذي يرى أن أعظم إنجازٍ هو القرب من الله تعالى، وأعلى غايةٍ هي الرضا من ربه ومولاه.

لكن العجلة – ولو كانت للخير – قد تفتح ثغرةً في الصف، وهنا تتجلّى سنّة الابتلاء. والتي قد تكون فتنة عظيمة تضرب صلب الإيمان! أو تكشف عمق النفاق والهشاشة!

قال تعالى ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

مجرد أن غاب القائد لفترة من الزمن، حتى تفلتت الأمور، وتحرّكت الفتنة، وهنا يظهر لنا الدور المحوري للقادة في التصدي للفتن، وأيضا تظهر لنا خطورة ارتهان الدعوات بالقادة، فإن رحلوا رحلت معهم العقيدة وسقطت الاستجابة لأمر الله تعالى.

وهذا هو طبع المجتمعات إن لم تُربَّ على الثبات الداخلي؛ تتعلّق بالأشخاص أكثر من تعلقها بالمبدأ. ولذلك هي سريعة الانهيار، سريعة الافتتان، سريعة الانهزام. ولذلك أيضا يستهدف الغرب الكافر بشدة وبتركيز مستمر: القادة!

والعجل لم يكن فكرةً عميقة، بل جسدًا له خُوار.

صوتٌ، وبريقُ ذهب، وحركةٌ تخدع الحسّ، فمالت له القلوب بلا تردد.
مع أن الحجة قائمة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

لكن الفتنة – وما أدراك ما الفتنة – لا تمرّ عبر العقول وحدها، بل عبر الشهوات والحنين إلى المحسوس، للمثير، للافت!

فالناس فُتِنوا بعجلٍ من ذهب يلمع، له خوار؛ لأن في داخلهم استعدادًا للانخداع ولأنهم يحملون في أعماقهم بذور الانحراف.

وهكذا كل سامريٍّ في كل زمان: لا يصنع الشهوة، بل يستغلها، وأكثر أتباعه السفهاء والعاطفيون والمتحمسون ببضاعة مزجاة.

ولقلة الرسوخ يسقط في الفتن الكثير من الناس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم مظالم أثقلت خطاهم في امتحانات الصدق، فما أسرع اشتعالهم وما أقبح انحرافهم.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

غضب موسى وغضبه يصفه القرآن بوصف تتجلى معه هيبة الحق في نفس النبي عليه السلام! لم يغضب لأنهم خالفوا رأيه، بل لأنهم نقضوا عهد ربهم. وهذا هو الفارق بين القائد الرباني والقائد الدنيوي:

الأول يغضب إذا مُسّ الحق، والثاني يغضب إذا مُسّت مكانته.

الأول تأخذه الحمية لدينه، والثاني تأخذه الحمية لنفسه.

الأول يُمس في نفسه ولا يُمس في دينه، فهو وقّاف عند حدود الله تعالى ولو على حساب نفسه.

والثاني، يُمس في نفسه ولا يُمس في رمزه المقدس! فهو مخلصٌ دينه له، فيتعدى حدود الله تعالى لأجله، ويحرف الكلم عن مواضعه فداءً له!

وها نحن أمام مرض عضال! من لم يتحصن منه مسبقًا، نقض غزل الدعوات والغايات!

ومن أخطر ما تصنعه الفتنة، انكسار اليقين: يقول موسى لقومه في ثورة غضبه وهو يتفجر صدعا بالحق وشفقة على الخلق، في امتزاج عجيب لمشاعر المؤمن المسؤول:

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾

والنفوس القصيرة تملّ الطريق سريعًا، فتنحرف بعيدًا.

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾.

أي: قالوا له: "ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حليًّا كثيرًا من القبط، فخرجوا وهو معهم وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع".

فكانت حجتهم: "غلبة الهوى".

﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾

وفي قلب هذا المشهد المعقّد، يلتفت موسى لأخيه هارون: ليدور حوارٌ بين نبيين، بين قلبين على الحق. يتصدع له القلب!

محبة موسى لهارون تتجلى في مشهد حرقته عليه: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾

ومع شدّة الموقف، يقول هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾، بكلمة تقطر مودة وسط ثورة الغضب لله لا للنفس!

وقد أدرك ذلك هارون بإشفاق. ولذلك ناداه بنداء الأم، ليستحضر رحمًا مشتركًا في لحظة سوء فهم عظيم.

ولا شك أن حجة هارون تتطلب وقفة، فلم يسكت نبيّ الله لضعف ولا لرضا، بل خشي فرقةً أعظم. لقد كان يوازن بين إنكار المنكر بشدة وبين بقاء الجماعة لحكمة. وكان فقها يوجب الاعتبار حين تتشابك المواقف وتتعقد المشاهد.

وفي الموقف ملحمة فقهٍ ورحمة، سرعان ما قدّرها موسى أحسن تقدير، ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

فلله در أم موسى، كيف زرعت هذه المحبة بين أخوين يحملان الرسالة، كيف استطاعت أن تربيهما على التوادّ والتراحم والتلاحم، فكان درسًا عظيمًا، لشدّ العضد، وموقفًا لصدق الأخوة، يتجسّد أمامنا في تربية نبوية مهيبة.

إن للحق شرفًا يُصان، والأخوّة شرف لا يُهدر!

وهكـذا يـتعلّم القـادة: أن شـدّة الغـيرة علـى الحـق لا تعـني إهـدار حكمـة التـدرّج، واستيعاب المصلحة الأكبر.

وأن وحدة الصف مقصدٌ عظيم، لا يُضحّى به إلا بيقينٍ أوضح.

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾

هكـذا يبـدأ كـل مزيّـف ومضـلل وخـادع. يـدّعي رؤيـةً خاصـة، أو سـرًّا خفيًـا، أو فهمًـا متقدّمًا. ينطلق من استحقاقية صمّاء، لينتهي إلى وقاحة فجّة وظلم وعدوان: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

وهكذا تشخيص الدعوات التي تغذيها حظوظ النفوس وتدفعها فتنة العلو في الأرض! ليس الوحي المنزل، بل ما سولت النفوس.

وكان الجزاء من جنس العمل: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾

عقوبةٌ تناسب الجريمة. فمن فرّق الصفوف، يُعزل. ومن دنّس عقيدة الجماعة، يعيش منبوذًا. ثم العذاب المؤجّل الذي لا يُخلف.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

تختزل الآيات بأسلوب مهيب وآسر، كل هذا الكمّ من التفاصيل بعظمة لا نجدها إلا في القرآن العظيم، لتعيدنا إلى الأصل الأعظم: إلى التوحيد.

وكأن القصة كلّها كانت لتعيد ترتيب البوصلة: الله وحده هو الإله، وكل ما سواه عجلٌ... ولو لمع.

ثم التحذير الصريح الذي لا يشوبه تشويش: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾

فالله تعالى قد أقام حجته، ومن أعرض عنها حمل وزره بنفسه.

وهكذا، تتجلى لنا في هذه الآيات المعدودات: معالم الطريق بوضوح:

- **قلبٌ يعجل إلى الله طلبًا لرضاه. دوافعه جميلة، لكنها كشفت عن ضعف خطير ما كان ليبصره لو لم يعجل إلى ربه! وكأن العجلة لله تعالى شفاء للقلوب، موجبة للاستدراك والتحصن.**
- **أمةٌ تُبتلى إذا أهملت رسوخ الإيمان بحضور أو بغياب القائد. ولذلك على حملة الرسالة التأدب من قصة موسى عليه السلام وترسيخ الإيمان والتعصب لله ورسوله ﷺ لا للأسماء التي تذهب وتأتي، وتبقى الرسالة.**

- **فتنةٌ تصنعها نفسٌ سوّلت، باستحقاقية ووقاحة. والفتنة أمر عظيم، لا يستهان به، يحار فيها اللبيب ويسقط فيها المتذاكي!**
- **غضبٌ ربانيٌّ على انتهاك العهد. وغضب الله تعالى إذا حلّ فإنه عذاب الدنيا والآخرة!**

ولعل أكثر ما نحتاج التعلم منه في هذا الهدي الرباني الجليل: أن الخلاف بين المؤمنين تحكمه الرحمة والحكمة. لا التخوين لسوء فهم! فغضب موسى وإن أوصله لإلقاء الألواح وفيها نور وهدى! وأخذه رأس أخيه ولحيته، إلا أنه بكلمة واحدة، هدأ، واستوعب دوافع أخيه، وخلف هذا الاستيعاب، ثقة وأخوة، وصحبة على الحق لا تنهزم!

ثم النهاية، تُعيد كل شيء إلى أصل التوحيد. لتبقى القصة مرآةً لكل زمان: وكل مجتمعٍ قد يُفتن بعجلٍ جديد، وكل عصرٍ قد يظهر فيه سامريٌّ آخر، لكن الحقّ – إذا وُجد في قلبٍ كقلب موسى – يبقى أهيب، وأثبت، وأقوى نصرة للتوحيد وللمؤمنين.

سلام الله على موسى وهارون!

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

آية جليلة تأخذ بمجامع القلب، وتستوقف المتدبر بخشوعٍ وشجن!
تكررت ثلاث مرات في القرآن الكريم على لسان نبي الله شعيب عليه السلام:
في سورة هود (الآية ٨٥)، وفي سورة الشعراء (الآية ١٨٣)، وفي سورة الأعراف (الآية ٨٥) بلفظٍ قريب: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

إن بخس الأشياء ليس أمرًا محصورًا في ميزان السوق فحسب، بل هو خللٌ قد يتسلل إلى ميزان الحياة بأسرها. وليست هذه الوصية خطابًا للتجار وحدهم، بل هي موجهة إلى العلماء، والدعاة، والخصوم، والأزواج، والأصدقاء، وإلى كل إنسان يمشي على هذه الأرض ويتعامل مع الناس حقًّا وواجبًا.

ولعلَّ من أعظم ما تُوقِظ له هذه الآية، أن الله تعالى قرن فيها بين بخس الحقوق والإفساد في الأرض.

فقد يبدو البخس في أعين الناس أمرًا يسيرًا: تطفيفًا في ميزان يُهمل، أو كلمةً ذُكرت لم تُنصف، أو حقًّا للغمط لم يُذكر، أو جهدًا قُلِّل من شأنه، أو نصيحة أمين، تُزدرى وتُطمر. لكنه عند الله ليس صغيرًا أبدًا، لأنه يمسُّ جوهر العدل ويخرم ميزانه. وإذا اختلّ الميزان، بدأ الفساد يتسلل خفيًّا من حيث لا نشعر، وكلما طال الإهمال، تعاظمت التداعيات، حتى يستحكم الفساد في الأرض.

ومن اعتاد التطفيف في التقدير، هان عليه التطفيف في الضمير.

ومن استهان بحقوق الناس وأشيائهم، كان ظالمًا لنفسه ولهم، وما أفلح الظالم!

ومن عظمة هذا الدين أنه جعل العدل ميزانًا شاملًا لا يُبخس فيه حق، ولا يُغفل فيه فضل. فهو لا يقتصر على الأموال والممتلكات، بل يتجاوزها إلى الأفكار، والأخلاق، والأزمنة، والجهود، والتضحيات، وكل صور الحقوق، لا مع من توافقه فحسب، بل – والأهم – مع من تخالفه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

وتأمل كيف يُحدد الله – عز وجل– العدل في مقام الخلاف والخصومة!

لأن أخطر أنواع البخس هو ما نُلبسه ثوب الغيرة على الحق، بينما هو في حقيقته انحيازٌ للنفس. وما أخفى حظوظ النفس حين تتستر بشعار الحق!

إنه خيطٌ دقيق من الانحراف، إن لم يُنتبه له ويُعالج، أفسد في الأرض أعظم إفساد، بإفساد جوهر الرسالة، والإخلاص، وسلامة القلوب.

ومن أعجب ما يشدّ المتدبر في آيات القرآن تلك المعالجة الدقيقة لجذور الفساد وبذور الانحراف قبل أن تستفحل؛ معالجةٌ محكمة، يكفي تأملها وتأمل الحكمة منها، ليخضع القلب تسبيحًا وتعظيمًا: فسبحان ربي الأعلى!

والمجتمعات لا تنهار فجأة... بل يبدأ انهيارها حين يفقد الناس ثقتهم في العدالة. وتبدأ الشرارة من بخس الناس أشياءهم؛ فتنكسر الثقة، وتضيع الأمانة، ويضعف العطاء، ويشتد الحقد، وتتسع دوائر المخالفة.

وهل يصنع ميزان الهوى إلا مزيدًا من القطيعة والتنازع وذهاب الريح؟

وذلك هو الفساد بعينه.

وتأتي قصة شعيب عليه السلام لتلقننا درسًا عظيمًا، كما كل قصص الأنبياء التي تحمل خصوصية تربوية فريدة. ففي قصة شعيب نتعلم كيف يصون التوحيدُ العدلَ في كل شيء؛ فلا يستقيم توحيدٌ يظلم الناس، ولا تُقبل عبادة تقوم على غصب الحقوق وغمطها.

ولا يجتمع بخس وخشية في قلب! فالخشية تمنع البخس، فإن طغى البخس فهذه أمارة انحراف خطير!

وفي سيرة النبي ﷺ نرى عجبًا من الإنصاف، مع المسلم كما مع الكافر، وعلى هذه المعاني ربّى أصحابه ﭫ.

وبخس الفضل يقتل المروءة، وجحد الإحسان يفسد القلوب، والاستمرار في بخس الناس أشياءهم هدمٌ للدين من داخله.

وقد وثّق لنا التاريخ – في كثير من المرات– كيف تسفك الدماء المعصومة، من حقد أعمى تشكل من الاستهانة بالبخس والغمط! فكان مشهدًا موثّقا للإفساد في الأرض..!

ومن أخطر صور البخس في زماننا النظر إلى الناس بعينين مجحفتين: أبيض مطلق ... أو أسود مطلق. فإما أن يُرفع المحبوب إلى مرتبة التفرد والكمال، أو يُسقط المكروه إلى درك: "ما رأينا منه خيرًا قط."

وهذا ليس من الإسلام في شيء؛ ففي كل إنسان خير وشر، حسنات وسيئات. والمنصف لا يغمط حقًّا، ويحذر من حالٍ وصفها الشاعر بفراسة صادقة:

وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ
ولكنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساويا

وكم وقع من ظلمٍ بسبب غمط حق، أو بخس فضل! وتراكم إغفال هذه الدقائق يصنع فسادًا عريضًا في الأرض.

ومن تأمل في دعوة شعيب عليه السلام وجد شمولية "لا إله إلا الله" وعظمتها؛ إذ جاءت في سياق توجيهات اجتماعية واقتصادية تعالج الانحراف العقدي في هذا الميدان كما في سائر الميادين، لتبني واقع الإنسان كله، وترفعه إلى المكانة التي فضله الله بها على كثير ممن خلق.

ولا شك أن لذلك فضائل جليلة! فبعد النهي عن البخس قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فما يبقى لك من مال بعد العدل خيرٌ مما تأخذه بالظلم.

وما يبقى لك من مروءة بعد إنصاف الناس خيرٌ مما تكسبه بتشويههم بالبغي.

وما يبقى لك من أمانة ومصداقية في القلوب خيرٌ مما تجمعه من انتصارات وهمية.

إن ترسيخ قاعدة الإنصاف في النفوس، وفي الجماعات، والحركات، والأفكار، والدعوات، ركيزة أساسية لصناعة العدل ونصرته، ولمنع الفساد في الأرض.

وما أعظم أثر الإنصاف في النفوس: مع القريب والبعيد، مع المؤيد والمخالف؛ فإنه يصنع هيبةً ... هيبةَ الحق، وما يستتبعه من فضائل وإخلاص لله وحده لا شريك له.

بالحق والعدل والإنصاف والصدق معًا ننتصر، لا بالحق الممزوج بالظلم والبخس والكذب.

ومن بخس الناس أشياءهم، فقد خطا أولى خطوات المفسدين في الأرض، ولا يلومنَّ إلا نفسه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

اللهم اكفنا شر البخس والمبخسين..!

في ظلال النور: ميزان الطاعة والحصانة

كلما أمعنتُ النظر في آيات القرآن العظيم، شدَّني ذلك التشخيص الرباني الدقيق لأمراض القلوب، وكشفه العميق لمسالك الانحراف عن الصراط المستقيم؛ ولذلك يبقى القرآن أولَ مرجعٍ في التشخيص، وأدقَّه في وصف الداء، وأكملَه في بيان الدواء.

وأخطرُ ما يكون من الانحراف ما يتخفّى بثوب الإيمان، ويتزيّا بشعارات الطاعة، وهو في حقيقته مخالفةٌ لأمر الله ورسوله ﷺ؛ انحرافٌ لا يُعلَن، بل يُمارَس تحت لافتة "آمنا وأطعنا"، بينما الواقع يكذّبه.

هذا التشخيص البليغ نجده جليًّا في آياتٍ جليلة من سورة النور، حيث يقول الله عز وجل:

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى

اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾.

في هذه الآيات من سورة النور ينكشف ميزان دقيق، يفرّق بين دعوى الإيمان وحقيقته، وبين من يأخذ الدين كلّه تسليمًا وانقيادًا، ومن يتعامل معه بانتقائية مريبة، يختار منه ما يوافق هواه ويترك ما يخالف مصلحته.

يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

فالآيات بيّنات، واضحة لا التباس فيها، والصراط مستقيم لا اعوجاج فيه، لكن الهداية توفيقٌ من الله لمن صدق في طلبها.

ثم يفضح القرآن نموذجًا خطيرًا:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

هنا الانفصام بين القول والعمل أمر خطير جدًا:
إيمانٌ باللسان، وطاعةٌ في الشعار، لكن عند أول اختبار عملي يتولى فريق منهم.

لذلك جاء الحكم القاطع: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالإيمان ليس مجرد ادعاء! بل فعال ومواقف توثّق صدقه..!

وتتجلى خطورة التفلت الذي يشخصه القرآن، حين يقول تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾

فالدعوة هنا إلى تحكيم الوحي، إلى مرجعية عليا. لكن الإعراض يقع لأن الحكم لا يكون في صالحهم.

ويأتي التشخيص الأبلغ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾

أي إن وافق الحكم أهواءهم، أسرعوا إليه خاضعين!

فهم ليسوا خاضعين للحق لذاته، بل لمصلحتهم فيه.

وهذا هو جوهر التطفيف: أن يتعامل الإنسان مع الدين كأنه سوق، ينتقي منه ما يخدم مشروعه، ويترك ما يقيّده أو يطالبه بالتزكية والمراجعة.

القرآن لا يترك هذا السلوك دون كشف جذوره، فتأتي الآية تصفهم في قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾

فإما وراء ذلك: مرض في القلب، أو شك في عدل الشريعة، أو سوء ظن بالله ورسوله ﷺ. وتختم الآية وصف من كان هذا حالهم: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

والظلم تحكيم الهوى بدل ميزان الشريعة العدل.

وهنا تتضح خطورة "المطفف": فهو الذي يرفع شعارات الشريعة حين تخدم خطابه، ويستشهد بالنصوص التي تؤيد موقفه، لكنه إذا استدعته آية إلى كفّ ظلمه وعدوانه، إو إلى إيتاء كل ذي حق حقه، أو إلى ما لا يتفق وهواه! أعرض!

فهو يحب من الدين ما يحقق أمانيه، ويتفلت مما يضبط غروره.
يستحضر النصوص في ميدان الهوى، ويغيّبها في ميدان التقوى والانضباط بهدي السماء.

وفي المقابل يرسم القرآن صورة المؤمن الحق: فيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

لا يسأل المؤمن: هل الحكم لي أم عليّ؟
لا يفتش: هل يخدم سمعتي أم يجرّدني منها؟

بل يقول: سمعنا وأطعنا. بكل خضوع وإخلاص لله عز وجل.

ونحن هنا أمام إخلاص الدين لله وحده لا شريك له! أكثر ما خُذل في زماننا لغلبة الأهواء واشتداد الفتن!

ثم يربط هذا الوصف الرباني المهيب الفوز بثلاثة أركان: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

طاعة لله ورسوله ﷺ هي أساس الصدق،
وخشية هي مقياس الصدق،
وتقوى توثق الصدق.

فالإيمان التزام شامل، لا انتقاء جزئي. وهذا الدين يؤخذ كاملا بلا تطفيف! والجميع محاسب على ما يكنّه ويظهره!

فلا يعقل أن نستنفر النفوس لنصرة التوحيد في باب، ونخذله في باب آخر، ونقيم الأحكام الحاسمة في باب ونتهاون في الآخر!

لا يمكن أن نأخذ من الدين ما يسهل علينا ونترك ما يستعصي على أهوائنا!

إن أخطر ما يهدد الصفوف ليس الخصومة الظاهرة مع الدين، بل التديّن الانتقائي؛ أن يتحول الوحي إلى أداة تبرير لا إلى مرجعية تحكيم.

أن يُستدعى النص ليزكّي المواقف، لا ليهذّبها ويقومها.

وأن تستخدم الشريعة لظلم الشريعة!

والإسلام لا يقبل التطفيف. ولا يقبل أن يؤخذ بعضه ويُترك بعضه كما فعلت بنو إسرائيل.

ولا يقبل أن يُحكّم حين يوافق الهوى ويُعطَّل حين يخالفه.

فالميزان واحد، والمرجعية واحدة، والنجاة في كلمة واحدة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

ومن لم يرض بحكم الله تعالى إذا خالف هواه، فليخف أن يكون من الذين قال فيهم: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمرء بين حالين: مخلص دينه لله وحده لا شريك له، فيقول سمعنا وأطعنا بلا تفلت ولا احتيال ولا استياء!

أو مخلص دينه لهواه! فيلتف على شريعة الله تعالى ويوظّفها لنصرة هواه!

وشتان بين إخلاص وإخلاص، والله لا يظلم عنده أحدًا!

ثم لا تقف آيات سورة النور عند هذا التشخيص! بل تقدم لنا تشخيصا يخشع له القلب!

لنتأمل كيف تختتم سورة عظيمة جاءت لتربية المؤمنين على الاستقامة كما أمر الله تعالى بلا فجور ولا طغيان، بلا إفك ولا بهتان! بلا استخدام للتطفيف في التعامل مع الشريعة، كوسيلة للنكاية والفتنة والظلم والإفساد!

قال الله عز وجل: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

تأتي هذه الآيات في خواتيم سورة النور، بعد أن بُيِّنَت آداب الاستئذان، وأحكام البيوت، وضوابط الاجتماع والطاعة، تأتي هذه الآية كالتتويج لكل ما سبق؛ لتضع القاعدة الجامعة: أن العلاقة مع الرسول ﷺ ليست علاقة بشر ببشر، بل علاقة أمةٍ بوحيٍ، وطاعةٍ برسالة، وتعظيمٍ بأمرٍ إلهي.

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

فالرسول ﷺ في المجتمع المؤمن ليس مجرد قائد يُنادى كما يُنادى غيره، ولا شخصية عامة يُتعامل معها كما يُتعامل مع سائر الناس، بل هو مبلغٌ عن الله عز وجل، وصوته في الأمة صوتُ الوحي، وأمره امتدادٌ للأمر الإلهي.

وكأن السورة – بعد أن نظمت البيوت من الداخل – تنظّم القلوب من الداخل أيضًا:
إذا لم يُعظَّم الرسول ﷺ في القلب، لم تُحفظ الحدود في الواقع.
وتعظيم الرسول ﷺ يوجب تعظيم أمره ونهيه، ووصاياه وهديه! ومخالفة ذلك مخالفة عظيمة ولو كانت مخالفة مستترة متفلتة!

لذلك تكشف الآية بعد ذلك عن مرضٍ خفيّ:
﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾

فليس كل من حضر مطيعًا، وليس كل من جلس منصتًا منقادًا. بعضهم يتسلل في الظل، يتوارى خلف الأعذار، ينسحب دون مواجهة، يخالف بتفلت.

إنه نفاق السلوك. والتفلّت من الطاعة بأسلوبٍ مهذّب، إنه الهرب من التكليف بطريقةٍ لا تُحرج صاحبها أمام الناس ... لكنها لا تخفى على الله عز وجل.

ولذلك جاء التحذير صريحًا:

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وأكثر ما يتصدع له القلب خشية!! أن العاقبة لمثل هذا التفلت، هي الفتنة!

وما أدراك ما الفتنة، كان الصحابة يرتجفون من ذكرها خشية من ربهم عز وجل!

فهي أخطر من العذاب؛ لأن العذاب قد يكون عقوبةً تنتهي دون المساس برأس مال المرء للنجاة، أما الفتنة فتفسد رأس المال هذا! بانحراف داخلي: واضطراب في البصيرة، وقسوة في القلب!

فأي عقاب أشدّ من هذا!! وأي نور ينير طريقًا انطفأ فيه نور البصيرة وحُرم المعية الربانية!

وهذه الدقائق تتراكم في سيرة المرء –كلما استمرت الاستهانة – حتى يستحيل الاعتراض منهجًا.

ومخالفة أمر الرسول ﷺ – أيًا كانت المبررات– هي بداية تصدع في البناء الإيماني كله. لأن الطاعة هنا طاعة لله عز وجل. ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾.

ثم تختم السورة بهذا الإعلان الكوني الجليل:

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

كأن الرسالة الأخيرة تقول: لا تظنوا أن المسألة محصورة في مجلسٍ حضرتموه أو أمرٍ خالفتموه أو جمع خدعتموه!

أنتم في ملك الله، وتحت علم الله، وسائرون إلى الله.

هو يعلم حالكم الآن: ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾

ويعلم مصيركم غدًا: ﴿ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾

وسيظهر كل ما كان خفيًا: ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾

سورة النور بدأت بالنور الذي يبدد ظلمات الإفك والبهتان والظلم والطغيان، وختمت بالتحذير من فتنة مخالفة الرسول ﷺ والتفلت عن أمر الله عز وجل.

بدأت بتنقية المجتمع من الفوضى الأخلاقية، بضبط السلوك والحقوق والتحذير الشديد من التهاون في ذلك، وختمت بتنقية القلوب من الفوضى الخفية المتسترة بالنبل!

كأنها تقول: لا يكفي أن يُحفظ العرض، ولا أن تُصان البيوت، ولا أن تُضبط المجالس، حتى يُحفظ مقام الرسول ﷺ في القلوب. فحيث يُعظَّم أمره، يُحفظ المجتمع. وحيث يُتهاون بأمره، تبدأ الفتنة ... ولو في الخفاء. لكن عواقبها وخيمة!

إنها آية تعيد ترتيب المقامات:

مقام العدل فوق الظلم،

مقام الرسالة فوق المجاملة،

ومقام الطاعة فوق الأعذار،

ومقام العلم الإلهي فوق كل محاولة للتفلت.

فليحذر المرء المتفلت! فإن ابتلاء الفتنة أشد وأفتك وأثخن في النفس من كل عقاب! ولن يدرك ذلك! حتى لو صاحت به صيحات النذير! إلا أن يشاء رب العالمين.

ومن لم يحسب حساب الفتنة! ولم يتحصن منها باستقامة واستجابة مخلصة لله وحده لا شريك له، فلا يلومن إلا نفسه!

وللصدق أماراته .. فإيمان بلا تقوى ولا خشية ولا "سمعنا وأطعنا" بلا تطفيف أو تفلتٍ ... موجب للفتنة والضلال المبين!

اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، واجعلنا ممن أخلص دينه لله وحده لا شريك له، وجنبنا غضبة الهوى وتطفيف الهوى وظلم الهوى!

بين بيتٍ واهنٍ ومعيّةٍ إلهية، وبين شبكةٍ متداعيةٍ وهدايةٍ ربانية

في الوقت الذي يتعلّق فيه الناس بقوةٍ بشريةٍ هنا، أو بدولةٍ عظمى هناك، تأتي آيات سورة العنكبوت لتعيد ترتيب المفاهيم بنور الوحي المهيب، فتضبط الموازين، وتكشف حقيقة الأمان الزائف.

قال الله جلّ جلاله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

ليس المثل عن خيطٍ ضعيفٍ فحسب، بل عن وهم الأمان. فالعنكبوت تنسج بيتًا بإتقانٍ هندسيٍّ مدهش، شبكةً دقيقةً متناسقة، حتى إن العلماء يتحدثون عن قوة خيطها نسبةً إلى وزنه، وعن دقة بنيته المجهرية التي تفوق كثيرًا من المواد الصناعية من حيث نسبة القوة إلى الكتلة.

غير أن الإعجاز هنا أعمق من مجرد متانة الخيط؛ فالآية لم تقل: "أوهن الخيوط"، بل قالت: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾.

ويأتي مثل بيت العنكبوت بصيغة الأنثى في قوله تعالى "اتخذت". لأنها الوحيدة التي تبني بيت العنكبوت وتنسج شبكته المعقدة، بينما لا يملك الذكر القدرة على ذلك. ودقة الوصف القرآني تأسرك!

ثم بيت العنكبوت – من حيث حقيقته – ليس بيتًا يقي من حرٍّ ولا برد، ولا يحمي من مطر، ولا يصمد أمام أقلّ حركةٍ عابرة. بل إن البنية الداخلية لبعض أنواعه مضطربة؛ فقد تقتل الأنثى الذكر بعد التلقيح، أو يفترس بعضهم بعضًا.

إنه بناءٌ هشٌّ في مادته، وهشٌّ في روابطه.

وهكذا الذين اتخذوا من دون الله أولياء: ينسجون لأنفسهم شبكاتٍ من التحالفات، ويشيّدون أنظمةً فكريةً أو سياسيةً أو اقتصاديةً، ويتوهّمون أن هذه الشبكات تمنحهم الحماية والثبات.

لكنها حمايةٌ خادعة؛ لأنها قائمةٌ على غير أساس الحق. شبكةٌ قد تبدو معقّدة، لكنها أمام سنن الله في الكون كخيطٍ يتلاشى.

نحن أمام وصفٍ قرآنيّ بالغ الدقة لمن اتخذ أولياء من دون الله تعالى: ضعفٌ في الأصل، وهشاشةٌ في البناء، وخسارةٌ في المآل.

هكـذا يضـرب لنـا المثـل القـرآني مـثلا حقيقيًـا وواقعيًـا جـدًا، فالمشـركون في غـرورهم بأوليـائهم كـالعنكبوت في اغترارهـا ببيتِهـا، وأوليـاؤهم كبيـت العنكبـوت في عجـزه عنـد الحاجة.

وهكذا كل اعتمادٍ على غير الله: يبدو متماسكًا في الظاهر، لكنه ينهار عند الشدة. أما الاعتصام بالله وحده فهو القوة الحقّة التي لا وهن فيها ولا زوال.

وسورة العنكبوت تدور في مجملها حول محور الإيمان والابتلاء، وتؤكد أن طريق الدعوة إلى الله محفوف بالفتن التي تميز الصادق من المدّعي.

فهي تثبّت المؤمنين أمام أذى المشركين وطول تسلطهم، وتبين أن النصر وعدٌ إلهي لأهل الإيمان، وأن العاقبة لهم مهما طال البلاء.

وتعرض قصص الأنبياء لتقرر أن سنة الصراع بين الحق والباطل ماضية، وأن الحق الذي جاءت به الرسل هو نفسه الحق القائم عليه خلق السماوات والأرض.

كما تدعو إلى مفاصلة الشرك، والصبر، ومجادلة أهل الكتاب بالحسنى، وتؤكد فردية المسؤولية والجزاء يوم القيامة.

ويأتي مثل بيت العنكبوت ليجسد ضعف الاعتماد على غير الله، فيكون توحيد الله والثبات على دعوته أعظم مقاصد السورة وروحها الجامعة.

ثم تأتي خاتمة السورة لتفتح بابًا آخر، وتكشف سرّ القوة الحقيقية، بعد أن عرضت صورة الوهن:

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ينتقل الخطاب من بيتٍ واهنٍ إلى معيّةٍ إلهية، ومن شبكةٍ متداعيةٍ إلى هدايةٍ ربانية.

فالفرق بين الفريقين ليس في ظاهر الأدوات، بل في الوجهة والمرجعية.

أولئك جاهدوا لأنفسهم، أو لأوليائهم من دون الله، فكانت شبكاتهم كبيت العنكبوت.

وهؤلاء جاهدوا فينا؛ أي جعلوا جهادهم خالصًا لله، قصدًا لمرضاته، لا لعصبيةٍ ولا لمطمعٍ دنيوي، فجاء الجزاء عظيمًا: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

لم يقل: سبيلًا واحدًا، بل سُبُلًا؛ أبوابًا من الهداية والفتح والتيسير لم تكن تخطر لهم على بال.

إن سرّ الفتوحات الربانية في التاريخ لم يكن في وفرة العُدّة، ولا في كثرة العدد، بل في صدق "فينا".

حين تكون المجاهدة لله، تتحوّل القلّة إلى قوّة، والضيق إلى سعة، والحصار إلى فتح.

وكأن السورة تقول:

إما أن تنسج لنفسك بيتًا من وهمٍ فتنهار، وإما أن ترتبط بالله فتُهدى سُبُلَه.

بيت العنكبوت يقوم على خيطٍ متصلٍ بالمخلوق، أما طريق المجاهدين فيقوم على صلةٍ بالخالق.

والوهن ليس في قلة الإمكانات، بل في انقطاع الصلة بالله. والقوة ليست في كثرة الشبكات، بل في صدق المجاهدة "فينا".

ولن ينال فضل هذه المجاهدة التي يصفها الله عز وجل بسعة المعاني الجليلة، إلا من أخلص دينه لله عز وجل.

ثم تتجلّى عظمة الآية في ختمها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فهي معيّةُ نصرةٍ وتأييدٍ وتوفيق للمحسنين.

والمحسنون هم الذين جمعوا بين صدق القصد وإتقان العمل، وبين الإخلاص والمتابعة، فجاءهم الوعد بمعيّة الله عز وجل مهيبًا.

وما أعظمها من خاتمة!

فمن جاهد بإخلاص وإحسان كان الله معه!

ومن كان الله معه، فمَن عليه؟

ومن أحاطته معيّة الله، فأيُّ وهنٍ يقدر عليه؟

هناك يسقط بيت العنكبوت، وهنا تقوم دولة القلب بالله.

هناك وهم الأمان، وهنا حقيقة المعية.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .. عبارة تختصر طريق القوة كلّه، وتعلن أن سرّ الثبات ليس في الخيوط الواهنة، بل في الصلة بربّ العالمين الأبقى.

وبقدر صدق الإخلاص والجهاد والإحسان، تكون الفضائل والفتوحات!

فاللهم اجعلنا من عبادك المخلصين المجاهدين المحسنين إلى آخر رمق.

وأرنا عجائب قدرتك في بيوت العنكبوت.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾: سبيل الغرور أم تجارة لا تبور!

تشهد من حولك تدافعًا يختلط فيه الحق بالباطل، ويُستهان فيه بمخالفة أمر الله ورسوله ﷺ. تتسع الانحرافات، وتشتدّ أمراض القلوب المزمنة، ثم فتنٌ يتبع بعضها بعضًا كأنها موجٌ لا يهدأ. بل تماما كما وصفها نبينا ﷺ "كقطع الليل المظلم"..!

يرهقك هذا المشهد، ويثقل صدرك ما ترى من تدليسٍ مستمر، واستخفافٍ بالكذب والبهتان والإفك، واستهانة بالمعصية والبدعة والانحراف، حتى صار الباطل يُروَّج بثقة، ويُدافَع عنه بجرأة.

يؤلمك أكثر أن ترى إخلاصَ الدين يُصرَف لغير الله عز وجل، فيُناصَر الهوى باسم الحق، ويُتقرَّب إلى الخلق بما لا يكون إلا للخالق.

ثم تفتح مصحفك، فتقع عيناك على آياتٍ من سورة فاطر، فإذا بها وكأنها تحتضن همومك، وتنتشل قلبك من ثقل الضجيج، وتضع بين يديك ميزانًا يردّ الأشياء إلى حقائقها، فتهدأ نفسك وتطيب! لقد وجدت الإجابات كلها، لقد وجدت المواساة في عمقها!

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ سورة فاطر.

هذه الآيات من سورة فاطر، خطاب صريح كاشف لحقيقة الصراع في حياة الإنسان: صراع بين وعدٍ حقّ وزينةٍ خادعة، بين عداوةٍ معلنة وطمأنينةٍ مغشوشة، بين بصيرةٍ هي السلوى، وقلبٍ يُزيَّن له السوء فيراه حسناً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

النداء هنا عام: يا أيها الناس. لأنه نداء يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويخاطب إنسان اليوم كما خاطب إنسان الأمس.

وعد الله حق: وعده بالبعث حق، بالجزاء حق، بالنصر حق، بالتمكين حق، بالعدل حق. ولكن ما يحدث مع وضوح هذا الوعد، أن هناك زخارف وزينة وتشويش كثير يصرف عنه.

ولهذا جاء التحذير مباشرة: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

الدنيا اليوم لم تعد فقط متاعاً، بل أصبحت منظومة إغراء متكاملة: إعلام يزيّن، منصات تضخم، أضواء تخدع، مقاييس تقلب الحقائق، نجاح يُقاس بالانتشار لا بالاستقامة.

ثم يأتي التحذير الأشد: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾
أي ولا يخدعنكم عن طاعة ربكم، ومالك أمركم الْغَرُورُ!

لا يخدعنكم المخادع باسم الله، لا يخدعكم بالأماني الكاذبة فيفصل العمل عن الإيمان ويسوّف التوبة لصالح المزيد من المعصية!
لا يخدعكم بتأجيل التوبة فيوهمكم أن"ما زال في العمر بقية".
لا يخدعكم بتزيين المخالفة لله ورسوله ﷺ، تحت شعار الحرية أو الواقعية.
لا يخدعكم بسوء الظن بالله تعالى والظلم لصالح الحظوظ والأهواء، باسم الله تعالى!

إن كل غرور خطير ويبقى أخطر الغرور أن يُستعمل اسم الله لتبرير مخالفة أمره. فهي الفتنة وهي الظلام!

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾

تحمل الآيات تحذيرًا مصيريا في حياة الإنسان، وليس هو تحذيراً من عدو خفي فقط، بل أمر باتخاذ موقف حقيقي منه.

فالشيطان عدو، لكن كثيرين لا يتعاملون معه كذلك. فيتساهلون مع خواطره، ويفتحون له أبواب النظر، ويستمعون إلى وساوسه ويسترسلون خلف خطواته.

ثم يكشف القرآن غاية هذا العدو الحقيقي النهائية: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

فالقضية مع الشيطان صراع مستمر، هدفه فيه أن يحرف مسار وانتماء الإنسان لكل ما يفسد عليه عبوديته لله تعالى، وقد يبدأ بخطوة صغيرة، لكن الاتجاه والانتماء إن لم يُصحح يقود إلى النهاية التي يريدها هذا العدو اللدود.

وفي واقعنا: كم من باطل انتشر من مجرد فكرة "ترفيه"؟ وكم من انحراف بدأ لمجرد "تجربة"؟ وكم من فجور فتك لمجرد "رد فعل"؟

والنهاية: قسوة في القلب، وطمس للبصيرة، واعتياد على المعصية.

ثم بعد هذا التشخيص، تأتي هذه الآية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

لترسم المفاصلة بوضوح: فليس الجميع سواء. بل هما طريقان: طريق ينتهي بعذاب شديد. وطريق ينتهي بمغفرة وأجر كبير.

والفرق بينهما ليس بالشعارات، بل بحقيقة الوصف: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

فلا بد من إيمان صحيح وعمل صالح! إيمانٌ يثمر عملاً. وعملٌ يحفظ الإيمان.

وفي زمن تختلط فيه المعايير، تأتي هذه الآية لتعيد الميزان إلى وضوحه: ولترسخ حقيقة أن القيمة ليست في كثرة الضجيج، بل في صلاح العمل وسلامته وقبوله، وليس في الانتصار للنفس، بل في الانتصار للحق. وما أعزّ من ينتصر للحق!

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾
وتحذرنا الآية من أخطر مرحلة، فهي ليست في أن يعصي الإنسان ربه وهو يعلم فحسب، بل هي في كونه يرى هذه المعصية أمرًا حسنًا..!

فتزيين الباطل أخطر من الذنب. لأن صاحب الذنب قد يتوب، أما صاحب الباطل المزيَّن فيدافع عنه بإخلاص!

وفي واقعنا: نرى الكثير من هذه الأمثلة، ممن يبرر الظلم باسم المصلحة. ومن يسوغ الفجور باسم الحرية. ومن يقذف ويشتم باسم الغيرة على الدين. ومن يحرّف الحقائق باسم النصرة.

كل هذا من آثار التزيين. ثم يأتي التوجيه للنبي ﷺ، وهو توجيه للمؤمنين:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

فما أعظمها من كلمات، وما أشفاها لصدور المؤمنين!

فالهداية بيد الله تعالى والله خبير بصير بعباده. وليس عليك أن تحترق، لأن غيرك اختار العمى. بل عليك البلاغ، وعليك الثبات، وعليك الإصلاح ما استطعت.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، من ظلم، أو نفاق، أو إخلاص.

وهكذا تبدأ الآيات بنداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وتنتهي بتذكير: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

وبين النداء والعلم الإلهي مسافة الاختبار. لتتلخص معالم الحق في:

- الوعد حق.
- الشيطان عدو.
- الطريقان الواضحان: سوء العمل وصلاح العمل.
- والعلم الإلهي محيط بكل ما يجري.

فمن اغتر بالدنيا، تبع العدو (الشيطان)، وانخدع بالتزيين، وانتهى إلى الحسرة. ومن صدّق الوعد، واتخذ الشيطان عدواً، وجاهد نفسه على العمل الصالح، نال المغفرة والأجر الكبير.

الآيات تعيد ترتيب الوعي: فليست المعركة مع الناس أولاً، بل مع الغرور. وليست المشكلة في كثرة الباطل، بل في تزيينه. وليست النجاة بكثرة الجدل، بل بثبات القلب على الحق.

فأيها المسلم، إن الوعد حق... فلا تنخدع. والشيطان عدو... فلا تصادقه. والجزاء حق... فاختر طريقك مخلصا دينك لله وحده لا شريك له. والله عليم... فلا تغفل ولا تنحرف!

هـذه الآيات دعـوة إلى بصـيرة؛ ليكـون القلـب ثابتـاً لا تغريـه الزخـارف والزينـة، ليكـون واعياً أمام العداوة، مطمئناً إلى الوعد، مستحضراً علم الله في كل حركة وسكون.

إذا تأملنـا سـياق هـذه الآيات نجـدها تبـني سـلّمًا تربـويًا متـدرجًا يُخـرج الإنسـان مـن الظلمات إلى النور:

فـالآيات تبـدأ بإعـلان الحقيقـة الكـبرى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم تكشـف أول معـوق: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ثم تكشف المصدر الخفي لهذا الغرور: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ثم تضع أمامك نتيجة الطريقين: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أو ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ثم تحذرك من أخطر المراحل كلها: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

وهذه هي المأساة الحقيقية في واقعنا: فلم يعد الصراع بين حق واضح وباطل مكشوف، بل بين حقٍّ يُحارَب، وباطلٍ يُسوَّق على أنه فضيلة، وبين انحراف يُقدَّم باعتباره تقدّمًا، وقسوة تُسمى دهاءً، وتنازل عن الدين يُسمى واقعية.

ومـن هنـا نفهـم لمـاذا ختمـت الآيات بقولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.

لأن من وصل إلى مرحلة "رؤية السوء حسناً" لم يعد الخلل في وعيه، بل في بصيرته. ولم تعد المشكلة في الدليل، بل في القلب الذي قسى ولم يعد يستجيب.

وهنا يعود النداء من جديد كأنه يطرق القلب مرة أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لا تجعلوا الغرور يصمّ آذانكم. لا تجعلوا التزيين يسرق بصيرتكم. لا تجعلوا طول الطريق يُنسيكم نهاية الطريق.

ثم نتقدم قليلا مع آيات سورة فاطر، لنقف بأدب وخشوع عند قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

هذه الآيات من سورة فاطر تفتح أمام القلب مشهدًا متكاملاً: طريق واضح المعالم، وتجارة رابحة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾

بدأت الآيات بالفعل المضارع: يتلون؛ وكأنها ترسم حياةً مستمرة لا موسمية، صلةً دائمة بالوحي لا انفعالًا عابرًا. والتلاوة هنا ليست حركة لسان فحسب، بل صحبةٌ وتدبرٌ وانقياد.

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

ثم جاءت الصلاة والإنفاق؛ وكأن القرآن لا يُراد له أن يُحبس في الصدور، بل أن يتحول إلى قيامٍ بين يدي الله، وإحسانٍ إلى عباد الله. صلةٌ بالخالق، ونفعٌ للخلق، هذا هو الميزان.

ثم وصفت هذا الطريق بأنه تجارة، لكنها ليست كسائر التجارات: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾

في الدنيا، كل تجارة معرضة للخسارة، إلا هذه. رأس مالها الإيمان، وبضاعتها العمل الصالح، وربحها مضمون؛ لأن الطرف الآخر هو الله ﷻ. لذلك قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

ليس عدلًا فحسب، بل فضلٌ فوق العدل. يعطيهم حقهم كاملًا، ثم يفيض عليهم من كرمه. وختمها باسميه: غفور شكور؛ يغفر التقصير، ويشكر القليل، فيحوّله كثيرًا. فسبحان ربي العظيم!

ثم يقرر حقيقة كبرى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾

الحق الذي لا يتبدل بتبدل الأزمنة، ولا يتأثر بضجيج الباطل. وهذا الحق أورثه الله أمةً اصطفاها، فجعلها حاملة للرسالة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

لكن الاصطفاء لا يلغي التفاوت، وهنا محطة مرهبة!

فبين ظالم لنفسه: حمل الكتاب اسمًا لا أثرًا، فقصّر وظلم نفسه بالمعصية والغفلة.

وبين مقتصد: أدى الواجبات وترك المحرمات، لكنه لم يبلغ ذروة السبق.

وبين سابق بالخيرات بإذن الله: جعل القرآن قائدًا لحياته، فسابق إلى الطاعات، وتخفف من العوائق، وارتقى.

ومع هذا التفاوت، يجمعهم وعد الجنة، لأن أصل الاصطفاء باقٍ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾

ثم ينطق أهلها بكلمة تختصر رحلة الدنيا كلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾

الحزن الذي لازمهم خوفًا من التقصير، وألمًا من الفتن، وصراعًا مع النفس والشيطان. ذهب كله، وبقي الفضل. ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

لا تعب بعد اليوم، ولا إرهاق. دار إقامةٍ لا انتقال بعدها، وطمأنينة لا يعقبها قلق.

وإذا تأملت هذه المعاني، وجدتها الجواب العملي لما تقرر قبلها في السورة: التحذير من الاغترار بالدنيا، والتنبيه إلى عداوة الشيطان، وبيان أن من الناس من يُزيَّن له سوء عمله فيراه حسنًا.

هناك ذُكر خطر الخداع، وهنا ذُكر طريق النجاة.
هناك حديث عن الغرور، وهنا عن تجارةٍ لا تبور.

هناك عدوٌّ يدعو إلى السعير، وهنا كتابٌ يقود إلى جنات عدن.

فالسورة ترسم خطين متقابلين:
خطًّا يزيّنه الشيطان حتى يُرى الباطل حقًا،
وخطًّا يثبّته القرآن حتى يُرى الحق حقًا.

والفاصل بين الطريقين ليس كثرة العلم المجرد، بل صدق التلاوة، وإقامة الصلاة، وبذل الإنفاق، ورجاء التجارة مع الله ﷻ.

فمن أراد ألا يُخدع بزينة السوء، فليدخل في زمرة التجار مع الله. ومن خاف أن يكون ممن زُيِّن له عمله، فليجعل القرآن ميزانه اليوم، حتى يكون غدًا ممن يقول في دار المقامة: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله.

يتفطر القلب لآيات فاطر!

على أساس التقوى المتين .. بشّر المؤمنين

يقول الله عز وجل في سورة التوبة، سورة براءة العظيمة:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨)

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا. فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه. إنما عليك بالمسجد الذي أسس على التقوى.

والمسجد الذي أُسِّس على التقوى منذ أول يوم هو مسجد قباء؛ قام على إخلاص العبادة لله، وإقامة ذكره وشعائره، فكان عريقًا في الطاعة، راسخًا في الإيمان. لذلك كان أحقَّ أن تُقام فيه الصلاة ويُتقرَّب فيه إلى الله عز وجل.

وقد مدح الله أهله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾؛ يحرصون على طهارة الظاهر من الأنجاس، وطهارة الباطن من الذنوب. ومن أحبَّ الطهارة سعى إليها، فكانوا من السابقين إلى الإسلام، المحافظين على الصلاة، المجاهدين مع رسول الله ﷺ، الحريصين على امتثال أمره واجتناب نهيه.

ولذلك لما سألهم النبي ﷺ عن طهارتهم أخبروه أنهم يُتبعون الحجارة بالماء، فحمد فعلهم، لأن الله يحب المطَّهِّرين: بطهارةَ القلب من الشرك والرذائل، وطهارةَ الجسد من الأحداث والأنجاس.

وهدي هذه الآية ليس مجرد توجيه مكانيّ: "لا تقم هنا، وقم هناك"، بل هي ميزانٌ ربانيّ يفرّق بين بناءٍ يقوم على الهوى وبناءٍ يقوم على التقوى، بين صورةٍ دينيةٍ خادعة، وحقيقةٍ إيمانيةٍ صادقة.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نهيٌ قاطع، لا تردد فيه، ولا مجاملة، ولا تساهل.

فالمسجد الذي بني ضرارًا كان في ظاهره مسجدًا، لكن باطنه كان مؤامرة.

وهنا تتجلى قاعدة عظيمة: ليس كل ما لبس ثوب الدين هو من الدين. وليس كل اجتماعٍ على العبادة – مهما أعجب الناظرين – دليلَ إخلاص.

والوقوف – ولو لحظة – في مكان بُني على غير أساس صحيح، يمنح الباطل شرعيةً لا يستحقها. لذلك وجب على المسلم أن يتحرّى أي يضع نفسه. فهي حياة واحدة لا يضعها في غير أساس التقوى المتين.

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾

والتقوى هنا أصل يُغرس منذ البداية. والعمل الذي يقوم على أساس الإخلاص يستمر ثابتا مؤيدًا على عكس الذي خالطه الهوى والدخن والظلم وفساد المنطلق.

"من أول يوم"... وكأن الآية تشير إلى أن الانحراف لا يبدأ فجأة، بل يبدأ حين تُهمل متانة الأساس. فإن فسد الأصل، كان كل ما يُبنى عليه وإن بدا عظيمًا، هشًّا في ميزان الله عز وجل.

وكم من مشروعٍ إسلامي، أو عملٍ دعوي، أو نشاطٍ خيري، ظاهرُه خدمة الدين، لكن دافعه رياء، أو صراع رياسة وشهرة وحب تفرد بالصيت، أو طلب جاه أو إخلاص الدين لغير الله عز وجل! والآية تعيدنا إلى السؤال الجذري: على ماذا أُسِّس؟ ما كانت دوافعه الأساسية!

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾

لم يمدح الله البناء، بل مدح الرجال الذين في هذا البناء. فالمكان يكتسب شرفه من أهله، لا العكس. وهنا لفتة دقيقة: "يحبون أن يتطهروا". لم يقل "يتطهرون" فقط. فالطهر يبدأ من المحبة، من شوق القلب للنقاء، من حساسية الضمير تجاه الذنب.

إنه تطهّر شامل: تطهّر من الشرك بالتوحيد. ومن الرياء بالإخلاص. ومن الكِبر بالخضوع. ومن النجاسة الحسية بالطهارة الكاملة.

فالطهارة هوية ومنهج وغاية.

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

لم يقل: "ويثيبهم" فقط، بل قال: "يحبهم". وأي منزلة أعلى من أن تكون محلّ محبة الله؟

والمطهرون لا يكتفون بترك القذر، بل يجاهدون أنفسهم ليبقوا في صفاء دائم. والمحبة هنا ثمرة مجاهدة خفية، لا يعلمها إلا الله جل وعلا.

فمن أراد أن يحظى بحب الله تعالى، فليُصلح أساسه، وليُزكِّ باطنه، وليجعل التقوى جذره الأول.

وهكذا تضع أمامنا هذه الآية معادلة واضحة: لا قيمة لصورة باهرة بلا أساس متين. ولا وزن لبناء – مهما علا– بلا تقوى. ولا شرف لمكان بلا رجال صادقين. ولا كرامة لعبدٍ لا يسعى للطهارة.

فانظر لنفسك دوما – أيها المسلم– أين تقف؟ وفي أي مسجدٍ تقيم؟

هل تقف حيث يُبنى المجد على الإخلاص؟ أم حيث تختلط الشعارات بالأغراض؟
هل أنت حقًّا على منهج النبوة المهيب، أم على طريق شهوات الأنفس الدنيئة؟

إنها دعوة إلى مراجعة الأساسات قبل زخرفة الواجهات... لتفقد النوايا وقواعد البناء ومقاصده .. قبل لمعة الشعارات وجاذبية الدعايات، فالله لا ينظر إلى الأبنية، بل إلى القلوب التي أُسِّست على التقوى من أول يوم.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

يفاضل الله بين الأعمال بحسب نيات أصحابها وصدق مقاصدهم؛ فالبناء الذي أُسِّس على تقوى من الله وابتغاء رضوانه، قائمٌ على الإخلاص والمتابعة، ثابتُ الأساس مباركُ العاقبة.

أما البناء الذي أُقيم على غير هدى، كمن بناه على حافة جرفٍ متداعٍ، فهو آيلٌ للسقوط، لا ثبات له ولا أمان؛ ينتهي بصاحبه إلى الهلاك.

والعبرة ليست بصورة العمل، بل بأساسه: أتقوى ورضوان، أم هوى وعدوان؟ والله لا يوفق الظالمين لما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

هذه الآية تُكمل المشهد السابق، لكنها تنتقل من النهي إلى المقارنة الحاسمة. إنها ليست مقارنة بين مسجدين فحسب، بل بين منهجين في الحياة، بين قلبين، بين نيتين، بين مصيرين.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾

السؤال هنا استنكاري، لا ينتظر جوابًا؛ فالجواب معلوم بالفطرة. لكن الله يطرحه ليوقظ في القلب بداهته التي قد تطمسها الشهوات.

والتأسيس على "تقوى" يعني مراقبة الله. والتأسيس على "رضوان" يعني طلب رضاه، لا رضا الناس.

وبين هذه وتلك معاني جليلة وأمارات لا تخفى، تدور في فلك التقوى وموجباتها!

وهنا خلاصة عظيمة:

التقوى تتعلق بالقلب والنية،

والرضوان يتعلق بموافقة الأمر والاتباع.

فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة، فقد أتمّ البناء.
وكل عملٍ فقد أحد هذين الركنين، فهو معرض للسقوط.

﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾
تخيّل بناءً قائمًا على حافة هاوية، الأرض تحته متشققة، متآكلة، قابلة للانهيار في أي لحظة.

هذا هو العمل الذي بُني على: الرياء، أو العصبية، أو الهوى، أو مخالفة أمر الله تعالى أو كلها جميعا معا.

وحتى إن كان يبدو صلبًا أمام الناس، إلا أنه في الحقيقة هشّ. والأنكى، أن صاحبه قد لا يشعر بالخطر، لأنه منشغل بزخرفة الجدران، وتلميع الواجهات، وتركيب الدعايات الجذابة، لا بتثبيت الأساس الهشّ!

﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾
لم يقل: "فانهار فقط"، بل حدّد المصير "في نار جهنّم" والعياذ بالله! لأن السقوط هنا ليس مجرد فشل دنيوي، بل هلاك أبدي.

وهنا يظهر معنى عميق: فالعمل الفاسد لا يسقط وحده ... بل يسقط بصاحبه.

وكم من إنسان ظنّ أنه يبني مجدًا، فإذا به يحفر لنفسه حفرة تكون نهايته فيها! وكم تكرر هذا المعنى عبر التاريخ، ولكن قلّ من يعتبر!

فما الذي أدى إلى هذا الانهيار؟!

إنه الظلم! لذلك قال الله عز وجل بعد ذلك:

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

والظلم هنا ليس فقط ظلم الآخرين، بل أعظم الظلم: ظلم النفس، بوضعها في غير موضع العبودية الخالصة. وتلك هي حالة الشرك والكفر وإخلاص الدين لغير الله عز وجل، نهايتها مظلمة!

والذي يبني على غير تقوى، قد ظلم: نفسه والآخرين!

ومن حُرم الهداية، بقي يتخبط على حافة الجرف، حتى يأتي الانهيار.

كلنا نبني. نبني بالصلاة، بالصدقة، بالدعوة، بجهاد الكلمة، بمشاريع العلم والخير، بالعلاقات في سبيل الله، بالأسرة، بالجيرة وغير ذلك من الأعمال الصالحة ...

لكن الأهم ليس: كم بنيت؟ بل: على ماذا بنيت؟

هل بنيت كل هذا على: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة النبي ﷺ؟

هل بنيته على مراقبة الله وطلب رضاه؟ أم على تقليد أعمى وأجوف، أو حظ نفس أضّل وأفسد؟!

أم بنيت على إعجاب الناس، أو حمية، أو خصومة، أو مجاراة للواقع؟ كل هذه التفاصيل هي التي تصنع الفارق، وليس حجم البناء وجماله الظاهر!

هذه الآية تعلّمنا أن: الأساس أهم من ارتفاع البناء. والثبات أهم من اتساعه، والصدق أهم من شهرته!

فالبناء الذي يبدأ بالله ... ينتهي برضوانه. والبناء الذي يبدأ بالهوى ... ينتهي بالهوّة.

فلنُراجع أساساتنا قبل أن تعلو جدراننا، ولنثبت أقدامنا قبل أن نفاخر بأبنيتنا... لأن الامتحان المعتبر يوم نلقى الله تعالى لن يكون: ماذا شيّدت؟ بل: على أي أرضٍ وضعت أول حجر؟

وإن كان هذا الحال في الآخرة .. فإن في الدنيا ثمن يدفعه المتهاون ولا بد! لذلك قال الله عز وجل بعد ذلك:

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٠)

رغم كل ما بذلوه! يبقى بنيانهم الذي شيدوه سببًا للريبة الراسخة في قلوبهم، لا يزول أثره إلا بتوبة صادقة تُمزِّق القلب ندماً وخشية؛ وإلا ازدادوا شكًّا على شكٍّ ونفاقًا على نفاق. والله عليمٌ بالسرائر كما هو عليمٌ بالظواهر، حكيمٌ في حكمه وتقديره.

هكذا تكشف الآيات حقائق مصيرية: فليس كل عمل صالحًا بصورته، بل بنيّته ومقصده؛ فقد يحوِّل فساد القصد عبادةً إلى معصية. وكل ما يفرّق صف المؤمنين أو يضرّهم أو يعين على باطل فهو محرّم، كما أن كل ما يجمعهم على مقتضيات "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ويقوّيهم ويحفظ لهم دينهم وآخرتهم، مأمورٌ به.

والمعصية تترك أثرها في الأماكن كما تتركه في القلوب، والطاعة تُبارك البقاع كما باركت مسجد قباء. فالعمل المؤسَّس على الإخلاص والمتابعة ثابتٌ مبارك، يقود إلى جنات النعيم، أما ما بُني على هوى وضلال فمصيره السقوط والهلاك.

ونلاحظ بعد أن صوّر الله تعالى البناء القائم على شفا جرف هار، كشف لنا أثره الباطني المستمر... لأن الانهيار ليس لحظةً تأتي مرة واحدة، بل أثرٌ ممتد في القلب. وهنا يأسرك التشخيص الدقيق في القرآن لمسار الانحرافات ودقائق الانحراف!

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

لم يقل: "لا يزال بناؤهم قائما"، بل قال: "ريبة في قلوبهم". أي أن المشكلة لم تعد في الجدران، بل في الصدور. لأن العمل الفاسد يترك أثرًا نفسيًا وروحيًا: ومن أعراضه: القلق الداخلي، والاضطراب الخفي، والشك في الطريق، والقسوة التي لا تُفهم أسبابها، ولعل هذا ما يزيد الحالة تأزمًا، فيتمادى الظالم في الظلم، لاستمرار القسوة، ويعود أثر ذلك على قلبه من جديد بمزيد قسوة! وكأنها حلقة هلاكه!

وهنا تفصيل مهم لتشخيص أمراض القلوب: فالإنسان قد ينسى معصيته وهو مقيم عليها لم يتب منها، لكن المعصية لا تنساه. تبقى أثرًا ساكنًا في أعماق قلبه، توهن يقينه، وتكدر صفاءه.

وكما تدين تدان!

فالبناء الذي أُسس على ضرار وتفريق لم ينتهِ أثره بهدم المسجد، بل بلغ الهدم قلوب أصحابه.

وهذه سنة خطيرة: العمل إذا بُني على هوى، أورث صاحبه شكًا.

وإذا بُني على إخلاص، أورث طمأنينة.

ولهذا تجد أهل الإخلاص قلوبهم ثابتة مطمئنين لمعية ربهم، متوكلين صابرين، لا يضرهم من خذلهم. وأهل الرياء قلوبهم مضطربة، منشغلين بتزيين صورتهم، وإن علت أصواتهم، لا تنفك فلتات الاضطراب بادية على ملامحهم وتصرفاتهم.

﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

تعبير يهزّ القلب! فليس الحديث عن مجرد شعور بالندم، بل ندم يقطع القلب ألمًا وخوفًا وحياءً من الله عز وجل. وكأن الله يقول: لا يزول أثر العمل الفاسد إلا بتوبة صادقة تمزق القلب من الحسرة.

فالتوبة في حقيقتها انكسار لله تعالى يدفعه الحياء والندم والإخلاص.

ومن أعجب ما تشير إليه الآيات السابقة واللاحقة: أن المعصية تؤثر في القلب وتؤثر في المكان وتؤثر في الجماعة. فأثرها متعدٍ ومستمر!

ومسجد الضرار لم يكن مجرد بناء، بل كان مشروع تفريق... لذلك صار مكانًا منهيًا عن الصلاة فيه. وفي المقابل، كان مسجد قباء مكانًا أُسس على تقوى، فصار محل ثناء إلهي. وكذلك مسجد النبي ﷺ وكل مسجد اجتمع فيه الإخلاص والمتابعة والعمل الصالح لمرضاة الله تعالى، لأن المكان يتشرف بالطاعة، ويُظلم بالمعصية.

وهكذا نرى كيف تجمع هذه الآيات خلاصة مهيبة:

"لا تقم فيه أبدا". فليس كل مشروع يرفع لافتة جميلة يوجب الانكباب عليه، بل يجب تفقد أسسه ودوافعه وحقيقة حسن اتباعه. وكل ما بني على حظ نفس أو مرض قلب، أو ظلم وإسراف، افتقد للتقوى..!

ومن أبى إلا ذلك، فليتحمل عواقب كبره وعناده في نفسه وفي آخرته! فلابد من ثمن لكل انحراف ومخالفة لأمر الله تعالى في الدنيا والآخرة.
ولا نجاة إلا بتوبة خالصة لله تعالى، وانكسار صادق بين يدي الله عز وجل.

وهنا وقفة مهمة لكل مسلم وكل جماعة مسلمة:
ما هي "الأبنية" التي لا تزال ريبة في قلبك؟ ما العمل الذي حقا لم تخلص فيه لله تعالى؟
ما هي المواقف التي بنيتها على عصبية؟ ما المشروع الذي بدأته لمنافسة ونكاية لا لموافقة وسلامة؟
هل من خصومة غذيتها بدل أن تطفئها؟ أم من حقد وحسد ومقصد المنافسة الجائرة؟
كم حصل أن عصيت الله وكذبت وتحايلت، لأجل نصرة نفسك وجماعتك! كم حدث أن أخلصت دينك للهوى والجماعة على حساب مرضاة ربك!

أحيانًا يكون القلق الذي يحمله القلب في عمقه، أثر بناءٍ لم يُؤسس على تقوى.

هذه الآيات لا تتحدث فقط عن مسجدٍ بُني في زمن النبوة، بل عن كل مشروعٍ يُقام باسم الخير، وهو يخفي غير ذلك. وتعلمنا أن الإخلاص يحفظ العمل. والمتابعة تزكيه. والتقوى تثبته. وسوء النية يترك في القلب شقوقًا لا تُرمم إلا بتوبة موجعة صادقة.

فراجع أساساتك أيها المسلم ... فإن كان فيها صدع، فبادر للاستدراك والإصلاح قبل أن يتحول إلى جرفٍ هار، وقبل أن يصبح البناء ريبةً تسكن قلبك إلى أن يتقطع.

ثم تأتي البشارة .. بعد توضيح البناء المتين، وتفصيل الخطر المحيط!

بشرى البيعة العظمى:

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

يخبر الله تعالى بخبرٍ حقٍّ ووعدٍ صادق عن صفقةٍ عظيمة لم تعرف البشرية مثلها: لقد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وجعل ثمنها الجنة.

هي معاملة ربانية، يبذل فيها المؤمن أغلى ما يملك – النفس والمال – في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، فيجاهد صادقًا، غير ملتفتٍ إلى ربحٍ دنيوي أو خسارةٍ عاجلة، لأن العوض أعظم وأبقى.

وأكّد الله هذا الوعد في أعظم كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، على ألسنة صفوة رسله، عليهم السلام، فاجتمع شرف المشتري، وعظمة الثمن، وسموّ الغاية، وصدق الوعد. ومن أوفى بعهده من الله؟

فليستبشر المؤمنون بهذه البيعة المباركة، وليهنئ بعضهم بعضًا بصفقةٍ رأس مالها الفناء، وربحها الخلود، وثمرتها رضوان الله وجنات النعيم. وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يدانيه فوز.

هذه الآية ليست مجرد وعد، بل إعلان صفقة سماوية، وعقد رباني، وبيعة بين العبد وربه. إنها تنقلنا من منطق التكاليف إلى منطق التجارة، ومن مفهوم التضحية إلى مفهوم الربح.

وأول ما يهز القلب في الآية أن المشتري هو الله ﷻ. فأي شرفٍ أعظم من أن يكون الله طرفًا في عقدك؟ ليس وسيطًا، ولا شاهدًا، بل هو المشتري بنفسه الكريمة.

فإذا كان الناس يفتخرون ببيع بضاعة لتاجر كبير، فكيف إذا كان الذي اشترى منك هو رب العالمين؟

ثم ما الثمن: إنها الجنة!

ليست راحة مؤقتة كما في تجارة الدنيا، ولا نعيمًا منقطعًا كما يعتاد الناس في حياتهم، بل خلود، ورضا، وقرب من الله تعالى، والأعظم من نعيمها: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

فأي تجارة هذه التي يدفع فيها العبد شيئًا فانيًا، ويأخذ مقابله نعيمًا أبديًا؟
ثم ما السلعة: إنها النفس والمال. وهما أحب ما يملك الإنسان.

وكأن الله يقول: أعطني أحب ما عندك، أعطك أحب ما عندي!
وهنا سر الابتلاء؛ لأن المحبة لا يُبرهن عليها مثل البذل.

والعبد في الحقيقة مملوك لله أصلًا، لكن التعبير بالشراء تكريمٌ وتشريف، وكأن الله أعاد ملكية ما هو له أصلًا ليمنحك ثمنًا عليه! فكان الفضل فوق الفضل، والرحمة فوق الاستحقاق.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

ولم يكن هذا وعدًا خاصًا بأمة دون أمة، بل هو مبدأ ثابت في جميع الرسالات: فطريق الجنة يمر عبر البذل والصبر والثبات. هذه سنة ثابتة.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾

كأن الآية تخاطب القلوب المجاهدة: لا تحزنوا على ما بذلتم، ولا تأسوا على ما فقدتم، فالخسارة الحقيقية أن تخرجوا من الدنيا بلا عقد.

والتاجر الذي عقد صفقة، يعلم أن ربحه فيها مضمون عليه أن يستبشر ويفرح!

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

والفوز ليس في النجاة والسلامة فقط، بل في دخول الجنة وفي القرب من الله، وفي رضاه.

وهنا لفتة مهمة: كلما شعرت بثقل الطاعة أيها المؤمن، تذكر أنك لا تؤدي واجبًا فقط، بل تعقد صفقة. كلما هممت بترك معصية، تذكر أنك تحافظ على استثمارك. كلما بذلت مالًا في سبيل الله، فاستحضر أنك تستبدل عملة زائلة بعملة خالدة.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل نحن نعيش كأصحاب صفقة رابحة؟ أم كأننا لم نوقّع العقد بعد؟

ورمضان موسم تجديد البيعة، ومواسم الطاعات فرص لمراجعة الشروط، فليتأمل كل منا: هل بعت حقًّا؟ أم ما زلت أفاوض؟

لكن مما يجب الانتباه إليه، أن وصف المؤمنين الذي يحظون بشرف هذه الصفقة! يأتي في وصف الآيات التالية.. وهو ما يستوجب وقفة خشوع!

وصفُ من هم أهل للصفقة!

يقول الله عز وجل بعد أن أعلن صفقة البيع العظمى، وبشّر المؤمنين بالفوز العظيم:

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١٢)

وكأن القلب يسأل: من هم هؤلاء الذين صدقوا في بيعهم؟ من هم الذين استحقوا أن يُقال لهم: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾؟

فيأتي الجواب مباشرة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

كأن الآية توضح لنا: ملامح الذين وقّعوا العقد حقًا. وهم:

التَّائِبُونَ: الملازمون للتوبة الدائمة عن جميع السيئات، فلا ييأسون من رحمة الله مهما كثرت أخطاؤهم. والتوبة عبادة ملازمة. كلما زلّ العبد عاد. وكلما ضعف، استغفر. فهو يعلم أن الصفقة لا تحتمل الإصرار على الخيانة. بل على النقاء والطهر..!

الْعَابِدُونَ: البيعة عبودية دائمة. والذي با ع نفسه، لم يعد يملكها لغير طاعة الله. صارت حياته كلها لله. فالعابدون هم المستمرون في عبادة الله وأداء الواجبات والمستحبات. طاعتهم متواصلة في كل زمان ومكان. لكنها طاعة لله وحده لا شريك له، وإخلاص دينهم لله وحده عز وجل.

الْحَامِدُونَ: الشاكرون في الرخاء والشدة، معترفون بجميل الله عليهم، مثنون عليه بالذكر في الليل والنهار. في الأقدار المفرحة كما في الأقدار المؤلمة، قد أحسنوا الظن بربهم ومولاهم، يرضون عن أقدارهم أيًّا كانت، بل يحبونها، لأن الله اختارها لهم، محبة فيه جل جلاله.

السَّائِحُونَ: قيل الصائمون وقيل المنهمكون في أعمال القربات، كسفرهم في الحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، أو سياحة قلوبهم في معرفة الله وحبه

والإنابة إليه الدائمة. إنهم أهل الحركة في الطاعة، لا يقعدون عن الخير، ولا تجمد قلوبهم عند حدٍّ من القربات. يسافرون بأبدانهم وأرواحهم في طرق الطاعة، طلبًا لرضا المشتري العظيم.

الرَّاكِعُونَ وَالسَّاجِدُونَ: المكثرون من الصلاة، مواظبون على الركوع والسجود، تجسيدًا لخضوعهم الكامل لله تعالى، قد علموا أن مرافقة النبي ﷺ في الجنة تكون بكثرة السجود. والصلاة تجديد عهد يومي.

الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ: الداعون إلى الخير، القائمون بواجباتهم ومستحباتهم، مفعمون بحب الخير للناس. كما يحبونه لأنفسهم. قد علموا أن خيرية هذه الأمة قائمة على شعيرة الأمر بالمعروف وما يليها:

النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ: الذين يصدون عن كل ما نهاهم الله ورسوله ﷺ، عنه من المعاصي والظلم. لا تأخذهم في الله لومة لائم! ومن ذاق ربح الصفقة، لا يرضى أن يرى غيره يخسر. فهو يريد للناس أن يدخلوا السوق نفسه، وأن يربحوا الربح ذاته.

الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ: الذين يتعلمون حدود الله وأحكامه ويعملون بها، ملتزمون بالفعل والترك، محافظون على شريعته في كل أمورهم. وفي ذلك دلالة إخلاص الدين لله تعالى.

لا يساومون على دينهم أحدًا. لا يتلاعبون بالشروط، ولا يقتربون من مناطق الشبهة. يعلمون أن حدود الله سياج الأمان، ومن خرج عنه عرّض عقده للخطر.

ثم يختم الله تعالى بالوعد العام: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"، ليعم الخير كل مؤمن بحسب إيمانه، وقوة عمله، ومقدار التزامه، فلا يقتصر الثواب على فئة دون أخرى، بل يشمل كل من آمن، وكم من الجلال والعظمة تلخصها كلمة واحدة: بشّر.

وفي الختام،

أمام هذا الهدي الجليل نخرج بخلاصة عظيمة يجب أن تحفر بمداد العمل:

من أسس بنيانه على التقوى، ومن با ع نفسه لله، ومن عاش تائبًا عابدًا حامدًا وأقام نفسه على ما ذكر الله من صفات في آية التوبة ... فهو الرابح، وإن بدا للناس خاسرًا.

ومن بنى على شفا جرف هار، وأبقى قلبه في الريبة، وظن أنه قد سبق في هذه الدنيا وكأنها هي الغاية... فهو الخاسر، وإن صفق له الناس.

هذه الآيات ليست سردًا تاريخيًا، ولا وصفًا لفئة مضت، بل خريطة طريق لكل قلب يريد النجاة.

فأخلص بيعتك أيها المؤمن! وإن وجدت في نفسك نقصًا وتخلفًا، فباب التوبة مفتوح، والسوق قائم، والرب كريم، والعهد ما زال معروضًا.

اللهم اجعلنا من الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله، والله اشترى، ومن الذين استبشروا ببيعهم هذا، وفازوا الفوز العظيم.

اللهم شهادة في سبيلك ورضوان منك أكبر! اللهم رضاك ومحبتك .. نرجو ونسأل .. في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَو اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

قال الله ﷻ ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١)

من أعجب ما يقع في حياة الناس أن يُطالَب الحق أن يتبدّل ليرضي الأهواء، وأن يُراد للدين أن يتشكل بحسب الرغبات، وأن يُساق الوحي ليوافق المزاج العام. وكأن المشكلة ليست في الأهواء المنحرفة، بل في الحق الثابت!

وهنا تأتي هذه الآية فاصلةً حاسمة، تقيم ميزانًا لا يتغير:
الحق لا يتبع الهوى، بل الهوى هو الذي يجب أن ينقاد للحق.

لماذا لا يوافق الحق أهواءهم؟
قد يقال: أليس من الأيسر أن يُجعل الحق موافقًا لأهوائهم ليؤمنوا وينقادوا؟ فيأتي الجواب الإلهي الصارم: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾
لأن أهواءهم ليست بريئة، ولا محايدة، بل قائمة على: شركٍ وظلمٍ وشهوةٍ وتعصبٍ!

والكون إنما قام على الحق والعدل، ولو دخل عليه ميزان الهوى لاختلّ نظامه كله.

واختلاف الأهواء وتضادها يجعلها عاجزة عن إقامة نظام حتى في بيت صغير، فكيف يُقام بها نظام السماوات والأرض؟

والآية تقرر قاعدة كونية عظيمة: سبيل الحق أن يُتَّبع، وسبيل الناس أن ينقادوا له.

فالحق ثابت، مطلق، عادل. أما الهوى فمتغير، نسبي، متقلب.

ولو كان التشريع تابعًا لأهواء البشر: لمال الحكم مع الغني دون الفقير، ولغلبت العصبية على العدالة، ولأُبيحت الشهوات بحجة الحرية، ولصار كل إنسان مشرّعًا لنفسه. وحينها لا يبقى نظام، بل فوضى.

بعد هذا البيان يأتي العتاب الإلهي المؤلم: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾

لم يأتهم القرآن بما يُهينهم، بل بما يرفعهم. لم يأتهم بما يُضيّق عليهم، بل بما يكرّمهم.

هو ذكرهم... شرفهم... مجدهم... عزهم بين الأمم.

فالقرآن ليس قيدًا، بل رفعة. ليس تضييقًا، بل هداية. ليس حرمانًا، بل تحرير من عبودية الهوى.

ومع ذلك... أعرضوا عنه!

فأي خسارة أعظم من أن يُعرض الإنسان عن مصدر عزّه؟ وأي حرمان أشد من أن يترك ما فيه شرفه ونجاته؟

والإعراض عن الذكر بداية انحدار. فمن أعرض عن ذكره، أعرض عن هويته. ومن أعرض عن الحق، ضاع في أهوائه.

والقرآن يذكّرك: بمن أنت؟ ولماذا خُلقت؟ وإلى أين المصير؟ وحين يُترك هذا الذكر، يتيه الإنسان بين شهوة آنية ولذة عابرة، حتى ينسى نفسه قبل أن ينسى ربه.

والآية ليست قصة عن مشركي قريش فحسب، بل ميزان يُعرض عليه كل جيل. فكم من إنسان اليوم يريد دينًا: بلا تكاليف، بلا ضوابط، بلا أحكام تخالف رغبته. يريد حقًا لا يزعجه، وتشريعًا لا يصادِم شهوته.

وهذا هو عين ما حذرت منه الآية: لو استجاب الحق لهذه المطالب، لفسد كل شيء.

إن هذه الآية تعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والوحي: فالوحي لا ينحني للهوى والحق لا يتشكل حسب الرغبات والعدل لا يقبل المساومة.

فإما أن ينقاد الهوى للحق... فيستقيم كل شيء في قلبك كما استقام بميزان السماء، وإما أن يُقدَّم الهوى... فيبدأ الفساد في قلب الموازين وإحداث نهاية الظالمين.

فالنجاة كل النجاة أن يكون الحق قائدًا، لا تابعًا. وأن يكون القرآن ميزانًا، لا رأيًا بين آراء.

قال الله ﷻ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾

فإن كان القرآن عزّنا... فلماذا نعرض عنه؟ وإن كان شرفنا... فلماذا نستبدله؟

إنها دعوة للعودة إلى ميزان السماء، قبل أن يختل ميزان الأرض.

وفي الواقع، ما من سؤال يمرّ بالقلب، وسط هذا الزحام المتلاطم من المشاهد والقوى والتيارات والآراء، إلا ويجد له جوابًا بيّنًا شافيًا في كتاب الله عز وجل.

فالناس اليوم يكثر نزاعهم حول "الحق"، وكلٌّ يتكلم من موقع المدافع المقتنع، المخلص لما يراه. غير أن الحق ليس ما يتعصّب له الناس، ولا ما ترفعه الشعارات، بل هو ما يصفه القرآن العظيم ويحدده بميزانه الرباني الثابت.

فانظر في النهاية: مع من يكون الحق؟

ليس مع الأكثر صخبًا، ولا مع الأعلى صوتًا، ولا مع الأشد تحزّبًا، ولا الأقوى تحالفًا، بل مع من وافق نور الوحي، واستقام على ميزان القرآن العظيم.

فمن وُفِّق لهذا النور إيمانًا، وبصيرةً، واستجابةً، وعملاً... فهو الموفَّق حقًا، وإن كان وحده.

وأما من أعرض عنه، واستبدل به هوى النفس وضجيج الجدل، فليس له إلا دورانٌ في فراغ، ودندنات لا تزيده إلا بُعدًا وخسارًا.

فالحق يُعرَف بنوره... لا بكثرة أتباعه.

فاللهم اجعلنا من جنده وأوليائك!

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾

سورة الكهف، السورة العظيمة، التي ارتبطت بالحصانة من الفتنة، تذكّر المؤمنين دوما، بأن الثبات على الحق والتشبث بالهدى هما الحصن المنيع ضد أي اغترار أو ضلالة.

فمن استمسك بوحي السماء ازداد يقينًا وطمأنينة، وبصيرة تسعفه للتفريق بين الحق والباطل حتى حين تظلم المشاهد ويخفت النور.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾ (الكهف).

هكذا تأتي هذه الآيات من سورة الكهف، ترسم مشهداً كاملاً لمسيرة الإنسان مع الوحي: حججٌ بيّنة، وأمثالٌ متنوعة، ورسالاتٌ مبشرة ومنذرة ... ثم قلوبٌ تجادل، وألسنةٌ تدحض، ونفوسٌ تعاند وتسوّف حتى يفاجئها الوعد الحق.

إنها ليست قصة قومٍ مضوا، بل سنّة تتكرر في كل زمان: فالقرآن يوضّح الطريق، والإنسان يميل إلى الجدل، وبين البيان والإعراض يتحدد المصير.

والقرآن لا يترك عذراً ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾

"صرّفنا" أي نوّعنا وكرّرنا وقرّبنا المعاني بأشكال متعددة: مرة بالمثل، ومرة بالقصة، ومرة بالوعد، ومرة بالوعيد، ومرة بمشاهد القيامة، ومرة بسنن الأمم. آيات الله تعالى حجة دائمة، فلا يبقى مجال لالتباس الحجة، ولا ضباب في طريق الهدى. لكن المشكلة ليست في قلة البيان، بل في طبيعة النفس:

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

والجدل هنا ليس بحثاً عن الحق، بل محاولة للانتصار للنفس، ليس سؤالاً يريد الهداية، بل اعتراضاً يريد التملّص. وهنا يبدأ الانحراف: حين يتحول العقل من أداة فهم إلى أداة مراوغة.

والقرآن يقدم تشخيصا دقيقا لدقائق الانحرافات، ولأمراض القلوب، ومسارات الخسران.

ما الذي يمنع الإيمان حقاً؟

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾

ما الذي حال بينهم وبين الإيمان، وقد جاءهم الهدى واضحاً لا لبس فيه، يفرق بين النور والظلمة، والحق والباطل، والرشاد والغيّ؟

لم يكن العائق نقصَ بيان، ولا غموضَ حجة، فقد قامت عليهم حجة الله تامة، وبلغهم من الوحي ما يكفي لإيقاظ القلوب لو أرادت اليقظة. ولكن الذي صدّهم إنما هو ظلم النفوس وعدوانها، واستكبارها عن الانقياد للحق إذا خالف أهواءها.

فلم يبق بعد هذا الإعراض إلا سنّة الله التي لا تتخلف، وعادته في الأولين: إذا جاءهم البيان فأعرضوا، وأمهلوا فلم يرتدعوا، أخذهم العذاب بغتة، أو أراهم بوادره مواجهةً ومعاينة، حتى لا يبقى لهم عذر ولا مهرب.

فليخشَ من بلغه الهدى ثم توانى، ومن قامت عليه الحجة ثم استكبر، أن يدركه الموعد الذي لا يُرد، وأن يحيط به العذاب الذي لا يُدفع. وليبادر بالتوبة قبل أن تتحول المهلة إلى حساب، وقبل أن يصبح الندم حيث لا ينفع الندم.

والآية تكشف خطورة "التسويف"؛ فالهدى قد بلغ، والاستغفار لا يزال، لكن النفس تؤخر الاستجابة حتى يغلق الباب.

لماذا يجادلون؟

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

لم يُرسِلِ اللهُ الرسلَ عبثًا، ولا ليُرفَعوا إلى مقام الألوهية، ولا ليدعوا الناس إلى تعظيم ذواتهم، وإنما بعثهم رحمةً وهدايةً؛ يدعون إلى كل خير، ويزجرون عن كل شر، ويبشّرون بالطاعة وما يترتب عليها من ثوابٍ عاجلٍ وآجل، وينذرون من المعصية وما يعقبها من عقابٍ في الدنيا والآخرة. فبذلك قامت حجة الله على العباد، وظهر الطريق واضحًا لا غموض فيه.

لكن ماذا يفعل المكابرون؟

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾

مع هذا البيان الساطع، أبى الظالمون إلا أن يجادلوا بالباطل ليُطفئوا نور الحق، ويسعوا في نصر الزيف ما استطاعوا، ويطعنوا في الرسل وآيات الله استهزاءً وسخرية، مغترّين بما عندهم من علمٍ قاصرٍ وهوى مضلّ.

ليس جدلاً بريئاً أو بحثًا عن النور، بل جدلاً مقصوداً لإسقاط الحق، بل حرباً عليه.

ثم يبلغ الانحدار القاع: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾
حين تتحول آيات الله إلى مادة سخرية، يكون القلب قد بدأ يفقد قابليته للهداية بل انتكست بصيرته!

لكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويُظهر الحق على الباطل، كما قال سبحانه: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾؛ فالحق إذا واجه الباطل أرداه، وإذا لامسه أزاله.

ومن تمام حكمته ورحمته أن يجعل وجود المبطلين، ومجادلتهم للحق بالباطل، سببًا في مزيد انكشاف الحق ووضوح أدلته، وافتضاح الباطل وظهور عواره؛ فبضدّها تتبيّن الأشياء، ويزداد المؤمن يقينًا، ويظهر نور الهدى أصفى وأجلى. ويزداد المنافق انكشافا!

الإعراض أظلم..!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾

يخبر الله تعالى أنه لا أحد أعظم ظلمًا، ولا أشد جرمًا، ممن ذُكِّر بآيات ربه، وبُيِّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وأقيمت عليه الحجج، وخُوِّف ورُغِّب، ثم أعرض مستكبرًا؛ فلا هو تذكّر بما سمع، ولا رجع عما اقترف، بل نسي ما قدّمت يداه من الذنوب، وغفل عن مراقبة علام الغيوب.

وهذا أشد ظلمًا من جاهلٍ لم تبلغه الآيات، وإن كان كلاهما ظالمًا؛ لأن المعصية على بصيرة وعلم أغلظ جرمًا من معصية الجهل والغفلة.

ثم تأتي النتيجة المخيفة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً...﴾

فلما رضي هذا المجادل المكابر بحاله، وأصرّ على شرّه مع علمه بحقيقة مخالفته لأمر الله تعالى، عاقبه الله بأن سدّ عنه أبواب الهداية؛ فجعل على قلبه أكنّةً محكمة، تحجبه عن فهم الآيات وإن سمعها، وجعل في أذنيه وقرًا يمنعه من سماع الانتفاع والاهتداء.

فإذا بلغ العبد هذه الحال، لم يبقَ إلى هدايته سبيل؛ إذ الهداية تُرجى لمن يطلبها أو يجهلها، أما من أبصر الحق ثم أعرض عنه، وعرف طريق الهدى فتركه، وسلك طريق

الضلال عن علمٍ وإرادة، انتصارًا لحظّ نفسه وهواه، فإن عقوبته أن يُطبع على قلبه ويُحال بينه وبين الهداية.

وفي هذه الآية أعظم زاجرٍ وتخويف: أن من ترك الحق بعد معرفته، وخالفه بعد قيام الحجة عليه، قد يُحال بينه وبين الرجوع إليه، فلا يقدر عليه بعد ذلك، فيخسر أعظم الخسارة، ويُحرم أعظم الحرمان. ولهذا نفهم لماذا أهل الباطل مستمرون في ضلالهم كلما اشتدت مكابرتهم وطال استكبارهم.

وليست البداية بإغلاق القلب، بل الإعراض هو الذي يستجلب الإغلاق. فحين يعتاد الإنسان رفض الحق، يصبح غير قادر على فهمه حتى لو سمعه. وهنا مكمن الخطورة! وهو من تمام العدل مع المكابر!

سعة رحمة الله ومغفرته

وسط هذا المشهد الصارم، يشرق نور الرجاء:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾

أخبر سبحانه عن سعة مغفرته، وعظيم رحمته، وأنه يقبل التوبة عن عباده، ويغفر الذنوب مهما عظمت، فإذا رجع العبد إليه صادقًا، احتواه برحمته، وأسبغ عليه إحسانه، وبدّل خوفه أمنًا، وذنبه عفوًا.

ولو أن الله يؤاخذ العباد بما كسبت أيديهم، لعجّل لهم العقوبة، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه جلّ وعلا حليمٌ لا يعجل، ستّارٌ لا يفضح، يمهل عباده لعلهم يرجعون، وينتظرهم لعلهم يتوبون. غير أن للذنوب مع الإصرار عليها، آثارًا لا بد أن تظهر، ولو بعد حين، فإن تأخر الجزاء فليس بإهمال، وإنما هو إرجاء إلى وقتٍ قدّره الله بحكمته.

ولو شاء لأخذهم فوراً، لكن رحمته تسبق عقوبته. يمهل ولا يهمل.

ولذلك يقول ﷻ: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلا﴾

أي لهم وقتٌ محتوم، وموقفٌ معلوم، يُجزَون فيه بأعمالهم، لا مهرب لهم منه، ولا ملجأ يلوذون به دونه، ولا محيد عن قضائه.

وهذه سنته في الأولين والآخرين: لا يعاجل بالعقوبة ابتداءً، بل يدعو إلى التوبة والإنابة، ويفتح أبواب الرجاء، فمن تاب وأناب غفر له ورحمه، ورفع عنه أثر الذنب وعقوبته، ومن أصرّ على ظلمه، واستمر في عناده، حتى بلغ الأجل الذي جُعل له موعدًا، نزل به بأس الله، فإذا جاء بأسه عز وجل فلا مردّ له، ولا رادّ لقضائه.

والرحمة لا تلغي العدالة بل هي من صميمها، والمهلة لا تعني النجاة بل فرصة لها.

سنّة الله!

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾

ثم كشف سبحانه عن سنّته الجارية في الأمم، فقال: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.

فـ«تلك» إشارة إلى القرى التي طغى أهلها وبغوا، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم، حيث لم يكن الهلاك اعتباطًا، ولا العقوبة ظلمًا، وإنما كان ثمرة ظلمٍ استحكم، وكفرٍ أصرّوا عليه، وفسوقٍ تجاوزوا به حدود ربهم.

والمراد بالقرى أهلها؛ إذ هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود، فأهلكهم الله بعذاب الاستئصال في الدنيا، بعد أن أقام عليهم الحجة، وأمهلهم فلم يرتدعوا. فجاءهم العذاب في الوقت الذي قدّره الله لهم، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وجاء اسم الإشارة «تلك» للإيحاء ببعدهم في الزمان، وبُعد حالهم عن الحق، مع أن آثارهم كانت ماثلةً لأهل مكة، يمرّون عليها صباحًا ومساءً في أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فكأن الآيات تقول: العبرة بين أيديكم، والآثار شاهدة، فأين الاعتبار؟

وأما قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾،

فهو يدل على أن لله في كل شيء تقديرًا محكمًا؛ فالهلاك ليس فجأة بلا نظام، بل له وقت معلوم في علم الله، إما أن يكون موعدًا لإهلاكهم، أو زمنًا محددًا لا يقع قبله ولا بعده.

ثم هم لم يهلكوا لأنهم أخطأوا، بل لأنهم أصرّوا على المخالفة. ولكل أمة موعد، ولكل إعراض نهاية.

وسنن الله لا تتبدل:

إمهال... ثم إنذار... ثم أخذ. وإمهاله مرهب، وإنذاره حازم، وأخذه ﷻ، أخذ عزيز مقتدر!

وفي الختام،

هكذا تُجمع الآيات بين العدل والقدر، وبين التحذير والبيان: فالقرآن قد نوّع الله فيه الأمثال، ليهتدي بها من يعقل، لكن الإنسان – بطبعه –كثير الجدل، فإذا أصرّ على المكابرة، وطمست بصيرته، لم تنفعه الآيات، وخُتم على قلبه، فكانت عاقبته النار وبئس القرار.

ومع ذلك، فالله يمهل ولا يهمل؛ يفتح أبواب التوبة، ويؤخر العقوبة، لكنه لا يترك الظلم بلا حساب. فهو القائل: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾.

فأين تذهب أيها الإنسان!

فالقرآن أوضح الحجة، والرسل بلّغوا الرسالة، والرحمة سبقت العقوبة، والتاريخ يشهد بالنتائج.

والهداية لا تحتاج ذكاءً بقدر ما تحتاج صدقاً. والنور لا يُحجب إلا عمن أعرض عنه.

فاختر لنفسك موقعك قبل أن يأتي موعدك: إما قلبٌ متواضع للحق، يتلقى الذكر فيشرق به استجابة وثباتًا ويقينًا وعملًا، وإما قلبٌ مستكبر، يجادل لحظ هواه، فيُغلق على نفسه فلا يفقه ولا يستبصر بنور.

والفاصل بين المصيرين... لحظة صدق مع الله ﷻ.

فالويل لكل من يضلّ الناس، ويغرّهم بالانتصار لأهوائهم على حساب الحق، وإهمال حجج القرآن العظيم!

الويل لمن يمدون أيديهم في الغي، ويتغنّون بالاستكبار، ويجادلون بالباطل، ويمارسون التفلت والمراوغة!

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

ولم يبقَ إلا سؤال واحد: هل نكون من أهل الجدل المستكبر ... أم من أهل الاستسلام للحق المؤيّد؟

اللهم اجعلنا من أهل الصدق في سبيل الحق والشهادة!

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

الآيات الجليلة من خواتيم سورة هود؛ تُصلح المفاهيم وتثبّت الأصول، وتبني العزائم، وتزرع في النفس هيبةَ المراقبة، ولزومَ الاستقامة، وقوة الصبر. إنها آياتٌ لو وعاها القلبُ حقَّ الوعي، لاستقام كما أُمر، واستضاء بنورها في دروب الفتن والاختلاف.

فحريٌّ بكل مسلمٍ ومسلمة أن يحفظوها حفظَ تدبُّرٍ، وأن يعملوا بها عملَ الموقن بلقاء ربِّه، راجين فضلها، مستمسكين بهديها؛ فإنها وصايا ربانية لو استقرت في القلوب غيَّرت المسار، وأصلحت الظاهر والسريرة، وكانت عنوانَ الثبات في زمن التقلب.

قال الله ﷻ ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(١١٢) وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ
لاَ تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
(١١٥) فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ
قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ (هود).

هذه الآيات من سورة هود ترسم منهجًا كاملًا للنجاة الفردية والجماعية، وتنتقل بالقلب من خطاب التكليف إلى سنن الاجتماع، ومن إصلاح النفس إلى مصير الأمم، في نسق بديع مترابط.

فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

الاستقامة حالة دائمة من الانضباط لله، ظاهرًا وباطنًا. ليس كما تحب، ولا كما ترى، بل: كما أُمِرت.

وفي هذا قيدٌ عظيم: يرسخ بوضوح المرجعية ويقطع الطريق أمما الحجج المبتذلة: من العاطفة، وضغط الواقع، وكثرة السالكين، بل هو الأمر الإلهي المقياس والواجب.

والأعجب أن الخطاب وُجِّه أولًا إلى النبي ﷺ، وهو أكمل الخلق، ليكون المعنى: إن كان هذا التكليف موجَّهًا إلى سيد المستقيمين، فكيف بغيره ﷺ؟

ثم أضاف: "وَمَن تَابَ مَعَكَ"

فالاستقامة مشروع جماعي، لا فردي فقط. والمؤمن لا ينجو وحده، بل يحمل همَّ من تاب معه، يواسيهم، ويشدّ أزرهم، ويذكّرهم ليثبتوا معه. وفي ذلك أثر مزدوج، من تثبيت النفس وتثبيت الجماعة في آن واحد. وتظهر فيه بركات التواصي بالحق والصبر كما أمر الله تعالى.

وَلَا تَطْغَوْا

بعد الأمر بالاستقامة جاء النهي عن الطغيان. لأن النفس قد تنتقل من التقصير إلى الغلو.

فالمؤمن لا يجاوز حدود الله حتى في حماسه للدين. وهذا مقام عبودية جليل..!

فالاستقامة طريق وسط: لا تفريط ولا إفراط فيه، لا ضعف يميع الحق، ولا قسوة تشوهه، بل استقامة على هدي النبي مُحَمَّد ﷺ، الذي جمع بين اللين والقوة، وخفض الجناح للمؤمنين والعزة على الكافرين.

وكل زيادة على الدين غلو مذموم، ومن لم يأمر الله تعالى به، فلا يحق لعبد أن يفرضه على عباده دينا وعقيدة. وضبط هذا المعنى من تمام إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، لا لأهواء عبيده بمجاوزة حد ما أمر به إفراطًا وتشددًا وطغيانًا. ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾!

وخُتمت الآية بـ "إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" فكأنها رقابة دائمة: على النيات، على الدوافع، على الخواطر... كلها مكشوفة لله عز وجل، فأين تذهبون؟

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

لم يقل: لا تظلموا، بل: لا تركنوا. والركون هو الميل اليسير، والانجذاب الصامت، والرضا القلبي، والتبرير الخفي.

وهذا أخطر من الظلم أحيانًا؛ لأن الظالم يعرف أنه ظالم، أما المائل إليه فيخدع نفسه باسم الواقعية أو المصلحة. باسم التعصب أو التحزّب، كل هذا منهي عنه، فلينظر المرء أين يضع نفسه، مائلا للظلم والظالمين أو مترفعا عن كل ما يفسد عليه سلامة قلبه وصفاء غايته!

والآية تتحدث عن كل صورة من صور التطبيع مع الباطل: سواء بمدح الظالم، أو تبرير فساده، أو السكوت عن جرائمه، أو تزيين أخطائه، حبًّا لمصلحة دنيوية أو طاعة هوى أو تعصب أعمى!

والنتيجة: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ! تصيبكم النار، هذا الوعيد الشديد لمن يدعم الظلم أو يداهن أهله سيعاقب، ولن ينفعه أحد من دون الله. فلن يغنوا عنك من الله شيئا!

ثم تنتقل الآيات لموجبات الثبات والحصانة!

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

بعد التحذير من الركون إلى الظالمين، جاء العلاج العملي: الصلاة.

كأن المعنى يقول: إذا اشتدّت الفتن، واختلطت المفاهيم، وطغت المادة، فالملجأ هو الوقوف بين يدي الله. طرفي النهار وزلفًا من الليل، وهذا توزيع رباني يربط اليوم كله بالله:

فالفجر يفتتح النية، والظهر والعصر تضبطان المسار، والمغرب والعشاء تختمان الحساب، وقيام الليل يجدد العهد. وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ومن ضبط استجابته بالفرار للصلاة، كان له فتحا وتمكينًا عظيمًا.

ثم القاعدة العظيمة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

هذا أمل للمذنبين، وتشجيع للمجاهدين لأنفسهم. فالمطلوب منك، دوام الرجوع والاستدراك، بلا كلل ولا ملل. فيا لعظمة الهدي والعلاج! وهل يبقى بعد ذلك لأحد عذر؟!

وَاصْبِرْ

كل ما سبق يحتاج إلى صبر، صبر على الاستقامة، وصبر على مخالفة الظالمين، وصبر على الصلاة، وصبر على الأذى في طريق الإصلاح.

وجاءت البشارة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لم يقل أجر الصابرين، بل أجر المحسنين. فالصبر الحقيقي إحسان: أن تؤدي ما عليك بإتقان، ولو لم تُرَ الثمرة في الحال، عبادة لله تعالى واستجابة لأمره، هذا من الإحسان، والإحسان أجل مراتب الإيمان.

أزمة الأمم: قلة المصلحين

ثم تنتقل الآيات من إصلاح الفرد إلى سنن التاريخ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾

"أولو بقية" أي أصحاب بقية من عقل وضمير وغيرة. قِلّة صالحة تحفظ التوازن.

والأمم لا تهلك فقط بكثرة الفساد، بل بهلاك صوت الإصلاح.
حين يصمت الصالحون، ويرتفع صوت المترفين، تبدأ ساعة السقوط.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾
فالترف إذا لم يُشكر كنعمة توجب التقوى والاستقامة، يصير سببًا للهلاك. والنعمة حين تتحول إلى سبب للغفلة، تصبح نقمة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾
وهنا نرى الفرق بين صالح ومُصلِح. فالصالح ينجو بنفسه، والمصلح يحاول إنقاذ غيره.
ووجود الإصلاح يمنع الهلاك العام، حتى لو وُجد تقصير فردي.
لأن المجتمع الذي يحاسب نفسه، لا يُستأصل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
الله قادر على توحيدهم قسرًا، لكنه أراد الاختيار والابتلاء. لذلك كان الاختلاف سنة، لكن الرحمة المرافقة هداية، لذلك قال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾

والرحمة توفيق للحق، وثبات عليه.

﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

ليظهر أثر الاختيار، ويتبين الصادق من المدعي، ويُعرف المحسن من المفسد.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾

بنتيجة اختيارات واعية متكررة.

فالله لا يُكره أحدًا على النار، لكن من يسلك طريقها يُترك لنتيجته: هذا ما قدمت يداك!

وهذه الآيات تبني معادلة النجاة:

استقامة فردية منضبطة بالأمر الإلهي. وبراءة قلبية من الظلم وأهله لا تقبل المساومة أو التطفيف. وصلة يومية بالله عبر الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل. واستدراك بالحسنات يذهبن السيئات، لا يعرف الهزيمة، وصبر طويل النفس هو من الإحسان. وإصلاح اجتماعي لا يكتفي بالنجاة الذاتية بل يحمل همّ الرسالة وهداية الناس. ووعي بسنة الاختلاف والابتلاء كما ترينا الآيات.

فمن جمع بين الاستقامة والإصلاح والصبر، كان من أهل الرحمة.

ومن ركن للظلم، وانشغل بالترف، وأعرض عن واجب التذكير، دخل في سنن الهالكين.

اللهم اجعلنا من الذين رحمهم ربهم، وثبّتنا على الاستقامة، ولا تجعل في قلوبنا ميلًا إلى ظلم أو ظالم، وارزقنا صلاحًا وإصلاحًا حتى نلقاك.

هذه الآيات خاتمة سورة هود، وكأنها الخاتمة التي تجمع خيوط السورة كلها في عقدٍ واحد: قصص، ابتلاءات، هلاك أمم، نجاة مؤمنين ... ثم كلمة أخيرة تُثبّت القلب، وتحسم الطريق، وتردّ الأمر كله إلى الله.

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

لم يكن القصص تسلية بذكر أحداث التاريخ، ولا سردًا لوقائع مضت وانتهت، بل دواءً للقلب.

فالقلب يتعب ويضعف ويهتز . فكان التثبيت للفؤاد أولًا، لأن الفؤاد إذا ثبت، ثبت كل شيء.

وحين يرى الداعية أنه ليس أول من كُذّب، ولا أول من أُوذي، ولا أول من طال عليه الانتظار، تهدأ نفسه وتصفو الرؤية له، فلا يتأثر بكثرة المعارضة ولا يأبه لسخط الناس ولا بأذيتهم.

كل قصة في سورة هود كانت تقول للنبي ﷺ ولكل حامل رسالة بعده:

الطريق واحد والأذى أمر معهود ... والعاقبة واحدة.

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾

كأن الله يقول: ما بين يديك ليس احتمالًا، ولا رواية قابلة للتأويل، بل حقٌّ راسخٌ.

والحق يورث الطمأنينة، حتى لو كان الطريق شاقًا.

ومن يعرف أنه على الحق، لا يتزلزل بكثرة المخالفين. أما من يشك في الأساس، يهتز لأول ريح.

﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فالقرآن لا يفتح قلبًا مغلقًا قسرًا، إنما ينتفع به من فيه بذرة إيمان.

والموعظة توقظ النفوس، والذكرى تعيد ترتيب الأولويات، لكن كل ذلك يحتاج قلبًا حيًا.

ولهذا انتقل السياق إلى الطرف الآخر:

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾

هذه ليست دعوة للرضا بكفرهم، بل إعلان مفاصلة.

بقمة الوضوح: أنتم على طريق، ونحن على طريق. لكم دينكم ولي دين!

لسنا في مرحلة مساومة، ولا في حالة ذوبان، بل في مفاصلة عقدية واضحة وراسخة.

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

ثقة عجيبة يصنعها الإيمان والثبات واليقين! فالمنتظر الواثق لا يستعجل، ولا يصرخ، ولا ينهار.

والانتظار هنا ليس ضعفا، بل يقين بأن سنن الله ستجري. وهو ما يصنعه الاطمئنان لأمر الله تعالى وحسن الظن به ﷻ.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

حين يشتدّ الغموض، وتختلط النتائج، وتتأخر البشائر، يأتي هذا التذكير: أن الغيب ليس بيد البشر. والنتائج ليست في متناول التخطيط وحده. والمآلات بيد من يملك الغيب وحده لا شريك له.

وهذا يحرر القلب من الهلع والتوجس والضعف، ويمنعه من التعلق بالحسابات الضيقة.

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾

كلُّه... لا بعضه.

أمر الدعوة، وأمر النصر، وأمر الهزيمة، وأمر الأجل، وأمر الجزاء.

حين يعود الأمر كله إلى الله عز وجل، يسقط التعلق بالبشر، وتخفّ وطأة الظلم، ويصغر طغيان الطغاة.

بعد كل هذا البيان، لم يأمر الله بخطة استراتيجية، ولا بتحليل سياسي، ولا بوسائل ضغط.

بل قال بتمام الوضوح: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾

والعبادة: أداء الواجب.

والتوكل: تسليم النتائج.

هذه هي معادلة السير في عالم مضطرب: بذلٌ كامل لا غش فيه ولا احتيال بإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، وثقة كاملة أن الأمر لله تعالى، وأن ما عند الله خير وأبقى.

لكن الخلل يأتي حين نحرم أنفسنا عبادة التوكل، فيحتلّنا القلق، أو نرتهن تماما للاتكال، بدون أن نقدم البذل الذي يوثق الصدق، صدق العبادة، والاستجابة والاستقامة. فيقعد الإنسان وينتظر أن يكرمه ربه!

بل نعبد الله ونتوكل عليه سبحانه، لنعيش فضائل الاستقامة واليقين.

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

هذه الجملة ختمٌ يتصدع له القلب.

لا يغفل الله تعالى عن كل ما يعيشه عبده، وما يفعله، وما يقصده وما يحتال به وما يصدق فيه! سبحانه، لا يرضى لعباده الخبث والكذب والارتياب، ويرضى لهم الإيمان والاستقامة وكل خير!

فيا أيها العبد! كل شيء محسوب، وكل عمل محفوظ، وكل موقف مردود إلى صاحبه. والله لا يظلم عنده أحد!

وفي الختام،

هكذا بدأت خواتيم سورة هود بتثبيت الميزان الحق: الاستقامة، وانتهت بالعبادة والتوكل. وفي وسطها إشارة لجدوى قصص الصبر، ومشاهد الهلاك، ومواقف المفاصلة، وسنن ثابتة لا تتبدل.

رسالتها الكبرى: إذا عرفت الحق فاثبت، وإذا طال الطريق فاصبر، وإذا اشتد الأذى فتوكل، وإذا تأخر النصر فانتظر، وإذا اضطربت الموازين فتذكّر: أن الأمر كله لله.

فلا يغرّك صعود باطل، ولا يحزنك تأخر حق، ولا يفتّ في عضدك قلة سالكين.

لأن النهاية ليست بيدك، والغيب ليس عندك، والحكم ليس لك.

لكن الله – الذي لا يغفل ولا ينسى أبدًا – هو الذي بيده الغيب، وإليه يرجع الأمر كله.

فاثبت... على سبيل الاستقامة كما أمرك الله، واعبد الله مخلصا له الدين ... وتوكّل عليه ﷻ، لا يوهن عزيمتك كيد أو تخذيل، فالعاقبة بأمر ربنا دوما، للمتقين. والحمد لله رب العالمين.

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾

لا بد أن تقف وقفةَ خشوعٍ وتأمّلٍ أمام جلال المعاني التي تحملها سورة الحج؛ تلك السورة الجامعة المهيبة التي انتظمت فيها معاني العقيدة، ومشاهد الآخرة، وأحكام الشريعة، وروح الجهاد، في سياق قويّ يهزّ القلوب ويقيمها على طريق العزة بالإيمان، والاعتزاز بالهوية الموحدة.

هي سورة جمعت بين أحكام الحج وأحكام القتال، فكانت سورةَ عزةٍ وبناءٍ للأمة؛ ربطت التشريع بالعقيدة، والعمل بالتوحيد الخالص، وأقامت بنيانها على تعظيم الله ﷻ. فهي تُربي القلب على إجلال أمره، في الشعائر الظاهرة كما في سائر أوامر الدين. ومن عظّم شعائر الله أعزّه الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).

وسورة الحج رسّخت حقيقةً كبرى: أن القوة كلها لله، وأن العبادة لا تصرف إلا له وحده. ولقد تضمنت أول إذن للمسلمين بالجهاد، قال عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

ومن هنا كان تدبّرها يصوغ في النفس تربيةً على القوة بعد مرحلة الاستضعاف، تربيةً تجمع بين صفاء العبادة وصلابة الموقف، بين الخشوع في المحراب والثبات في الميدان.

وإننا اليوم لأحوج ما نكون إلى هذا الهدي، وإلى هذه التربية المهيبة التي تبني الإيمان في القلوب وتبني معه العزة في الواقع.

ونحن نقف على أعتاب خواتيم هذه السورة العظيمة، نستفتح بابًا من أعمق معانيها، حيث يقول ﷻ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٧ – ٧٨)

تأتي هذه الآيات الجليلة في ختام سورة الحج، وكأنها وصية جامعة، تلخّص منهج المؤمن في علاقته بربه، وبنفسه، وبالناس، وبالأمة، وبالرسالة كلها.

بدأ النداء بـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، فهو خطاب تشريف، ويا لجلال الوصف!

ثم أمرٌ بالصلاة، وخصّ منها الركوع والسجود.

والركوع خضوع، والسجود ذروة الذل والانكسار. كأن الآية تقول: لن تُبنى حياة الفلاح إلا على أساس الانكسار لله عز وجل.

فالذي يركع ويسجد حقًا، لا يستكبر في الأرض، ولا يعلو على الخلق، ولا يتكبر عن الحق.

ثم قال: ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾، فوجه الفهم إلى سعة العبادة وهي أوسع من الصلاة؛ هي منهج حياة، وحضور دائم مع الله سبحانه وتعالى. وفي ذلك لفتة لخصوصية الصلاة في العبادة، عماد هذا الدين.

ولم يقف الخطاب عند العلاقة الخاصة بين العبد وربه، بل قال: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾.
فالدين ليس حياة عزلة ضيّقة، بل أثر ممتد في الناس. ومن تأمل وجد أن الفلاح عُلِّق على مجموعِ الأمرين:
عبادة الخالق، ونفع المخلوق.

فمن عبد الله ولم يُحسن إلى عباده نقص من فلاحه، ومن أحسن إلى الناس بلا إخلاص ضاع أساسه فحُرم الخلاص!

ولهذا قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، والفلاح هو الظفر بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب. وكأن الآية تقرر قاعدة: لا طريق للفلاح إلا بهذا التوازن الدقيق.
ثم يواصل الخطاب: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

والجهاد هنا ليس جهاد قتال فحسب، بل بذل الوسع كله في طاعة الله: بجهاد النفس والمال، بجهاد الشهوات، بجهاد الشبهات، بجهاد الدعوة والتربية، بجهاد الثبات والصبر على الأذى، بجهاد المنافقين والكافرين، بالقول والعمل والحديد!

و"حق جهاده" يعني باستفراغ الطاقة فيه، لا أن يكون على الهامش أو ثانويًا لا أولوية له، بل يكون الله هو الأولوية الكبرى في القرار والاختيار.

وهذه أوصاف في القرآن يتصدع لها القلب، لأنها ترسخ معاني إخلاص الدين لله عز وجل بشكل يقطع الطريق على أي استهانة بجلال شأن التوحيد وإخلاص الدين لله كاملا. وتلك الغاية الكبرى من وجودنا! وتلك أجل مقامات العبودية..!

وهنا قد يتوهم السامع أن هذا تكليف عظيم يشقّ على النفوس، فجاء التطمين: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

ليتجلى جمال هذا الدين: فتكاليفه عظيمة في مقاصدها، يسيرة في أدائها. وهو دين يراعي الضعف البشري، ويشرع الرخص، ويخفف عند العجز.

ومن هذه الآية انبثقت قواعد عظيمة مثل: "المشقة تجلب التيسير" و"الضرورات تبيح المحظورات".

فالجهاد المطلوب ليس فوق الطاقة، بل هو بذل المستطاع.

ومن فقه هذه المعاني، اطمأن قلبه وأحب ربه! فسار إلى الله تعالى بكامل صدقه، وإن كان في أضعف حالات ضعفه! فنحن نسير إلى ربّنا الخبير البصير بحالنا! والصدق في جوهره، الإقبال في أي حال وكل حال!

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾

تنساب المعاني بهيبة لتقف عند استدعاء رمز التوحيد الخالص: إبراهيم عليه السلام.

كأن الخطاب يقول: أنتم لستم طارئين على التاريخ، بل امتداد لمدرسة التوحيد الأولى.

ثم: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

هذا الاسم ليس حادثًا، بل هو هوية قديمة في الكتب السابقة، ومتجددة في هذا الكتاب.

و"مسلم" تعني المستسلم لله ظاهرًا وباطنًا، اختيارًا لا اضطرارًا.

وهذا وصف يوجب الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان ويوجب حفظ شرفه في النفس وبين المسلمين كافة.

أمة الشهادة:

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

هنا تتضح عظمة المسؤولية وهيبة الوصف: فالأمة تعبد الله عز وجل بإخلاص، وفي الوقت نفسه هي أمة شاهدة على البشرية.

يشهد عليها نبيها بالبلاغ، وتشهد هي على الناس بالعدل والحق.

فإذا ضعفت في أخلاقها، أو قصّرت في تبليغ رسالتها، اختلّ معنى الشهادة.

وما نشأت فجيعة واقع المسلمين اليوم إلا من هذا الاختلال، وما تراجعت هيبتهم بين الأمم إلا يوم أضاعوا هذا الميزان الذي فيه عزُّهم، وبه تقوم سيادتهم.

ثم ترجع الآيات لترسيخ الأمر بأركان الاستقامة العملية: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾

فالصلاة صلة بالله، والزكاة صلة بالخلق. والمسلم في هذه الحياة، بين عبودية في السماء، ورحمة في الأرض.

ثم ختم العظيم بالسرّ الأعظم: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾

لا تعتمدوا على حولكم ولا على كثرتكم، بل على ربكم. فالنجاح ليس بقوة الوسائل، بل بصدق الالتجاء لله الواحد الأحد.

ليس باعتصامكم ببعضكم البعض ولا بأسباب بين أيديكم أو في مساعيكم، إنما باعتصامكم بالله ﷻ! وفي ذلك الإخلاص بكل هيبته وجلال قدره!

لتصل المعاني إلى مرفأ الأمان الأعظم! ولاية الله عز وجل:

﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

وإذا كان الله مولاك، فلن يضيعك. وإذا كان نصيرك، فلن يغلبك أحد.

فكانت خاتمة السورة طمأنينة: وكأنها تقول:

امضــوا في طريــق العبــادة والجهــاد والنفــع للنــاس، مطمئنــين أن لكــم ربًا يتــولاكم، ويكفيكم، وينصركم.

فتأمل أيها المؤمن جمال هذا النور، تأمل هذا الاتساق المهيب في المعاني، يحي القلوب فتشرق يقينًا ومحبّة لله ﷻ!

معالم الطريق

نجد هذه الآيات ترسم معالم الطريق كله:

إقامة للصلاة بانكسار وخضوع لله عز وجل، وإخلاص العباده له وحده لا شريك له، ونفع الناس بامتداد الخير لهم، والجهاد في سبيله، بالبذل قدر الاستطاعة، والنعيم بنعمة التيسـير والحنيفيـة السـمحة، باتبـاع ملـة إبـراهيم، والاسـتعلاء بالإسـلام رايـة وهويـة وعقيـدة، على سبيل الحق والشهادة، بالثبات على الصلاة والزكاة والاعتصام بالله، الولي النصير عز وجل.

ومن جمع هذه المعاني في حياته، فقد سلك طريق الفلاح حقًا.

تربية نحن بأمس الحاجة لها

ولعلّ مما ينبغي أن نقف عنده بقلوبٍ خاشعةٍ متأدبة، ترجُو صلاحها ومحبة ربها، أن التربية القرآنية في هذه السورة جاءت بنسجٍ محكمٍ لا انفصام له؛ فحيثما ذُكر التوحيد ذُكر معه الجهاد، وحيثما تقرّر التكليف تبيّن الاصطفاء والهوية المسلمة. فلا عبادة بلا رسالة، ولا جهاد بلا عقيدة، ولا اصطفاء بلا استقامة وقوة استجابة.

ولذلك كان ختامها بيانًا لشرف هذه الأمة واجتبائها، وربطًا لها بملة أبيها إبراهيم عليه السلام؛ تثبيتًا لهويتها، وترسيخًا لرسالتها، حتى تعلم أن عزّها في وفائها بهذا العهد، وأن مكانتها بين الأمم مرهونة بصدق قيامها به.

إنها سورة تُنشئ في المؤمن قلبًا خاشعًا لا يتكبر، وعقلاً واعيًا لا ينخدع، وروحًا مجاهدة لا تضعف، وهويةً راسخة لا تذوب.

إنها سورة تربي على: الخشوع... والتعظيم... والثبات... والبذل. فنبضت آياتها توحيدًا وقوة وشهادة.

فكانت بحقّ سورة البناء الشامل للأمة المؤمنة؛ بناء الإيمان في القلوب، وبناء العزة في الواقع، وبناء الشهادة على الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فاللهم ربنا ومولانا، لا إله إلا أنت، اجعلنا من خيرة أهل الإيمان والجهاد والشهادة..!

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

آياتٌ من سورة المائدة، لخصت سننًا ماضية، وأحكامًا بالغة، وحملت في طياتها مواساةً رفيعة وهديًا جليلًا؛ تستحق وقفة تدبّرٍ خاشعة.

يقول عزّ من قائل: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١)

في هذه الآية العظيمة، يفتح الله لنا نافذةً على قلب النبي ﷺ، وعلى سننٍ ثابتة في مسيرة الدعوة والقلوب.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ﴾

نداءٌ رحيم، يربّت على قلبٍ عظيم.

تأسرك هذه المواساة، من الله ﷻ لرسوله ﷺ..! والله يعلم حال قلب رسوله ﷺ.

والرسول ﷺ لم يكن يحزن لنفسه، ولا لهيبته، ولا لمكانته، وإنما كان يحزن على القلوب التي تذوق نور الإيمان بألسنتها، ثم ترتدّ عنه بقلوبها. كان حزنه رحمةً، وحرصه شفقةً، وحرارته صدقًا في إرادة النجاة للخلق.

لكن الله يعلمه هنا درسًا من دروس الطريق:
ليس كل من قال "آمنا" يُحزن عليه إذا انكشف زيفه.
فالحزن إنما يكون على ما له أصل ثابت، أما ما لم يتجاوز الشفاه إلى شغاف القلب، فذهابه ربحٌ لا خسارة.

﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾

إنها مأساة الانفصال بين اللسان والقلب.
كلماتٌ بلا جذور، ومواقف بلا يقين، وانتماءٌ بلا روح.
وهؤلاء لا يُبنى عليهم ركن، ولا يُستند إليهم في شدة؛ إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يُفقدوا. لأن الإيمان إذا لم يخالط بشاشة القلب، بقي قشرةً رقيقة، تذروها أول ريح فتنة.

ثم تنتقل الآية إلى وصف آخر:

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾

إنهم لا يسمعون للحق، بل للكذب؛ لا يطلبون الهدى، بل ما يوافق أهواءهم. آذانهم مشرعة لكل شبهة، وقلوبهم مهيأة لكل تحريف. يسمعون لرؤوس الضلال، أولئك الذين ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾، يقتطعون النصوص من سياقها، ويحمّلون الألفاظ ما لم يُرَد بها، ليصنعوا دينًا على مقاس أهوائهم.

وهنا تتجلى خطورة الهوى إذا لبس لبوس الدين.

إنهم لا يطلبون حكم الله ليتبعوه، بل يعرضون أنفسهم عليه ليختاروا منه ما يشتهون:

﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾

دينٌ مشروط، وطاعةٌ انتقائية، وولاءٌ معلّق على موافقة الرغبات.

وهذا ميزان دقيق يُمتحن به القلب:

هل نُحاكم إلى الشرع تفلتًا، أم تعبّدًا؟

هل نرضى بحكم الله إذا وافقنا فقط، أم نرضى به لأنه حكم الله؟

فالآية تكشف أن القضية ليست علمًا فحسب، بل طهارة قلب.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾

لأنهم لم يريدوا طهارتها.

فطهارة القلب هي أن يتجرد لله، وأن يطلب الحق لذاته، وأن يرضى بحكم الله وافق هواه أو خالفه.

ومن هنا نفهم أن أعظم الهدايات ليست كثرة الحجج، بل سلامة الآساس والمنطلق!

ثم يأتي الحكم الفصل:

﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

ليس كل قلب ينجو، وليس كل مُعرض يستدرك، إذا اختار العمى وأصرّ عليه. فالهداية فضل، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، والرسول ﷺ نفسه لا يملك لقلبٍ أعرض شيئًا إذا أصرّ على ضلاله.

ولهذا كان ختام الآية وعيدًا مزدوجًا:

﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

فالذي يعبث بالدين، ويتلاعب بالحق، ويمتهن النصوص لأجل هواه، يفضحه الله في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الدين لا يُخدع، والحق لا يُستعمل مطية بلا ثمن. والله ﷻ يعجّل العذاب لمن ظلم باسمه، وتحايل باسم شريعته.

إنها آية تواسي المؤمنين: لا تحزنوا على من كشف الله زيفه.

وهي في الوقت ذاته مرآةٌ للمؤمن: احذر أن تكون من الذين يقولون بألسنتهم ما لم تستقر به قلوبهم. واجعل ميزانك في كل حكم: الرضا بالله حاكمًا، لا بالهوى قائدًا.

فالنجاة ليست في ادعاء الإيمان، بل في طهارة القلب وصدق هذا الإيمان.
وليست في سماع كل صوت، بل في تمييز الحق من بين الضجيج.
وليست في موافقة الدين لأهوائنا، بل في موافقة أهوائنا للدين.

وهنا يكمن الفارق بين قلبٍ يُراد له التطهير، وقلبٍ تُرك لفتنته. ويا لهول الفتنة وما تجلبه على النفس والناس!

ثم تأتي آية جليلة أخرى: فيقول الله عز وجل:
﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢)

في هذه الآية من سورة المائدة يتجلّى مشهدٌ آخر من مشاهد انحراف القلوب، لكنّه هذه المرّة يكشف بوضوح علاقة الفساد العقدي بالفساد الأخلاقي والمالي.

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾

ليست القضية فكرةً طارئة، ولا زلّة لسان عابرة، بل هو مسار حياة.

يسمعون للكذب سمعَ استجابةٍ وانقياد، لا سمعَ تمحيصٍ ونقد.

ثم لا يقفون عند حدود الكلمة المنحرفة، بل يتغذّون على الحرام، ﴿أكّالون للسحت﴾، يعتاشون على المال الخبيث، ويقيمون مصالحهم على الظلم.

وهنا يعلّمنا القرآن أن من اعتاد الكذب سهل عليه أكل الحرام، ومن أفسد باطنه بالشبهات أفسد ظاهره بالشهوات. فالانحراف لا يأتي منفردًا، بل تتساند حلقاته: شبهةٌ في الفكر، ثم شهوةٌ في السلوك، ثم اعتيادٌ يُطبع على القلب.

ثم يخاطب الله نبيّه ﷺ:

﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

وكأن الخطاب يحمل في طيّاته معنى الكرامة والاستغناء؛ فوجودهم عندك ليس تشريفًا لهم، بل اختبارٌ لهم. وأنت لست محتاجًا إلى تحاكمهم، ولا إلى اعترافهم، ولا إلى قبولهم. إن أعرضت عنهم فلن يضرّوك شيئًا، لأن الحق لا يتقوّى بإقبالهم، ولا يضعف بإدبارهم. وهكذا يعلم الإسلام الاستغناء بالله عز وجل.

﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾

طمأنةٌ للمؤمن، في أي مقام كان، شاهدًا على الحق، أو داعية للحق، أو قاضيا بالحق، أو عالما بالحق: لا تجعل رضا الناس ميزانًا للحق، ولا تخشَ من غضب من لا يطلب الحق أصلًا.

لكن إن اخترت الحكم، فلا مجال للمجاملة:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾

ولو كانوا خصومًا، ولو كانوا ظلمة، ولو كانوا أعداء.

فالعدل في الإسلام ليس مكافأةً للمستحقين فقط، بل هو عبادةٌ لله، تُؤدّى لأن الله يحبها وما يحبه الله هو الخير كله وتمام الصلاح والبشرى.

وهنا يبلغ المعنى ذروته:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

تأمل وصف "يحبهم"، أي أن الحكم بالقسط بين الناس، من أسباب محبة الله عز وجل. والحب الإلهي منزلةٌ لا تُنال بكثرة الكلام ولا الادّعاء، بل بالاستقامة في المواقف الصعبة، حين تتعارض الأهواء، وتشتد الضغوط، ويغدو العدل ثمنه باهظًا. وما أصعبه من امتحان للمتعصّب! ولصاحب الهوى، ولعبد نفسه! وما أسرع انفضاح من لم يخلص دينه لله عز وجل!

ثم في هذه الآية درسٌ بليغ:

أن فساد السماع يقود إلى فساد المكسب، وأن من تحاكم للشرع على سبيل الهوى لا يُستجاب له، وأن كرامة الحق في الاستغناء عن الناس إن لم يطلبوه صادقين، وأن العدل قيمةٌ مطلقة، لا تُعلَّق على هوية الخصم.

هي إذًا دعوة إلى تطهير السمع من كل كذب، وتطهير اليد من كل سحت، وتطهير القلب من كل هوى. وهي في الوقت ذاته تثبيتٌ لأهل الحق: كونوا عادلين ولو مع من ظلمكم، لأن العدل ليس إكرامية انتقائية للناس، بل عبوديةٌ لرب الناس. ومن صدق في هذه، واستجاب لأمر الله تعالى كما أمر، متّعه الله بفضائل الاستقامة العظيمة.

فما أجمل الوقوف في صف المقسطين، لا المطففين ولا الظالمين. وما أجمل ما يجلبه العدل على الفرد وعلى الجماعة.

وهكذا يبقى الميزان قائمًا، لا تميله الأهواء، ولا تُحرّفه المصالح، لأن فوق الجميع ربًّا يحب المقسطين.

وبعد هذا التشخيص الدقيق، والتفصيل المهيب، لمفاتيح الخير والتوفيق، ينتقل الهدي القرآني إلى الآية التالية:

يقول عز وجل: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٤٣)

في هذه الآية يتجلّى عجبٌ إلهيّ يهزّ الضمائر:

﴿ وَكَيْـفَ يُحَكِّمُونَـكَ وَعِنـدَهُمُ التَّـوْرَاةُ فِيهَـا حُكْـمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّـوْنَ مِـن بَعْـدِ ذَٰلِـكَ ۚ وَمَـا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٤٣)

هو تعجّبٌ ليس لخفاء الحكم، بل لفساد القصد.

فالقضية ليست بحثًا عن حقٍّ ضائع، وإنما بحثٌ عن حكمٍ يوافق الهوى.

الهوى حين يتزيّا بلباس البحث عن الحق!

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ ﴾

أي: بأيّ وجهٍ يطلبون حكمك؟

ليس لأنهم يوقنون بصدقك، ولا لأنهم يعظّمون ما جئت به، بل لأنهم ضاقوا بحكمٍ عندهم لا يرضي شهواتهم.

كان عندهم كتابٌ فيه حكم الله، ولكن المشكلة لم تكن في النصّ، بل في النفس.

فالذي لا يخضع للحقّ وهو بين يديه، لن يخضع له ولو جاءه من السماء.

وهنا تدبّرٌ عظيم:

قد يحمل الإنسان بين دفّتي كتابه حكم الله، ويقرأه صباح مساء، لكنه إذا لامس هواه أعرض عنه، كأن لم يسمعه قط.

فليست المشكلة في وجود الأدلة، بل في فساد الإرادة.

﴿ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾

الحقّ واضح، والنصّ حاضر، والحجّة قائمة. فإذا تركوا ما في كتابهم، فالمشكلة ليست في الحجة والبيان، بل في الصدق والاستسلام.

كم من إنسانٍ يسأل عن الحكم، لا ليعمل به، بل ليختبر: هل يوافق رغبتي؟ فإن وافقها قال: هذا هو الدين! وإن خالفها قال: نبحث عن قولٍ آخر!

وهذا هو المرض الذي تكشفه الآية: تحويل الشريعة إلى تابعٍ للرغبات، بدل أن تكون الرغبات تابعةً للشريعة.

والأعجب أنهم لما حُكم بينهم بحكم الله الموافق لما في كتابهم، أعرضوا عنه أيضًا. فلم يكن رفضهم سببه اختلاف الشريعة، بل رفضهم لأصل الانقياد نفسه.

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾

كأنّ الإعراض صار طبعًا ومنهجًا، لا موقفًا عابرًا أو استثنائيًا. فالقلب إذا اعتاد ردّ الحق، صار النفور منه سجيةً لا يشعر بها.

ومقياس الإيمان الحقيقي هو في الانقياد لأمر الله تعالى بلا تلجلج، وليس الانتقاء على حسب ما يميل الهوى!

﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولذلك جاء هنا، نفيُ الإيمان عن صنيعهم، لأن الإيمان ليس معرفةً فحسب، ولا انتسابًا لكتابٍ مقدّس، بل هو خضوعٌ وتسليم وحسن اتباع.

والمؤمن إذا بان له حكم الله قال: سمعنا وأطعنا. أما من جعل هواه إلهه، فلا يسأل: ما حكم الله؟ بل يسأل: ماذا أريد أنا؟ ثم يبحث في النصوص عمّا يبرّر رغبته.

فهو يجعل الالتفاف على شريعة الله تعالى وسيلته لتفلت. وبعض البشر بارعون جدًا في ذلك .. ولذلك كانوا صنيع فتنة في أنفسهم وعلى الناس!

وهنا يتجلّى المعنى الخطير: حين تتحوّل الأهواء إلى آلهة، وتتحوّل النصوص إلى أدوات تبرير، يضيع الإيمان وإن بقيت العناوين.

مع أنهم لو أطاعوا الله واستقاموا كما أمر، لكان خيرا لهم، ولوجدوا في ذلك التأييد والفتح.

وهكذا نجد أن كلّ من طلب الفتوى ليُجيز ما يشتهي، وكلّ من أعرض عن حكمٍ ثبت عنده لأنه لا يوافق مزاجه، فقد مسّه من هذا الوصف نصيب.

فالحقّ لا يُطلب على سبيل التجربة! بل للاتباع. والشريعة لا تُستشار لتُقاس على الأهواء، بل تُتّبع لتُهذّب الأهواء. وعلى هذا وبهذا، تنتظم الصفوف وتجتمع كالبنيان المرصوص، فلا شيء يحقق وحدة الصف، كوحدة بالشريعة وعلى الشريعة.

إن الإيمان الحقّ أن يكون مرجعك وحي الله لا رغبات نفسك، أن تُقدّم أمر الله ولو خالف هواك وما تميل له، وأن تنقاد له ولو كلّفك ما كلّفك، ولو سخر منك الناس أو حاربوك!

فاللهم طهّر قلوبنا من هوىً يصدّنا عن حكمك، واجعلنا إذا علمنا الحقّ خضعنا له، وإذا سمعناه استجبنا، ولا تجعلنا ممن يُحكّمون شرعك طلبًا لهوى، ثم يتولّون عنه إذا خالف ما يشتهون.

ويستمر النور، في رسم طريق الفلاح نحو مراتب الارتقاء الأرجى، فيقول الله ﷻ بعد ذلك:
﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)

في هذه الآية يتجلّى مشهد العظمة في تنزيل الكتب، وثقل الأمانة في حملها، وخطورة التفريط في حكمها:
﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)

﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ والهدى طريقٌ مستقيم، والنور بصيرةٌ تُبصر به مواضع القدم. فالهدى يدلّك إلى الحق، والنور يكشف لك زيف الباطل.

ليس الكتاب نصوصًا جامدة وكلمات راكدة! بل روحٌ تُحيي القلوب، ومصباحٌ يبدّد ظلمات الجهل والحيرة والشهوة. وحين يُفقد النور، لا تضيع الطرق فحسب، بل تضيع الموازين! وتلك هي الفجيعة المثخنة!

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾

وصفهم بالإسلام هنا عميق الدلالة؛ فهم أعظم الناس مقامًا، ومع ذلك أعظمهم انقيادًا.

لم يكونوا فوق الكتاب، بل كانوا أول من يخضع له. فالسيادة الحقيقية ليست في التحكم بالوحي، بل في التسليم له.

وإذا كان صفوة الخلق يسيرون خلف الكتاب، فما عذر من جاء بعدهم أن يتقدّم عليه أو يبدّله أو يحرّفه؟ وما أقبح الاستكبار باسم الشريعة!

﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾

هم العلماء العاملون، والمربّون المعلّمون، الذين يحملون العلم لا زينةً للمجالس، بل أمانةً لله.

﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾

لم يقل: حُفظوا، بل ﴿ استُحفِظوا﴾؛ أي كُلِّفوا بحفظه، وحُمِّلوا مسؤوليته، وجُعلوا أوصياء عليه.

فالعلم ليس امتيازًا، بل تكليف. ليس رفعةً بلا تبعة، بل مقامٌ تُسأل عنه يوم القيامة.

من حُمِّل العلم، حُمِّل البيان. ومن عُرِف بالحق، لزمه أن يقف معه، ولو خالفه الناس.

فمن سلك طريق العلم فقد بايع الله عز وجل على أن يُظهر الحق ويبلّغه للناس، وألا يكتم منه شيئًا. ولا يخون أمانته ولا يُرخصه للتعصبات والأهواء وحظوظ النفوس والجماعات!

ثم يأتي التحذير الصريح من آفتين خطيرتين، تهدمان رسالة العالم وغاياته الجليلة:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

الخوف من الناس... وحبّ الدنيا.

هاتان الآفتان إذا دخلتا قلب العالم أفسدتا علمه، فيكتم حقًّا خوفًا، ويبدّل حكمًا طمعًا، ويبيع دينًا بمنصبٍ زائل، أو مالٍ فانٍ.

والثمن قليل مهما كبر، لأن ما يُقابله هو آيات الله عز وجل.
فأي صفقةٍ هذه؟ أن يُباع النور بظلمة، والهدى بضلالة، والباقي بالفاني؟

الآية تُشعرك أن أهل العلم ليسوا كغيرهم. فالجاهل قد يُعذر بجهله، أما العالم فجهله خيانة.
إن قَصّر في خاصة نفسه أثم، وإن قصّر في تعليم الناس أثم أضعافًا.
العالم إمّا أن يكون وارثًا للأنبياء، وإمّا أن يكون بابًا من أبواب الضلال إن خان الأمانة.

ثم يأتي التقرير الحاسم:
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾
الحكم بغير ما أنزل الله ليس مجرد خطأ إداري، بل انحراف عقديّ إذا كان عن اعتقادٍ بجوازه، أو هوىً مقدَّمٍ على الوحي.

فالحكم عنوان الولاء: لمن تنقاد؟ لله أم لهواك؟ للوحي أم للمصلحة التي يقررها هواك؟

والانحراف هنا قد يبلغ بصاحبه الكفر الأكبر المخرج من الملّة والدين!! فالأمر جدّ وليس بالهزل...!

وفي كل الأحوال... هو انحراف عن النور إلى الظلمة، له أثمانه وتكلفته. التي يدفعها كل من تخلى عن شريعة ربه!

فهذا مصاب جلل، فيه خسارة الدين والآخرة، ودنيا بلا دين ولا آخرة، مهلكة وخسران مبين، نعوذ بالله من مصيبة تعطيل وتهميش شريعة رب العالمين.

وهذه الآية تُعيد ترتيب المفاهيم: فالكتاب هدى ونور، لا ثقافة وتراث. والأنبياء قدوة في الخضوع للشريعة لا الهيمنة عليها، والعلماء أمناء، لا تجّار نصوص. والخشية الحقيقية ليست من الناس، بل من رب الناس جميعا.

إنها دعوةٌ لأن يكون العلم عبادة، والحكم أمانة، والفتوى مسؤولية، والشريعة مرجعًا لا ينازعه مرجع.

فاللهم اجعلنا من أهل النور، ولا تجعلنا ممن استُحفظوا فضيّعوا، ولا ممن باعوا الآخرة بدنياهم، وارزقنا علمًا نافعًا، وعملاً صادقًا، وقلبًا يخشاك وحدك دون سواك.

أقيمت الحجة!

من الآية (٤١) إلى (٤٤) من سورة المائدة تتكشّف أمامنا لوحةٌ متكاملة لانحراف القلوب حين تفقد صلتها الصادقة بالوحي.

بدأ المشهد بقلوبٍ تسارع في الكفر، تسمع للكذب سمعَ انقياد، وتُصغي للباطل طلبًا له لا لغفلة عن حقيقته. ثم رأيناها تأكل السُّحت، فدلّ ذلك على أن فساد السماع أورث فساد المكسب، وأن الشبهة إذا استقرّت في القلب جرّت وراءها الشهوة في السلوك.

ثم ارتقى البيان إلى تعرية دافعهم الأعمق: ليسوا طلابَ حق، بل طلابَ هوى. يحكّمون النبي ﷺ لا تسليمًا، بل تجربةً وانتقاءً، فإن وافق الحكم رغبتهم قبلوه، وإن خالفها أعرضوا عنه. فالخلل لم يكن في النصّ، ولا في البيان، بل في الإرادة التي أرادت للدين أن يتبعها بدل أن تتبعه.

ثم جاء الميزان الفاصل: الكتب التي أنزلها الله هدىً ونور، يحكم بها الأنبياء وهم أعظم الناس إسلامًا وانقيادًا، ويُؤتمن عليها العلماء، لا ليحرفوها، بل ليشهدوا بها، لا ليخشوا الناس، بل ليخشوا الله ربّ الناس.

وهنا يكتمل المعنى:

قلبٌ يسمع للكذب، ينتهي به الأمر إلى تحريف الحكم. وعالمٌ يخشى الناس، يبيع آيات الله بثمنٍ قليل. ومجتمعٌ يجعل الهوى حَكَمًا، يُسلب عنه وصف الإيمان.

إنها سلسلة مترابطة:

فساد السمع .. فساد القصد .. فساد الحكم .. فساد المجتمع .. فساد الخاتمة!

وفي المقابل، طريق النجاة واضح:

طهارة السمع، وصدق الإرادة، والانقياد للوحي، والعدل في الحكم، والخشية من الله وحده.

والآيات لا تتحدث عن قومٍ مضوا فحسب، بل ترسم قانونًا ثابتًا في حياة الأمم:

الأمة التي تُقدّم أهواءها على وحي ربها، وتُخضع النصوص لمصالحها، وتُسكت العلماء أو تُرغِمهم على المجاملة، تفقد نورها، ولو بقيت بين أيديها الكتب.

أما الأمة التي تعظّم الوحي، وتحمل العلم أمانة، وتقيم العدل ولو على نفسها، فهي أمةٌ تمشي على نور من الله، ولا يضرّها من خالفها.

إنها دعوةٌ صارخة: إمّا أن يكون الوحي هو الحاكم، وإمّا أن يكون الهوى هو الإله. ولا يجتمع النور والظلمة في قلبٍ واحد.

فاللهم اجعلنا ممن أحببتهم وأيّدتهم ورضيت عنهم.

اللهم اجعلنا ممن يقيم شريعتك وينصرها ويرفع رايتها إلى آخر رمق.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾

حيثما التفتَّ أيها المؤمن، تحاصرك أصواتُ المخذِّلين والمرجفين، وأصداءُ المرتابين والمغرورين؛ يسعون أن يزحزحوك عن الطريق، وأن يصرفوك عن سبيل التمكين المبين.

فتأتي آياتٌ من سورة المائدة قويةً هادرة، تعيد لملمة شتات قلبك، وتردّه إلى يقينه الأول، وتبصّرك بسنن الله في العزة والرفعة، وبموجبات النهوض والارتقاء المأمول.

يقول الله عز وجل: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ سورة المائدة.

ولعل أول ما يشد القلب في معاني هذه الآية الجليلة، أن الله عز وجل حين ينهى المؤمنين عن موالاة أعداء الدين، لا يكتفي بالتحذير من الخارج، بل يكشف ما هو أخطر: الانحراف الذي ينشأ داخل الجماعة المسلمة نفسها. وهنا تأتي هذه الآيات لتفضح حالة نفسية دقيقة، حالة القلب المريض الذي لا يجرؤ على إعلان كفره، لكنه لا يملك صدق الإيمان.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾

يسارعون لا يذهبون مشيًا هادئًا ..!

فالمسارعة تدل على شوق خفي، وعلى انجذاب داخلي، وعلى خوف يدفع صاحبه إلى الارتماء سريعًا في أحضان من يظن أنهم الأقوى. إنه قلب لم يعد ميزانه الحق والباطل، بل صار ميزانه القوة والغلبة الظاهرة.

ولهذا وصف الله أصل المشكلة: مرض في القلب. مرض الشك، ومرض ضعف اليقين، ومرض التعلق بالدنيا.

فالقلب إذا اعتلّ، اختلّ ميزان الولاء والبراء، وأصبح صاحبه يبحث عن الأمان حيث يظن القوة، لا حيث يوجد الحق.

ثم يكشف القرآن العذر الذي يختبئون وراءه:

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾

إنه منطق الخوف الدنيوي القاصر، لا منطق الإيمان الأخروي الخالد.

هم لا يرون الصراع بين حق وباطل، بل بين قوى متصارعة، ويريدون أن يحتفظوا بخيط مع الطرف الآخر، تحسبًا لتقلبات الأيام. وخشية من الهزيمة وخسارة الدنيا! وهكذا يتسلل النفاق غالبًا من باب الحسابات الدنيوية، لا من باب العداوة الصريحة.

لكن القرآن يفضح هذا المنطق؛ لأنه في حقيقته سوء ظن بالله عز وجل.

فمن ظن أن نصر الله قد يتخلف عن دينه، أو أن الباطل قد يستقر له الملك، فقد تسلل الشك إلى قلبه وإن ادعى الإيمان.

ولهذا يأتي الرد الإلهي المطمئن ينبض يقينًا:

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾

و"عسى" من الله وعد. أي أن الأيام التي يخشاها المنافقون ستنقلب، وأن الموازين التي ظنوها ثابتة ستتغير، وأن النصر الذي استبعدوه سيأتي فجأة.

فالله وحده هو الذي يدير حركة التاريخ، لا تحالفات البشر ولا حساباتهم القلقة.

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

يا لها من لحظة قاسية ... حين تنكشف السرائر، ويظهر ما أخفاه القلب سنين طويلة، ويقف صاحبه أمام نفسه عاريًا من كل تبرير.

لقد ظنوا أنهم يحمون أنفسهم بالازدواجية، فإذا بتلك الازدواجية نفسها تتحول إلى مصدر خزي وندم.

ثم يرسم نور القرآن مشهدًا آخر بعد انكشاف الحقيقة:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

إنها لحظة دهشة المؤمنين.

فكم كان هؤلاء يبالغون في الحلف، وكم كانوا يؤكدون ولاءهم، وكم كانوا يظهرون الحماسة والانتماء.

لكن المشكلة أن الكثرة في الأيمان لا تعني صدق الإيمان. فالمنافق يعوض ضعف الحقيقة بكثرة التأكيدات.

ولهذا لم يقل الله تعالى إنهم أخطؤوا، بل قال:

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾

حبطت! وليس مجرد خسارة عمل، بل ذهاب أثره كله، كأن العمل لم يكن.

وهذا من أعظم الخسران: أن يبذل الإنسان جهدًا، ويعيش دورًا، ويتعب في بناء صورة لنفسه، ثم يكتشف في النهاية أن كل ذلك تلاشى.

ثم تأتي الخاتمة الثقيلة:

﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾

خسروا كل شيء. خسروا ثقة المؤمنين، ولم ينالوا رضا الكافرين، وضاعت أعمالهم، وبقي عليهم حساب الله ﷻ.

وهكذا تكشف الآيات سنة من سنن الله في المجتمعات:

القلب الذي لا يثبت مع الحق وقت الشدة، والذي يفتش عن الأمان في أحضان الباطل، سينتهي به الأمر وحيدًا خاسرًا.
أما المؤمن الصادق، فميزانه مختلف. هو يعلم أن الأيام قد تدور، وأن الابتلاء قد يشتد، لكن يقينه ثابت: أن العاقبة ليست للأقوى في لحظة، بل للأثبت على الحق عبر الطريق.

ولهذا فإن أخطر ما يخشاه المؤمن على نفسه ليس العدو الخارجي، بل بذرة المرض إذا تسللت إلى القلب؛ فإن القلب إذا ضعف يقينه، بدأ يبرر، ثم يتردد، ثم يساوم ... حتى يجد نفسه – دون أن يشعر – يسارع إلى حيث كان يظن أنه لن يذهب أبدًا.

وهذه الآية تأتي بعد كشف القرآن لحقيقة القلوب المريضة والمنافقين، فكأن السياق كله يقرر سنة عظيمة من سنن الله في الأمم: أن الدين لا يتوقف على أحد، وأن الله غني عن عباده، وأن من ترك الطريق فلن يضر إلا نفسه.

ولا يترك الله المؤمنين يتساءلون، ما الحل؟ وما السبيل للنجاة؟ بل يقودهم مباشرة إلى حقيقة عظيمة وسنة مهيبة، وفضل لا يبارى، بل يُفدى!

فيقول عزّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾

إنه نداء للمؤمنين، لكنه يحمل في طياته تحذيرًا عظيمًا: فالإيمان ليس لقبًا يُمنح مرة ثم يبقى إلى الأبد، بل هو طريق يحتاج إلى ثبات، وقلب يحتاج إلى صيانة.

ولهذا لم يقل الله: من يرتد من الناس، بل قال: منكم. أي إن الخطر قد يقع في داخل الصف، وإن القلب إذا لم يتعاهد ما يقوي الإيمان ولا يتحصن من نواقض هذا الإيمان فقد يتغير ويرتد!

والردة مصير الخبيث المرتاب، وإن تستر بالإيمان أمدًا.

لكن العجيب أن الآية لا تقف طويلًا عند المرتدين، بل تتجاوزهم سريعًا إلى حقيقة أكبر:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾

كأن الله عز وجل يقول: إن هذا الدين لا يقف على أحد، ولا يتوقف على جيل، ولا يعتمد على فرد. فإذا تركه قوم، جاء الله بغيرهم.

إنها رسالة تكسر الغرور في القلوب، وسنة استبدال تصنع العدل! فالله لا يحتاج إلى أحد، لكن الناس هم الذين يحتاجون إلى شرف الانتساب إلى دينه.

ثم يبدأ نور القرآن في رسم ملامح هذا الجيل الذي يختاره الله لحمل دينه:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

قبل الجهاد، وقبل العزة، وقبل الصفات الظاهرة... بدأت الآية بأصل كل خير: المحبة بين العبد وربه.

فليست القضية مجرد التزام بالأوامر، ولا مجرد حركة في الأرض، بل علاقة قلبية عميقة.

فإذا أحب الله عبدًا يسّر له الخير، وفتح له أبواب الطاعة، وقرّب إليه القلوب، وجعل طريق الطاعة عليه سهلًا.

وأما العبد إذا أحب ربه، ظهر ذلك في اتباعه للنبي ﷺ، وفي كثرة ذكره لله، وفي شوقه إلى الطاعة.

إن الدين الذي لا تسكن معه المحبة في القلب يتحول إلى عادات جافة، لكن الدين الذي تسكن معه المحبة يتحول إلى حياة كاملة.

ولذلك أشدد جدًا ودومًا على هذا الأساس الأول في تحقيق الإصلاح والتغيير، إصلاح علاقتك بربك، بتحصيل أسباب محبته ورجاء محبته ﷻ. لأنه مفتاح كل خير وبوابة كل الفتوحات! وبقدر التقصير فيه يكون التقصير في كل شيء بعده.

ثم تأتي الصفة التي تضبط ميزان العلاقات:
﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
وهي معادلة دقيقة في بناء الشخصية المسلمة. فالمؤمن الصادق ليس قاسي القلب مع إخوانه، ولا متكبرًا عليهم، بل هو لين الجانب، قريب النفس، رحيم بالمؤمنين.
لكن هذا اللين لا يتحول إلى ضعف، ولا إلى ذوبان في الباطل. فهو عزيز أمام من يعادي دين الله، ثابت لا يذل ولا ينكسر.

وهكذا يجمع الإسلام بين أمرين قد يبدوان متناقضين: الرحمة في الداخل، والعزة في مواجهة الباطل.

ثم تأتي السمة التي تكشف صدق تلك المحبة:
﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
فالمحبة الحقيقية لا تبقى شعورًا في القلب، بل تتحول إلى تضحية.
يجاهدون بأموالهم، وأنفسهم، وكلماتهم، ومواقفهم، وصبرهم. يجاهدون في نصرة الحق، وفي دفع الباطل، وفي حمل الرسالة.

فالدين الذي لا يُبذل لأجله شيء، لا يعيش طويلًا. والقاعدون والمتفلتون يريدون التنصل من واجب الجهاد، فيتعلقون بالأماني ولو كانت هشّة ويوالون الأعداء ولو كانوا كفارًا!

ثم يذكر القرآن علامة القوة الحقيقية في النفوس:

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

كم من الناس يعرف الحق لكنه يخشى كلام الناس. وكم من إنسان يتردد بين رضا الله ورضا الخلق.

لكن القلوب التي ربّاها الله على الإيمان تتحرر من هذه القيود. فهم لا يتعمدون إثارة اللوم، لكنهم لا يتركون الحق خوفًا منه.

إنهم يعلمون أن أخطر العبوديات الخفية هي عبودية نظرة الناس وكلامهم. فالقلب لا يكتمل توحيده حتى يتحرر من هذا الخوف.

ثم تختم الآية بإزالة كل شعور بالغرور:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾

فكل هذه الصفات العظيمة – المحبة، والجهاد، والثبات، والعزة – ليست من صنع الإنسان وحده. إنها منحة من الله. ولهذا ينبغي لمن وُفّق للطاعة أن لا يعجب بنفسه، بل يشكر الله الذي هداه.

ثم يأتي الختام العظيم:

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

واسع الفضل، لا ينفد عطاؤه، ولا تضيق خزائنه. وعليم بالقلوب، يعلم من يستحق هذا الشرف.

فليس كل من ادعى نصرة الدين يصلح لحمله، لكن الله يختار من عباده قلوبًا صادقة، وعزائم قوية، ونفوسًا تحب الحق أكثر مما تحب الدنيا.

وهكذا تعلمنا الآية سنة ثابتة:

أن الله إذا رأى من عباده صدقًا رفعهم لحمل دينه، وإذا رأى منهم ترددًا واستبدالًا... استبدل بهم غيرهم.

فشرف خدمة هذا الدين ليس حقًا مكتسبًا، بل فضل يمنحه الله لمن يشاء.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

فبعد أن كشف الله عز وجل في الآيات السابقة أمر القلوب المريضة، وفضح خوفها من الدوائر وتقلباتها بين معسكرات القوة، ثم أعلن سنة الاستبدال الإلهية وأن الله يأتي بقوم يحبهم ويحبونه... يأتي هذا النور ليحسم قضية الولاء والانتماء حسمًا لا يقبل التردد.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

كلمة (إنما) ليست مجرد أسلوب بلاغي، بل هي قيد قاطع يرسم حدود الانتماء. كأن الله عز وجل يقول: لا تتشتت قلوبكم في الولاءات، ولا تتوزع انتماءاتكم بين القوى والاتجاهات، فطريق المؤمن واضح.

إن الولاية في الإسلام ليست شعارًا سياسيًا ولا مجرد تعاطف عاطفي، بل رابطة إيمانية عميقة تبدأ بالله، ثم برسوله ﷺ، ثم بجماعة المؤمنين.

فمن كان لله وليًا صار تلقائيًا قريبًا من أولياء الله، ومن ابتعد عنهم دل ذلك على خلل في أصل الولاية.

ولهذا لم تقتصر الآيات على ذكر الإيمان المجرد، بل أكدت وصف هؤلاء المؤمنين بصفات عملية:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

إنها صورة المؤمن الحقيقي: قلبه خاضع لله، وجوارحه قائمة بطاعته، وماله مبذول في سبيل الخير.

فالصلاة تبني صلته بربه، والزكاة تبني صلته بالناس بما ينفع الناس. وبين الصلة بالله والإحسان للخلق يتشكل المجتمع المؤمن.

وقوله ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ليس مجرد وصف لحركة في الصلاة، بل تصوير لحالة القلب: خضوع لله، وانكسار بين يديه، وتواضع لا يعرف الكبر.

فالمؤمن الذي يحمل راية الدين ليس متعاليًا على الناس، بل خاشعًا لله، ذليلًا بين يديه. وهو خدوم محسن كريم جواد.

ثم يبين القرآن نتيجة هذا الاختيار:
﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾
إنها قاعدة عظيمة من قواعد التاريخ: أن الغلبة في النهاية ليست بكثرة العدد، ولا بوفرة السلاح، بل بالانتماء الصادق إلى حزب الله.

وقد تمر على هذا الحزب لحظات ضعف، وقد يُدال عليه أحيانًا، لكن ذلك لا يغير الحقيقة الكبرى: أن العاقبة للمتقين.
فالغلبة هنا ليست انتصارا مرحليا في معركة، بل مسار تاريخي طويل تنتهي فيه الكلمة لله عز وجل.

ثم ينتقل القرآن إلى تحذير شديد يكشف سبب الانحراف عن هذا الطريق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

إن أخطر ما يضعف الأمة ليس قوة أعدائها، بل الاستخفاف بدينها.

فهؤلاء الذين يسخرون من الدين، ويحتقرون شعائره، ويجعلون الإيمان مادة للضحك والسخرية... كيف يليق بالمؤمن أن يجعلهم أولياء أو موضع ثقة؟

إن من يستهين بدينك لا يمكن أن يكون صديقًا حقيقيًا لك. ومن يضحك من صلاتك لا يمكن أن يحمل همك.

ولهذا ختمت الآية بميزان واضح: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

فالتقوى هي الحارس الذي يمنع القلب من الانزلاق إلى هذه الولاءات الفاسدة.

لأن القلب إذا ضعف يقينه بدأ يبحث عن الأمان في غير الله، وعن القوة في غير ولاية الله.

لكن القلب التقي يعلم أن العزة كلها في طريق واحد.

مسار قلب .. مسار أمة!

وهكذا تربينا هذه الآيات تربية عظيمة تضبط الموازين والمقاييس بلا تشويش فترسم خريطة كاملة لمسار الأمة.

فقد بدأت الآيات بكشف مرض القلوب التي تسارع إلى موالاة أعداء الدين خوفًا من الدوائر وتقلبات الزمن.

ثم تعلن بوضوح، أن هذا الدين لا يتوقف على أحد، وأن الله قادر أن يأتي بقوم آخرين يحملون الرسالة بصدق، قلوبهم معلقة بمحبة الله عز وجل، وأخلاقهم متوازنة بين الرحمة بالمؤمنين والعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

ثم حسم القرآن قضية الانتماء: فالولاية الحقيقية لا تكون إلا لله ورسوله والمؤمنين، ومن دخل في هذا الصف صار من حزب الله.
وأما من تردد بين الولاءات، أو بحث عن العزة عند من يسخرون من دينه، فقد ضيع ميزان الإيمان.

فالدرس الكبير الذي تتركه هذه الآيات هو أن قوة الأمة تبدأ من وضوح ولائها، وأن النصر ليس ثمرة الحسابات البشرية وحدها، بل ثمرة صدق الانتماء إلى الله.

فإذا صحت القلوب، واستقامت الولاءات، وعاش المؤمنون بعزة الإيمان... فإن وعد الله لا يتخلف:

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وإن كان من رسالة تتطلب استيعابها عاجلًا من هدي هذه الآيات الجليلة، فهي صفة أهل التمكين والاستعمال في نصرة دين الله تعالى، وإقامة النفس عليها وتربية الأجيال عليها. واستحضار سنة الاستبدال عند كل محطة صراع أو حرب أو نازلة!

فاللهم اجعلنا ممن أحبك حبا شديدًا وأحببتهم، اللهم اجعلنا من الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين، اللهم اجعلنا من الذين يجاهدون في سبيلك ولا يخافون لومة لائم، اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم.

﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾

قال الله جلّ جلاله: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الفتح: ١٥)

في هذه الآية يتجلّى أحد أساليب المنافقين في قلب الحقائق وتشويهها؛ فحين مُنعوا من الخروج مع النبي ﷺ إلى غنائم خيبر جزاءً لتخلّفهم يوم الحديبية، لم ينظروا إلى السبب الحقيقي وهو عصيانهم وتقصيرهم، بل لجؤوا إلى تفسيرٍ آخر يبرّر موقفهم، فقالوا: ﴿بل تحسدوننا﴾.

وهنا يظهر كيف وظّفوا مفهوم الحسد ليغطّوا به خطأهم؛ فبدل الاعتراف بالتقصير ألقوا التهمة على المؤمنين، وكأن المنع لم يكن حكمًا إلهيًا بل غيرة بشرية.

وهذا القلب للمعاني يدل على ضيق الفهم وفساد التصور؛ إذ لو فقهوا سنن الله لعلموا أن الطاعة لها ثمراتها وأن المعصية لها تبعاتها، وأن الحرمان الذي أصابهم إنما هو أثر طبيعي لتخلّفهم لا حسد من المؤمنين.

لذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾، إشارة إلى أن جهلهم لم يكن مجرد نقص في المعلومات، بل عجز عن إدراك حكمة الله وعدله وسننه في الجزاء، فصاروا يفسّرون الأحكام الإلهية بمنطق الأهواء والاتهامات.

فسبحان الله كيف يفضح الظالمين !

ومريد الحق لا يجادل أبدًا بل يزداد تواضعا أمام دعوة الحق، ومواقف نصرة الحق، لكن الأهواء تعمي الأبصار والأفئدة! فترى المفتون يحاول بجهل حرف المقاصد الجليلة التي فيها حياة قلبه لو تواضع وصدق، وذلك لدنو غايات نفسه الذليلة!

نعوذ بالله من الجهل والضلال!

﴿أحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

إنَّ من أكثر ما يبعث الهيبة في القلب عند تدبّر آيات الإيمان، وآيات المعية الربانية، وفضائل الاستقامة؛ ذلك الحديث المتكرر عن الامتحان والتمحيص، وعن كشف ما تخفيه الصدور. إنه الحديث عن الابتلاءات والفتن التي تمتحن حقيقة الإيمان قبل كل شيء، وتُظهر صدق الدعوى من زيفها.

فليس الإيمان مجرد ادعاء يُعلن، بل هو طريق يُختبر فيه القلب وتُمتحن فيه النفس. ولهذا افتتحت سورة العنكبوت آياتها بهذه الحقيقة العظيمة التي تستدعي الوقوف والتدبر والاتعاظ.

إنها تذكّرنا أن سلعة الله غالية ... بل غالية جدًا، وأن مراتب القبول والرضوان عند الله عز وجل رفيعة سامية، لا يبلغها إلا من صدق مع الله، وثبت عند الفتنة، وصبر في طريق الإيمان.

يقول الله عز وجل:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢)

هذه الآية العظيمة ترسم قانونًا ربانيًا ثابتًا في طريق الإيمان؛ وهو أن الإيمان دعوى تحتاج إلى برهان.

فهل ظن الناس أن مجرد قولهم آمنا يكفي دون امتحان؟

بل هو حقيقة يبرهن عليها الصبر والثبات عند الشدائد. ولهذا يأتي الابتلاء ميزانًا يكشف صدق القلوب. فكما أن الذهب لا يُعرف خالصه إلا بالنار، كذلك الإيمان لا يُعرف صدقه إلا بالابتلاء.

والابتلاء سنة إلهية لا تتخلف، وقد بيّن الله أن حكمته تقتضي الامتحان، لأن بدون الابتلاء لا يتميز الصادق من الكاذب. فالفتن ليست علامة غضب بالضرورة، بل هي سنة ربانية في تمحيص المؤمنين.

ولهذا ابتُلي الأنبياء وهم خير الخلق: فابتُلي نوح بتكذيب قومه وابتُلي إبراهيم بالنار وابتُلي موسى بفرعون وابتُلي مُحَمَّد ﷺ بالأذى والحصار.

فمن ظن أن طريق الإيمان مفروش بالراحة فقط لم يفهم سنن الله في عباده.

والفتنة نوعان: شبهات وشهوات

وفتنة الشبهات: هي ما يطرأ على القلب من شكوك واعتراضات على العقيدة.

وفتنة الشهوات: هي ما يدعو النفس إلى المعاصي ويصرفها عن الطاعة.

فمن ثبت أمام الشبهات بالعلم واليقين، وثبت أمام الشهوات بالصبر والتقوى، فهذا دليل صدق إيمانه.

والابتلاء يكشف حقيقة القلب لأن الرخاء تزدهر فيه الادعاءات بدون برهان صدق.
لكن المحنة تكشف: من يزداد قربًا من الله ومن يفر إلى المعصية، ومن يثبت ومن ينهار، من يشتد يقينه ومن يرتاب!
فالبلاء يمحص الرجال كما تمحص النار الذهب. ودرجات الناس في الصبر مختلفة، فليس الناس في مواجهة الفتن سواء، بل هم على مراتب:
فمنهم من يثبت ويزداد إيمانًا، ومنهم من يضعف ثم يعود، ومنهم من يسقط عند أول اختبار,
ولذلك على العبد أن يكثر من سؤال الله الثبات على دينه. فالثبات نعمة عظيمة لا يملكها العبد بنفسه، بل هي توفيق من الله سبحانه.

وفي الابتلاء تربية إيمانية لما يحمله من تربية للنفس: إذ يطهر القلب من النفاق ويقوي الصلة بالله ويعلم النفس الصبر واليقين ويرفع الدرجات بقدر إخلاص الدين لله، والرضا بما تثخن في النفس الأقدار، ولهذا كان البلاء للمؤمن ارتقاءً إذا صبر واحتسب.

فلا بد أن تعي أيها المسلم، أيتها المسلمة أن طريق الإيمان طريق اختبار. والفتن ميزان الصدق، والثبات أعظم علامة على صحة الإيمان. فمن أراد الجنة فليعلم أن الطريق إليها يمر عبر الصبر على الفتن.

ولو ترك الناس بلا ابتلاء لادعى الإيمان كل أحد، ولكن البلاء يميز أهل الصدق من أهل الدعوى.

ولكل مقدمات، يُكرم لها المرء أو يُهان!

ثم يقول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٣)

فإن كانت الآية الأولى قد قررت أن الإيمان لا بد أن يُمتحن، فإن هذه الآية جاءت لتؤكد حقيقة أخرى عظيمة، وهي أن الابتلاء ليس أمرًا جديدًا ولا استثناءً لهذه الأمة، بل هو سنة قديمة في جميع المؤمنين عبر التاريخ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

أي: لقد امتحنا واختبرنا الأمم السابقة كما نختبر هذه الأمة.

لذلك على المؤمن حين يبتلى أن يعلم أنه يسير في طريق الأنبياء والصالحين، وليس في طريق مهجور.

ولقد ابتُلي المؤمنون قبلنا: بالسجون وبالتعذيب وبالتشريد وبقتل الأحباب وبالحصار وبالمطاردة وبمحاربة عقيدتهم حتى وصل الأمر كما في وصف الحديث أن يقطعوا بالمناشير! ومع ذلك ثبتوا، فكان ابتلاؤهم طريقًا إلى رفعة درجاتهم وخلود ذكرهم.

عن خباب بن الأرت ﷺ قال: شَكَوْنَا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا له: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟

قالَ ﷺ: "كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". صحيح البخاري.

قال تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

والله سبحانه يعلم كل شيء قبل وقوعه، لكن هذا العلم هنا علم ظهور وبيان؛ أي ليظهر للناس من هو الصادق ومن هو الكاذب.

فكم من إنسان يتكلم عن الصبر قبل البلاء ويتحدث عن الثبات قبل الفتنة لكنه عندما تأتي المحنة يتغير حاله. تخذله نفسه وأعماله، ويخذله ظلمه وارتيابه، نسأل الله السلامة.

وقد قضت العادة أن يتشابه الناس في أوقات الرخاء ، لكن في أوقات الفتن تظهر معادنهم الحقيقية.

فالصادق إذا ابتُلي: ازداد قربًا من الله وتمسك بدينه أكثر وصبر واحتسب، أما الكاذب: فيتراجع أو يساوم على دينه أو يبيع مبادئه لأجل الدنيا. ولهذا كانت الشدائد هي اللحظة التي يولد فيها الصدق الحقيقي.

وهذه الفتن التي تتوالى، تعمل في الأمة عمل الغربال: ترفع أهل الصدق وتكشف أهل النفاق وتنقي الصفوف كما ينبغي، ولهذا كثيرًا ما تكون المحن سببًا في نهضة الأمة وقوتها، لأن الصفوف بعدها تصبح أكثر صدقًا وصلابة.

ولذلك أيضا يوصف الابتلاء بعملية تنقية الذهب بالنار. فالذهب حين يدخل النار: يذوب وتخرج الشوائب ويبقى المعدن الخالص.

وكذلك القلوب: تظهر فيها الشكوك وتنفضح فيها النيات ويبقى الإيمان الصادق.

فالبلاء للقلوب كالدواء للأبدان، يخرج أمراضها.

وهذه الآيات لا تدعو إلى طلب الفتن، ولكنها تعلم المؤمن كيف يفهمها عندما تقع.
فالمؤمن يسأل الله العافية، لكنه إذا ابتُلي يصبر ويثبت لأنه يعلم أن هذا الطريق هو الطريق الذي سار عليه الصالحون قبله. وسبيل إثبات صدقه حقًا.

وهاتان الآيتان ترسمان قاعدة عظيمة في حياة المؤمن: الإيمان دعوى يجيدها الجميع والابتلاء امتحان يمر به الجميع، والثبات دليل الصدق لا ينجح فيه إلا الصادق حقًا!

فمن صبر على الفتن وثبت على الطاعة كان من الصادقين الذين ﷺ.
أما من انهار عند أول اختبار فقد كشف الابتلاء حقيقة إيمانه.

ولهذا كان دعاء المؤمنين دائمًا: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

ثم يقول الله عز وجل ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤)

بعد أن بينت الآيات السابقة حقيقة الابتلاء للمؤمنين وتمييز الصادق من الكاذب، جاءت هذه الآية لتكشف وهمًا آخر يقع فيه أهل المعاصي والباطل، وهو ظنهم أن بإمكانهم الإفلات من عدل الله عز وجل.

فكثير من أهل المعاصي حين يرون أنفسهم: يفعلون السيئات ولا يعاقَبون فورًا وتستمر حياتهم كما هي يظنون أن الأمر قد انتهى، وأنهم نجوا من الحساب.

لكن الله يرد على هذا الوهم بقوله: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: هل يظنون أنهم سيفلتون من قدرة الله أو يسبقون عقابه؟
وهذا ظن فاسد، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.
ومن أعظم الأخطاء أن يظن العاصي أن استمراره على راحته وهو يذنب دون عقاب، يعني رضا الله عنه.

فالواقع أن الله قد يمهل ويؤخر ويعطي الفرصة، لكن ذلك ليس إهمالًا، بل استدراج أو إمهال للحساب.

وما أعظم سنة الاستدراج!

فإذا رأيت الله يعطي العبد على معصيته ما يحب، فاعلم أنه استدراج.
والمعاصي غالبًا تنشأ من تصورات خاطئة في القلب. فمن يظن أن الله لا يرى أو لا يحاسب أو أن العقوبة بعيدة، أو أنه يمكن التفلت من رقابة الله أو أن الله يخلف وعده! فإنه يجرؤ على الذنب. ولهذا قال الله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

أي: ما أسوأ هذا الظن وما أفسد هذا الحكم، لأنه يتضمن: إنكار قدرة الله والغفلة عن حكمته والتوهم أن الإنسان يستطيع الهروب من الحساب.

والإنسان الذي يتكبر بالمعصية ويتوهم الإفلات من العقاب في غاية الضعف. إذ يكفي مرض صغير ليعجزه، وحادث لحظة يقلب حياته، أو موت يأتيه فجأة! فكيف يتوهم هذا الضعيف أنه يستطيع الفرار من ملكوت الله ﷻ؟

ولهذا العاصي في الحقيقة لا يقوى على معصيته، لكنه يقوى عليها بغفلة قلبه.

وهكذا ترسم الآيات صورة متكاملة للحياة الإيمانية:

المؤمن يُبتلى ليظهر صدقه، والمدّعي يُكشف عند الفتنة، وأهل المعاصي لن ينجوا من حساب الله، فالدنيا ميدان امتحان للجميع:

امتحان للمؤمن بالصبر، وامتحان للعاصي بالإمهال، وفي النهاية سيظهر الحق وتنكشف الحقائق. وكلٌّ وما قدمت يداه!

هذه الآيات من سورة العنكبوت تؤسس قاعدة عظيمة في فهم الحياة: فليس كل من قال آمنت صادقًا، وليس كل من عصى ناجيًا، ولكن الله يمتحن القلوب ويُمهل العصاة ثم يأتي اليوم الذي تظهر فيه نتائج الامتحان! فلا يلومن الظالم إلا نفسه..!

والسعيد من فهم سنة الله في الابتلاء، وخاف من الاغترار بالإمهال. نعوذ بالله من سوء المنقلب!

ثم يقول الله عز وجل ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٥)

بعد أن بيّنت الآيات سنة الابتلاء وتمييز الصادق من الكاذب، وأن أهل المعاصي لا يفلتون من عدل الله، تنتقل الآيات إلى توجيه القلوب إلى الغاية الكبرى من هذا الطريق كله، وهي لقاء الله عز وجل.

وهذه الآية تخاطب القلوب المؤمنة التي تحب الله وتشتاق إلى قربه وتسعى إلى رضاه سبحانه.

فكأن الله يقول: يا من ترجون لقائي وتحبون قربي، أبشروا... فإن موعد اللقاء آتٍ لا محالة.

فاللقاء مع الله ليس وهمًا ولا أمنية بعيدة، بل حقيقة قادمة لا بد أن يصل إليها كل إنسان.

وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وإن بدا بعيدًا في أعين الناس.

وعندما يتذكر المؤمن أن نهاية الطريق هي لقاء ربه، فإن ذلك يغير نظرته إلى الحياة كلها.

فيصبح الابتلاء عنده طريقًا إلى القرب من الله، والصبر وسيلة للفوز بلقائه، والطاعة دليل محبة لا مجرد تكليف.

ولهذا جاء في الحديث عن أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه". صحيح مسلم.

لكن الآية تشير إلى حقيقة دقيقة: ليس كل من قال إنه يحب الله صادقًا في دعواه.

ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

أي: يسمع أقوال الناس ويعلم ما في قلوبهم.

فقد يقول الإنسان: "أنا أحب الله وأرجو لقاءه"، لكن قلبه مشغول بالدنيا، وأعماله بعيدة عن الطاعة وسيرته منحرفة عن الاستقامة.

والله يعلم الصادق في شوقه والكاذب في دعواه. جعلنا الله من أهل الشوق للقائه ﷻ.

ثم يقول الله عز وجل ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦)

فالطريق إلى الله يحتاج إلى جهاد لذلك تأتي الآية التالية لتبين أن الوصول إلى هذا اللقاء لا يكون بالأماني فقط بل طريقه وسبيله الجهاد..! بكل أنواعه وأشكاله.

فالإيمان طريق فيه جهاد مستمر. جهاد النفس التي تميل إلى الراحة والكسل، وجهاد الشيطان الذي يزين المعصية ويحرف المسير، وجهاد أعداء الدين الذين يصدون عن الحق ويفسدون في الأرض.

ولهذا كانت حياة المؤمن معركة مستمرة مع الهوى والباطل.

وأول معركة يخوضها الإنسان ليست مع الآخرين، بل مع نفسه. فالنفس بطبعها: تميل إلى الشهوة وتتثاقل عن الطاعة وتبحث عن الراحة.

ولهذا يحتاج المؤمن إلى الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على البلاء.

وهذه الأنواع الثلاثة من الصبر هي أساس جهاد النفس.

وتختم الآية بحقيقة عظيمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

أي أن الله غني عن عباده الذين خلق! فلا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا، فهو سبحانه كامل في ملكه وكماله.

لكن الطاعة والجهاد في سبيله نفعها كله يعود إلينا نحن، فهي تطهر قلوبنا وترفع درجاتنا وتقرّبنا من لقاء ربنا عز وجل.

والله يأمرنا بما هو رحمةً لنا، ومن عصاه ظلم نفسه. والله هو الغني!

كما قال موسى عليه السلام: ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٨).

وإذا جمعنا هذه الآيات المتتابعة من سورة العنكبوت، وجدنا أنها ترسم منهج الطريق إلى الله:

الإيمان لا بد أن يُمتحن بالابتلاء. والفتن تكشف الصادق من الكاذب. وأهل المعاصي لن يفلتوا من عدل الله. والغاية من هذا الطريق هي لقاء الله. والوصول إلى هذا اللقاء يحتاج إلى جهاد وصبر.

فالدنيا كلها رحلة قصيرة، والسعيد من سار فيها: صابرًا على الابتلاء مجاهدًا للنجاة بنفسه مشتاقًا إلى لقاء ربه.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٧)

وبعد أن بينت الآيات السابقة حقيقة الابتلاء، وكشفت وهم الإفلات من العقاب، ووجهت القلوب إلى الشوق للقاء الله، وأمرت بالمجاهدة في طريقه، تأتي هذه الآية لتفتح باب الرجاء العظيم لكل من سار في هذا الطريق.

ولم يقل الله: "والذين آمنوا" فقط، بل قال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾
فالإيمان في القرآن ليس مجرد فكرة في العقل أو شعور في القلب فحسب، بل هو: اعتقاد في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

ولهذا كان العمل الصالح دليل صدق الإيمان، كما أن الثمرة دليل على حياة الشجرة.

ومن أعظم البشارات في هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾

أي أن الله يمحو آثار الذنوب عن عباده المؤمنين الصادقين.
فالعبد مهما كان له من تقصير أو خطأ، فإن التوبة والطاعات والعمل الصالح تكون سببًا في محو السيئات وتطهير سجله من كل مخالفة ومعصية وذنب.
ولهذا قال الله في موضع آخر: "إن الحسنات يذهبن السيئات". فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس بسبب ذنوبه، لأن باب التكفير مفتوح ما دام القلب حيًا بالطاعة. ولا يليق بالمؤمن إلا الاستدراك إلى آخر رمق!

ثم تأتي البشارة الأعظم: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

أي أن الله يجازيهم على أفضل أعمالهم، ويتجاوز عن تقصيرهم.
فالعبد يعمل أعمالًا كثيرة: فيها الإخلاص الكامل، وفيها ما يشوبه نقص أو غفلة، وفيها أمور مباحة لا أجر فيها. لكن الله من كرمه يجعل الجزاء على أحسن العمل، لا على متوسطه ولا على أدناه. وهذا من أعظم مظاهر رحمة الله بعباده.

هذه الآيات من سورة العنكبوت تجمع بين التربية بالخوف والتربية بالرجاء.
ففي البداية: ذكرت الابتلاء وكشفت حقيقة الفتن وحذرت من الاغترار بالمعصية ثم ختمت بالبشارة العظيمة للمؤمنين الصادقين.

فالمؤمن يسير إلى الله بين جناحين:

الخوف من التقصير والفتن والرجاء في رحمة الله ومغفرته.

وإذا تأملنا هذه الآيات المتتابعة من سورة العنكبوت وجدنا أنها ترسم خريطة الطريق إلى الله عز وجل:

يبدأ الطريق بدعوى الإيمان ثم يأتي الابتلاء ليكشف الصدق، وتنقضي الفتن فيتميز الصادق من الكاذب، ويُمهل أهل المعاصي لكنهم لن يفلتوا من الحساب، ثم تتجه القلوب إلى الغاية الكبرى: لقاء الله عز وجل.

ولا يصل العبد إلى تلك الغاية إلا عبر مجاهدة النفس والصبر، إلا عبر الجهاد والثبات، وفي نهاية الطريق ينتظر المؤمن وعد الله بالمغفرة والجزاء العظيم.

فهذه الحياة ليست دار استقرار، بل دار اختبار وتمحيص. والسعيد حقًا ليس من عاش فيها متفلتًا بلا محاسبة ولا غاية، بل من خرج منها وقد ثبت إيمانه، وغُفرت ذنوبه، واستحق لقاء ربه وهو عنه راضٍ. ولهذا كان أعظم ما ينبغي أن يشغل قلب المؤمن هو هذا السؤال:

هل أنا ممن يثبت عند الفتنة، ويجاهد في سبيل ربه، ويسير صادقًا نحو لقاء مولاه؟

فإن كان الجواب نعم، فليبشر بوعد الله الذي لا يتخلف:

﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

اللهم لقاء بك جل جلالك، يغبطنا عليه الأولون والآخرون.

سورة الحجرات: منظومة الأخلاق في مدرسة القرآن

تعيش الأمة الإسلامية في هذا العصر أزمات كثيرة، ولكن من أخطرها وأعمقها أثرًا أزمة الانحطاط الأخلاقي التي أصابت كثيرًا من العلاقات بين الناس؛ فضعفت معاني الاحترام، وانتشرت السخرية واللمز، وكثرت الخصومات والنزاعات، وسهل على الناس إطلاق الأحكام والاتهامات دون تثبت أو روية. ومع هذا التراجع الأخلاقي تضطرب المجتمعات وتتفكك الروابط التي كان ينبغي أن تقوم على حقوق وشرف الإيمان والأخوة والعدل.

وفي خضم هذا الواقع يبرز القرآن العظيم ليعيد للأمة ميزانها الأخلاقي، ويضع القواعد التي تحفظ المجتمع من الفوضى والانحلال. ومن أعظم السور التي عالجت هذا الجانب معالجة دقيقة وعميقة سورة الحجرات؛ فهي سورة تربوية أخلاقية بامتياز، وضعت الأسس التي ينبغي أن تقوم عليها العلاقات داخل المجتمع المسلم.

فقد نظمت هذه السورة العلاقات في المجتمع تنظيمًا دقيقًا يبدأ من تعظيم مقام النبي ﷺ، حيث أمر الله المؤمنين بتوقيره واحترامه، وخفض الصوت عنده، واستشعار منزلته العظيمة عند ربه، لأن الأمة التي لا تعرف قدر نبيها لا يمكن أن تستقيم أخلاقها ولا أن تستقيم حياتها.

ثم انتقلت السورة إلى تنظيم العلاقة بين المؤمنين أنفسهم، فأمرت بإصلاح ذات البين، ودرء الفتن، ووقف القتال بين المسلمين، ثم نهت عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة؛ وهي الآفات التي إذا انتشرت في مجتمع ما أفسدت أخلاقه ومزقت وحدته.

كما بينت السورة العلاقة مع عموم الناس، مؤكدة أن البشر جميعًا متساوون في أصل الخلقة، وأن معيار التفاضل الحقيقي ليس النسب ولا اللون ولا المال، وإنما التقوى، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ثم كشفت السورة حقيقة النفاق الذي قد يلبس ثوب الإسلام ظاهرًا بينما يخلو القلب من الإيمان، مبينة أن الله سبحانه مطلع على السرائر، يعلم ما في القلوب كما يعلم ما يظهر على الألسنة.

ولهذا يمكن القول إن سورة الحجرات ترسم ميثاقًا أخلاقيًا متكاملًا للمجتمع المسلم، يضبط العلاقة مع الرسول ﷺ، ويقيم ميزان الأخوة بين المؤمنين، ويقرر قاعدة العدل مع جميع البشر، ويكشف خطر النفاق والادعاء.

ومن هنا تبرز أهمية تدبر هذه السورة في زمننا الحاضر؛ لأن كثيرًا من الأزمات الأخلاقية التي تعانيها الأمة اليوم إنما هي نتيجة الابتعاد عن هذه القواعد القرآنية التي أرساها الله لبناء مجتمع متماسك تسوده الأخلاق والعدل.

وسنقف مع بعض آيات هذه السورة الجليلة، نتأمل هداياتها ومعانيها، لندرك كيف أراد القرآن أن يبني مجتمعًا تسوده الكرامة الإيمانية، والعدل بين الناس، بعيدًا عن الفوضى الأخلاقية التي تهدم الأمم وتبدد قوتها.

وأول ما نلاحظه في آيات سورة الحجرات الجليلة، أنها تتضمن منهجًا ربانيًا عظيمًا في بناء الوعي الأخلاقي والعقلي للأمة، فهي تؤسس لقاعدة حضارية تحفظ للمجتمع توازنه واستقامته، وتمنع عنه الانزلاق إلى الفوضى والظلم وسوء الظن.

يقول الله عز وجل:
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

يبدأ الخطاب الإلهي بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وهو نداء موجه إلى أهل الإيمان، لأن الإيمان الحقيقي يقتضي يقظة العقل، ونزاهة الضمير، وحسن التثبت قبل إصدار الأحكام. فليس كل ما يُسمع يُصدَّق،

وليس كل خبر يُنقل يصلح أن يُبنى عليه موقف أو قرار. إن الله تعالى يريد من المؤمن أن يكون إنسانًا مسؤولًا في تعامله مع الأخبار، لا منساقًا وراء الشائعات والانفعالات.

وهنا يتجلى عمق التشريع القرآني؛ إذ يربط بين التسرع في تصديق الأخبار وبين الوقوع في الظلم والندم، فقال سبحانه: ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾. فكم من ظلم وقع بسبب خبر كاذب، وكم من قطيعة حدثت بسبب إشاعة، وكم من دماء وأعراض وأموال انتهكت لأن الناس لم يتثبتوا قبل أن يحكموا. ولذلك جعل الإسلام التثبت قاعدة من قواعد العدل، وصمام أمان يحمي المجتمع من الفوضى الأخلاقية.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

ثم ينتقل الخطاب إلى تذكير عظيم يغرس في النفوس معنى الانضباط والاحتكام إلى الوحي، فيقول تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾. إن وجود النبي ﷺ بين الصحابة كان مصدر الهداية والميزان الذي تُعرض عليه الأمور. فليس من الحكمة أن يتقدم الناس بآرائهم وأهوائهم على هدي النبي ﷺ، لأن الوحي فيه المعرفة الحقيقية بمصالحهم من معرفة أنفسهم بها.

ولهذا قال سبحانه: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾، أي لو سار النبي وفق رغباتكم واقتراحاتكم في كل شأن، لشق عليكم ذلك وأوقعكم في العنت والمشقة.
ففي هذا تربية عظيمة على أن الحق ليس تابعًا للأهواء، وأن الهداية لا تُقاس بما تريده النفوس، بل بما يريده الله لعباده.

ثم يكشف الله سرَّ الهداية في قلوب المؤمنين، فيقول: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. فالإيمان ليس مجرد فكرة عقلية أو تقليد اجتماعي، بل هو نور يغرسه الله في القلب، فيصبح الحق محبوبًا إلى النفس، وتستريح الفطرة إليه، وتجد فيه السكينة والطمأنينة. ولذلك قابل هذا التحبيب بنقيضه فقال: ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

وهذا من أعظم دلائل رحمة الله بالمؤمنين؛ إذ لم يكتف بأن يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، بل جعل في قلوبهم ميلًا فطريًا إلى الطاعة، ونفورًا من المعصية. فإذا وجد المؤمن في قلبه محبة للحق وكراهية للباطل، فليعلم أن ذلك نعمة عظيمة ومنة من الله.

ثم يصف الله أصحاب هذه القلوب بقوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾، أي الذين استقامت عقولهم وقلوبهم، فصاروا يرون الحق حقًا فيتبعونه، ويرون الباطل باطلًا فيجتنبونه. والرشد هنا ليس مجرد معرفة، بل هو اجتماع العلم الصحيح مع العمل الصالح.

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لكن القرآن لا يترك القلوب تغتر بنفسها، فيختم المعنى بقوله: ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، ليقرر حقيقة عظيمة، وهي أن الهداية ليست نتيجة ذكاء الإنسان أو قوته، بل هي فضل من الله يؤتيه من يشاء. فكم من إنسان أوتي عقلًا وذكاءً لكنه حُرم نور الهداية، وكم من عبد بسيط فتح الله قلبه للحق فصار من الراشدين.

ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، فهو سبحانه يعلم من يستحق الهداية فيفتح له أبوابها، ويعلم من يصر على الغي فيتركه لما اختاره لنفسه، وكل ذلك يجري وفق حكمته البالغة وعدله التام.

ومن تدبر هذه الآيات أدرك أنها ليست مجرد توجيهات أخلاقية، بل هي قواعد لبناء مجتمع راشد:

مجتمع يتثبت قبل أن يحكم، ويزن الأمور بميزان الوحي، ويحب الإيمان ويكره الفساد، ويعلم أن الهداية فضل من الله ينبغي شكره والمحافظة عليه.

ولو التزم المسلمون بهذه القواعد القرآنية لانطفأت كثير من الفتن، وانحسرت الشائعات، وساد بينهم العدل والرحمة، ولكن حين يُهمل التثبت، وتُقدَّم الأهواء على الهدي، يبدأ الانحراف الأخلاقي الذي يهدد تماسك الأمة واستقرارها.

وهذا ما يجعل هذه الآيات من سورة الحجرات مدرسة تربوية عظيمة، تعيد بناء عقل المسلم وضميره على أساس من الحكمة والتثبت والرشد.

ثم يقول الله ﷻ ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

تكشف هذه الآيات التالية عن منهج إلهي عظيم في معالجة أخطر ما يهدد المجتمعات: الاقتتال الداخلي وتمزق الصف. فهي لا تكتفي بوصف المشكلة، بل تقدم نظامًا أخلاقيًا وشرعيًا متكاملًا يحفظ وحدة الأمة ويمنع انهيارها من الداخل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.
من أول وهلة يلفت النظر أن القرآن لم يقل: إن اقتتل فريقان من الناس، بل قال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي هذا إشارة عميقة إلى أن وقوع القتال لا يخرجهم من دائرة الإيمان، لكنه جرح كبير في جسد الأخوة يجب معالجته سريعًا قبل أن يتفاقم.

فالاقتتال بين المؤمنين ليس أمرًا طبيعيًا ينبغي التعايش معه، بل هو خلل أخلاقي واجتماعي يستوجب التدخل الفوري. ولهذا لم يوجه الخطاب إلى المتقاتلين فقط، بل إلى

بقية المؤمنين جميعًا، وكأن القرآن يقول: إن الفتنة إذا اشتعلت بين فئتين فلا يجوز لبقية الأمة أن تقف موقف المتفرج، لأن النزاع إذا تُرك دون علاج اتسع شره وأكل الجميع.

ولهذا جاء الأمر الحاسم: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾.

والإصلاح هنا ليس مجرد كلمات تهدئة أو طبطبة! بل هو عمل جاد لإزالة أسباب النزاع، وإعادة القلوب إلى ميزان العدل والحق. فالمجتمع المؤمن مسؤول عن حفظ تماسكه، وعن إطفاء نار الفتنة قبل أن تتحول إلى حرب طويلة تمزق القلوب قبل الأجساد.

لكن القرآن واقعي في نظرته إلى النفس البشرية؛ فقد لا يستجيب الطرفان للإصلاح، وقد تصر إحدى الطائفتين على الظلم، وهنا ينتقل التشريع إلى مرحلة أخرى، فيقول تعالى:

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾.

إنه موقف حاسم يقرر أن الظلم لا يجوز أن يُترك دون ردع. فالإصلاح لا يعني التساهل مع البغي، ولا يعني أن يُظلم المظلوم باسم السلام. بل العدل هو أساس السلام الحقيقي، ولذلك أُمر المؤمنون بردع الفئة الباغية حتى تعود إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ يدل على أن الهدف من القتال ليس الانتقام ولا الإبادة، بل إرجاع الباغي إلى ميزان الحق. فالغاية ليست كسر الخصم، بل إطفاء الفتنة وإعادة المجتمع إلى الاستقامة.

ثم تأتي لمسة قرآنية بديعة تكشف روح الشريعة، إذ يقول تعالى:
﴿ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾.
فبمجرد أن تعود الفئة الباغية إلى الحق، ينتهي القتال فورًا، وتعود مهمة الإصلاح من جديد. لكن هذه المرة يشدد القرآن على العدل في الصلح، لأن الصلح قد يقع أحيانًا بطريقة منحازة أو ظالمة، فيبقى الجرح في القلوب وإن توقفت الحرب.

ولهذا أكد الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.
فالعدل ليس مجرد مبدأ قانوني، بل هو خلق يحبه الله ويقرب صاحبه منه. والمقسطون هم الذين لا تميل بهم القرابة ولا العصبية ولا المصالح، بل يجعلون ميزانهم هو الحق وحده.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
ثم تأتي الآية التالية لتضع الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه كل هذا التشريع: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

إنها جملة قصيرة، لكنها تحمل أعظم ميثاق اجتماعي في الإسلام. فالعلاقة بين المؤمنين ليست مجرد علاقة مصلحة أو انتماء مصلحي مؤقت، بل هي أخوة حقيقية في الدين والإيمان. وهذه الأخوة تقتضي المحبة والنصرة والولاء والرحمة، كما يقتضي الجسد الواحد أن يتألم إذا اشتكى منه عضو.

ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

فالمتخاصمان ليسا طرفين بعيدين، بل أخوان في الإيمان، وإصلاح العلاقة بينهما واجب على بقية الإخوة. وهذه اللفتة القرآنية تعيد توجيه القلوب؛ فحين يتذكر الإنسان أن خصمه أخوه في الدين يخف غضبه، ويقترب طريق الصلح.

ثم ختمت الآية بالتذكير الأعظم: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فالتقوى هي الضامن الحقيقي لاستمرار الأخوة. فإذا غابت التقوى، ظهرت الأهواء والعصبيات والمصالح الضيقة، وتحوّل النزاع الصغير إلى صراع كبير. أما إذا حضر خوف الله تعالى في القلوب، فإن النفوس تميل إلى العفو والعدل والإصلاح.

ولهذا ربط الله بين تقواه وبين نزول الرحمة، لأن المجتمع الذي يقيم العدل، ويسعى للإصلاح، ويحفظ أخوة الإيمان، هو مجتمع يستحق رحمة الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما تكشفه هذه الآيات أن الإسلام لا يبني المجتمع على المثالية الخيالية التي تتجاهل طبيعة البشر، بل يبنيه على واقعية أخلاقية حكيمة:

يعترف بإمكانية وقوع النزاع، لكنه يضع له ضوابط تمنع تحوله إلى فوضى ودمار.

فإذا تأملنا واقع الأمة اليوم، أدركنا كم نحن بحاجة إلى استحضار هذه المعاني القرآنية؛ إذ إن كثيرًا من الصراعات تبدأ بكلمة أو خصومة صغيرة، ثم تتضخم بسبب العصبية والظلم، حتى تتحول إلى شقاق طويل يمزق الصفوف.

لكن القرآن يرشدنا إلى طريق النجاة:

التثبت، ثم الإصلاح، ثم العدل، ثم استحضار الأخوة الإيمانية، ثم تقوى الله.

وهذه السلسلة من القيم لو استقرت في النفوس، لأمكن للأمة أن تتجاوز كثيرًا من أزماتها، وأن تعود إلى وحدتها وقوتها، تحت مظلة الأخوة التي أرادها الله لعباده المؤمنين.

ثم يقول الله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

تنتقل سورة الحجرات في هذه الآيات انتقالًا بديعًا من معالجة النزاعات الظاهرة بين المؤمنين إلى تنقية القلوب من الأمراض الخفية التي تُولِّد تلك النزاعات في أصلها.

فالصراعات لا تبدأ عادة بالسيوف، بل تبدأ بكلمة، أو نظرة استعلاء، أو ظن سيئ يتسلل إلى القلب. ولذلك جاء القرآن هنا ليبني أخلاق المجتمع من الداخل قبل أن يعالج ظواهره من الخارج.

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾.
إن السخرية ليست مجرد مزاح لإضحاك الناس! بل هي في حقيقتها إعلان خفي عن استعلاء القلب. فالإنسان حين يستهزئ بغيره إنما يفعل ذلك لأنه يرى نفسه أعلى منه منزلة أو قدرًا. ولهذا جاء التحذير القرآني العميق: ﴿ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾.

إن هذه الكلمة تقلب موازين البشر؛ فالميزان الحقيقي ليس ما يراه الناس من مال أو جمال أو جاه أو شهرة، بل ما يعلمه الله من صفاء القلوب وخفايا الأعمال. فقد يسخر إنسان من فقير لا يملك شيئًا، بينما ذلك الفقير عند الله أقرب منزلة وأعظم قدرًا. وقد يضحك الناس من إنسان مغبرّ الهيئة، وهو في ميزان السماء أرفع مقامًا ممن يستهزئون به.

ثم يكرر القرآن المعنى نفسه في جانب النساء: ﴿ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء ﴾، لأن هذا الداء قد يظهر في كل مجتمع وبين كل الفئات. وكأن الآية تريد أن تغلق هذا الباب من أصله، فلا يكون في المجتمع المؤمن مكان للاستهزاء ولا لاحتقار الناس.

ثم ينتقل الخطاب إلى صورة أخرى من صور الأذى الخفي فيقول: ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

واللمز هو الطعن والعيب، سواء كان بالكلام الصريح أو بالإشارة الخفية. ومن أعجب التعبير القرآني أنه لم يقل: ولا تلمزوا غيركم، بل قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾. لأن المؤمنين في حقيقتهم كالجسد الواحد، فإذا طعن الإنسان في أخيه فكأنه طعن في نفسه، وإذا أهان غيره فقد أهان المجتمع الذي ينتمي إليه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾، أي لا يعيّر بعضكم بعضًا بالأسماء والأوصاف التي يكرهها الناس. فكلمة واحدة قد تجرح قلب إنسان جرحًا عميقًا، وقد تبقى في نفسه سنوات طويلة. والقرآن يريد للمجتمع المؤمن أن يكون مجتمع كرامة واحترام، لا مجتمع سخرية وتحقير.

ولهذا جاء التوبيخ الشديد في قوله: ﴿ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾.

أي بئس أن ينتقل الإنسان بعد أن شرّفه الله بالإيمان إلى أخلاق الفسوق والعدوان. فالإيمان ليس مجرد اعتقاد في القلب، بل هو سلوك يظهر في اللسان والمعاملة.

ثم فتح الله باب الرجوع فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

فالخطأ قد يقع من الإنسان، لكن الخطورة الحقيقية أن يصر عليه ولا يرجع عنه. ولهذا جعل الله الناس في هذا الباب قسمين: تائب يرجع إلى الله فيصلح قلبه ولسانه، أو ظالم يصر على أذى الناس.

ثم يقول عزّ من قائل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

فبعد أن نهى الله تعالى عن الأذى الظاهر في القول، انتقل القرآن إلى الأذى الباطن في القلوب فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾.

فالظن السيئ بداية كثير من الشرور؛ إذ يبدأ بخاطرة في القلب، ثم يتحول إلى كلام على اللسان، ثم ينتهي إلى خصومة وعداوة. ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾. فليس كل ظن محرمًا، لكن الظن الذي لا دليل عليه، أو الذي يسيء إلى المؤمنين، هو من الآثام التي تفسد القلوب.

ثم قال: ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا﴾.

فإذا استقر الظن السيئ في القلب دفع صاحبه إلى البحث عن العيوب، وتتبع الزلات، والتنقيب عن أسرار الناس. والقرآن يقطع هذا الطريق من بدايته؛ لأن المجتمع الذي يراقب فيه الناس عيوب بعضهم البعض يتحول إلى مجتمع ريبة وشك، تسوده القسوة وتغيب عنه الثقة.

ثم جاءت الذروة في هذا التحذير: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾.
فالغيبة من أكثر الذنوب انتشارًا، لأنها تبدو سهلة على اللسان، لكنها ثقيلة في الميزان. ولذلك ضرب القرآن لها مثلًا يهز القلب ويوقظ الضمير: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾.

إنه تصوير شديد القسوة، لكنه يكشف حقيقة الغيبة؛ فالمغتاب يمزق عرض أخيه في غيابه كما يمزق الجائع لحم الميت. ولهذا ختم المثل بقوله: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾، أي كما تنفر نفوسكم من هذا المشهد، فلتنفر كذلك من الغيبة.

ومع هذا التحذير الشديد لا يغلق القرآن باب الرحمة، بل يختم بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.
فالله يعلم ضعف الإنسان، لكنه يدعوه دائمًا إلى الرجوع والتطهر من هذه الآفات.

ثم يقول ﷻ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

ثم ترتقي السورة إلى أفق أوسع يتجاوز العلاقات الفردية إلى العلاقة بين البشر جميعًا، فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾.

إنها تذكير بالأصل الواحد الذي يجمع البشرية كلها. فكل الناس يعودون إلى أب واحد وأم واحدة، فلا معنى للتعالي بالعرق أو القبيلة أو اللون. فالاختلاف بين الشعوب والقبائل لم يُخلق ليكون سببًا للصراع، بل كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾.

فالتنوع في البشر هو وسيلة للتعارف والتكامل، لا للتفاخر والتنازع. ولذلك وضع القرآن الميزان الحقيقي للكرامة فقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فليست الكرامة في النسب، ولا في القوة، ولا في كثرة المال، بل في تقوى الله وطاعته. فالإنسان يعلو في ميزان السماء بقدر قربه من الله، لا بقدر ما يملك من أسباب الدنيا.

ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، أي أنه وحده يعلم حقيقة القلوب، ويعلم من يتقيه سرًا وعلانية. فكم من إنسان يراه الناس عظيمًا وهو عند الله صغير، وكم من عبد خفي لا يعرفه الناس لكنه عند الله من الكرام.

وهكذا تكشف هذه الآيات عن منهج قرآني متكامل لبناء المجتمع:

يبدأ بتطهير القلوب من الاستعلاء والسخرية،

ثم بحفظ الألسنة من الأذى والغيبة،

ثم بتنقية القلوب من الظنون والتجسس،

ثم بتقرير مبدأ المساواة الإنسانية تحت ميزان التقوى.

ولو استقرت هذه القيم في حياة المسلمين، لتحولت مجتمعاتهم إلى فضاء من الاحترام والرحمة، ولانطفأت كثير من أسباب التنازع والعداوة. فالأمم لا تنهار فقط بسبب أعدائها، بل كثيرًا ما تنهار بسبب الأمراض الأخلاقية التي تنخر قلوب أبنائها. وسورة الحجرات جاءت لتكون علاجًا ربانيًا لهذه الأمراض، وبناءً متينًا لأخلاق الأمة ووعيها.

ثم يقول عز وجل:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

تصل سورة الحجرات في ختامها إلى معالجة قضية دقيقة تتعلق بحقيقة الإيمان في القلوب، بعد أن أرست في الآيات السابقة قواعد الأخلاق الاجتماعية من التثبت، والإصلاح، واحترام الكرامة الإنسانية. وكأن السورة بعد أن نظمت سلوك المجتمع، تعود الآن لتفتش في صدق القلوب التي تحمل هذا السلوك.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

إن القرآن هنا يلفت النظر إلى الفرق العميق بين الإسلام الظاهر والإيمان الباطن. فالإسلام قد يكون دخولًا في الدين واستسلامًا لأحكامه الظاهرة، أما الإيمان فهو نور يستقر في القلب ويغير صاحبه من الداخل. ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

فليس كل من نطق بالشهادتين بلغ مقام الإيمان الكامل، لأن الإيمان الحقيقي لا يقف عند حدود القول، بل يتحول إلى يقين حيٍّ يملأ القلب، ويظهر أثره في السلوك والعمل. ولهذا لم يطردهم القرآن من دائرة الإسلام، بل أرشدهم إلى الصدق مع أنفسهم، فقال: قولوا أسلمنا، أي دخلنا في الإسلام، لكن الإيمان لم يكتمل بعد في قلوبنا.

وفي هذا درس تربوي عظيم؛ فالدين لا يريد من الإنسان أن يدّعي ما ليس فيه، بل أن يكون صادقًا مع نفسه في تقييم حاله مع الله عز وجل.

ومع هذا التنبيه، لا يغلق القرآن باب الرجاء، بل يفتح أمامهم طريق الارتقاء، فيقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾.

أي إن طريق الإيمان الحقيقي مفتوح أمامكم: الطاعة الصادقة. فمن سار في طريق الطاعة، زاده الله هدى، وأكمل له نور الإيمان في قلبه. والله لا يضيع عملًا صالحًا، بل يجازي عليه كامل الجزاء، لأنه سبحانه ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

يقول الله ﷻ بعد ذلك: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾
فيبين القرآن صفات المؤمنين الصادقين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.
فأول علامة من علامات الإيمان الحق هي اليقين. فالإيمان ليس شكًا ولا ترددًا، بل هو اطمئنان القلب إلى الحق، وثقة راسخة بوعد الله. فإذا استقر هذا اليقين في القلب، تحوّل إلى حركة وعمل، ولذلك قال بعدها:

﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فالإيمان الصادق لا يبقى فكرة ساكنة في القلب، بل يتحول إلى بذل وتضحية في سبيل الله. فالمؤمن يجاهد نفسه أولًا ليقيم دين الله في حياته، ثم يبذل ماله وجهده لنصرة الحق وخدمة الإسلام.

ولهذا ختم الوصف بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾.

فالصدق هنا ليس مجرد قول، بل هو تطابق القلب واللسان والعمل. فمن ادعى الإيمان ولم يظهر أثره في حياته، فقد ادعى دعوى تحتاج إلى برهان.

يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

ليأتي توبيخ قرآني بليغ لأولئك الذين يتحدثون عن إيمانهم وكأنهم يعرّفون الله بحالهم، فيقول تعالى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾

أي كيف يخبر الإنسان ربَّه بحقيقة إيمانه، والله هو العليم بكل شيء؟! إن الله يعلم خفايا القلوب قبل أن تنطق الألسنة، ويعلم السر وأخفى، ولذلك قال:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم يقول عز وجل:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ثم يكشف القرآن حالة نفسية أخرى قد تقع لبعض الناس، وهي المنّة بالطاعة، فيقول: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾.

فبعض الناس يظن أنه حين يدخل في الإسلام أو يعمل الطاعة فإنه يقدم فضلًا للنبي ﷺ أو للدين، وكأن الدين محتاج إليه. فيأتي الرد الحاسم: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾

فالدين لا يحتاج إلى أحد، وإنما الناس هم المحتاجون إلى الهداية. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾.

فالهداية أعظم نعمة يمنّ الله بها على عبده؛ لأن بها تتحقق سعادة الدنيا والآخرة. ومن أدرك هذه الحقيقة، امتلأ قلبه تواضعًا وشكرًا لله، بدل أن يمتلئ إعجابًا بنفسه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ثم تختم السورة بآية جامعة تذكر الإنسان برقابة الله الشاملة، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

إنها خاتمة توقظ القلب وتذكره بأن الله يعلم كل شيء: ما يظهر من الأعمال، وما يخفى في الضمائر. فلا يضيع عنده عمل صالح، ولا يخفى عليه ظلم أو رياء أو ادعاء.

في الختام،

إذا تأملنا سورة الحجرات كلها وجدنا أنها تبني منهجًا كاملًا لبناء الإنسان والمجتمع.

فهي تبدأ بتعليم الأمة كيف تتعامل مع القيادة النبوية بالاحترام والتوقير، ثم تعلمها منهج التثبت في الأخبار حتى لا تقع في الظلم والندم. وبعد ذلك تعالج أخطر ما يهدد المجتمع وهو الاقتتال الداخلي، فتأمر بالإصلاح والعدل.

ثم تنتقل إلى تطهير الأخلاق اليومية من السخرية واللمز والتنابز وسوء الظن والتجسس والغيبة، لأنها السموم الخفية التي تفسد القلوب وتزرع العداوة بين الناس. وبعد ذلك تقرر مبدأ المساواة الإنسانية، وأن التفاضل الحقيقي ليس بالنسب ولا بالقبيلة، بل بالتقوى.

وأخيرًا تختم السورة بتصحيح مفهوم الإيمان الصادق، مبينة أن الإيمان ليس دعوى باللسان، بل يقين في القلب يظهر أثره في الطاعة والجهاد والبذل.

وهكذا ترسم سورة الحجرات صورة المجتمع الذي يريده الإسلام:
مجتمع يحترم الحق، ويتثبت في الأخبار، ويطفئ الفتن، ويحفظ كرامة الناس، ويطهر القلوب من الأحقاد، ويقيم العدل بين الجميع، ويعيش أفراده بإيمان صادق يراقب الله في السر والعلن.

ولو أن هذه المعاني القرآنية عادت لتحكم حياة المسلمين اليوم، لتبدلت كثير من أحوالهم، ولانطفأت نيران كثيرة من الفتن والخصومات. فالأمة لا تحتاج فقط إلى القوة، بل تحتاج قبل ذلك إلى أخلاق القرآن التي تبني القلوب وتوحد الصفوف.

ولا شك أن خسائرنا في جانب منظومة الأخلاق مثخنة جدًا وهي تنعكس هدما على جهود الإصلاح ما لم تضبط على نور مدرسة القرآن العظيم. والمؤمنون حقا يستجيبون للنصح والمرتابون، يتخبطون في مستنقع ظلم للنفس. فيحرمون أنفسهم ويفسدون حولهم. ولعل أرجى ما يبقى للملتزم بأخلاق القرآن، في مثل هذا الواقع، أن الصادقين يجتمعون على أخلاق القرآن، والمتخلفون، يتخلفون بضعف إيمان وفتن حرمتهم النور، لما قدمته أيديهم من فجور!

لقد كانت سورة الحجرات بحق دستورًا ربانيًا للأخلاق الاجتماعية والإيمانية، يربي الأمة على السمو الأخلاقي، ويقودها إلى مجتمع تسوده الرحمة والعدل والتقوى تحت مراقبة الله الذي يعلم السر وأخفى.

قال رسول الله ﷺ: "ما مِن شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة مِن خلُق حسن، وإن الله يُبغض الفاحش البذيء" رواه أبو داود والترمذي، وقال حسن صحيح.

وقال ﷺ: "إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدَّقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون"؛ (رواه الترمذي وحسنه محقق جامع الأصول بشواهده).

(الثرثارون: المكثرون من الكلام تكلفًا) (المتشدقون: المتكلمون تفاصحًا وتعظيمًا لنطقهم).

اللهم زيّنا بأحسن الأخلاق التي تحب وترضى جل جلالك، وأعزّنا بالإسلام وأعز الإسلام بنا، واجمعنا برسول الله ﷺ، في مقامات الرضوان والقبول الأرجى، اللهم آمين.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

في زمن تشتد فيه غربة الدين، ووحشة يصنعها التخلف العقدي والخلقي المتفشي، وصور الظلم والبغي بغير حق بلا خشية ولا تردد، تجد النفس راحتها في خواتيم سورة الأعراف. تجمع شتات الأمر وتشد الأزر، وتثبت المعالم، وتنير المقاصد والطريق. فيا لعظمة البلاغ ويا لجلال الهدي!

يقول الله جل في علاه: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)

تتجلى في هذه الآيات حقيقة عظيمة من حقائق الإيمان، وهي حقيقة الولاية. فالمؤمن حين يعلن: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ إنما يعلن انتماءه الكامل إلى ربه، ويقرر أن الحماية الحقيقية والنصرة الصادقة ليست في قوة البشر ولا في تدبيرهم، وإنما في ولاية الله لعباده.

فالولاية رابطة عميقة بين العبد وربه؛ رابطة تقوم على الإيمان والطاعة والتوكل. فإذا تولى العبد ربه بالإيمان والصدق، تولاه الله بلطفه ورعايته، فصار في كنف عناية لا تضيع، وحفظ لا يخيب. ولذلك قرن الله ولايته بإنزال الكتاب، لأن هذا الكتاب هو

أعظم مظاهر رحمته وهدايته لعباده؛ فمن تمسك به دخل في دائرة الولاية الإلهية، ومن أعرض عنه خرج إلى ظلمات الضلال.

ثم تنتقل الآيات إلى كشف بطلان كل ولاية غير ولاية الله:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

فيا للعجب من حال الإنسان حين يترك القوي القادر ويلجأ إلى الضعيف العاجز! كيف يُرجى نصرٌ ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا؟ إن هذه الآية تقطع جذور التعلق بغير الله تعالى، وتعيد القلب إلى مركزه الصحيح: التوكل الكامل على الله وحده لا شريك له.

ثم يزيد القرآن هذا المعنى وضوحًا:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾

فهي جمادات لا تسمع دعاءً ولا تفقه خطابًا. بل قد تبدو للناظر وكأن لها حياة:

﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

وهذا تصوير بليغ لحال الباطل في كل زمان؛ فقد يلبس ثوب الحياة، ويظهر بمظهر القوة، لكنه في حقيقته جسد بلا روح، وصورة بلا حقيقة.

ولـذلك فـإن مـن احتمـى بالله واعتصـم بـه لا يضـره كيـد الأعـداء ولا تـدبيرهم، لأن الضعف ملازم للباطل مهما بدا قويًا. فلو اجتمع أهل الباطل مع آلهتهم المزعومة على أن يضروا عبدًا تولاه الله، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

إن قوة المؤمن ليست في عدده ولا في عدته، وإنما في صلة قلبه بربه.

ومن التأملات التي تقع في النفس في قوله تعالى:

﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

أنها قد تشير كذلك إلى حال المكذبين الذين كانوا يرون النبي ﷺ بأعينهم، لكنهم لم يبصروا حقيقته ولم يدركوا صدقه. فهم ينظرون إليه نظر العيون، لا نظر البصائر. وهنا يبين القرآن الفرق بين البصر والبصيرة؛ فكم من إنسان يرى الحق واضحًا أمامه، لكنه لا يبصره لأن قلبه محجوب.

وهكذا تجمع هذه الآيات بين معنيين عظيمين:

الأول: طمأنينة المؤمن بولاية الله له، وأن من تولاه الله فلا خوف عليه ولا حزن.

والثاني: بطلان التعلق بغير الله، وأن كل قوة مزعومة دون الله إنما هي ضعف مستتر مهما بدا ظاهرها.

ومن هنا يدرك المؤمن أن طريق النجاة هو أن يكون من الصالحين الذين وعدهم الله بالولاية، وأن يحرر قلبه من كل تعلق سوى التعلق بالله عز وجل، لأن القلب إذا امتلأ بمحبة الله وثقته، استغنى عن كل سند سواه، واطمأن إلى أن له ربًا يتولى أمره في السراء والضراء.

ثم تأتي آية عظيمة، يحتاجها كل مؤمن مجاهد داعية في سبيل الله عز وجل:
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

هذه الآية من أعظم آيات الأخلاق في القرآن، حتى قال بعض أهل العلم: إنها جمعت أصول حسن المعاملة مع الناس كلها في كلمات قليلة. فهي منهج رباني متكامل يضبط علاقة المؤمن بالناس في أحوالهم المختلفة.

يقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
فابتدأت الآية بالأمر بأخذ العفو، والعفو هنا ليس مجرد الصفح عن الخطأ، بل هو أوسع من ذلك. فالمقصود أن يأخذ الإنسان من الناس ما سهل وتيسر من أخلاقهم وأعمالهم، وألا يكلفهم ما لا تطيقه طبائعهم. فليس من الحكمة أن يطلب الإنسان من الناس الكمال، لأن طبائع البشر يعتريها النقص والتقصير. ولذلك فالمؤمن الحكيم يتعامل مع الناس بسعة صدر، فيقبل منهم ما استطاعوا، ويشكر لهم القليل قبل الكثير، ويتجاوز عن الزلات والهفوات.

وهذا يربي النفس على خلق عظيم، وهو ترك التشدد في مطالبة الناس بالكمال. فمن ضيق صدره بتتبع أخطاء الناس عاش في شقاء دائم، أما من أخذ العفو وسامح وتجاوز، فقد عاش في سعة وراحة. ولهذا كان هذا الخلق من أعظم أخلاق الأنبياء، لأن الدعوة إلى الله لا تقوم مع القسوة والتعنت، بل تقوم على الرحمة واللين.

ثم جاء الأمر الثاني: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾

والعرف هو كل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، من الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والأخلاق الكريمة. فالمؤمن لا يكتفي بسلامة نفسه، بل يحمل هم إصلاح المجتمع من حوله. فهو يدعو إلى الخير، ويحث على المعروف، ويعين الناس عليه.

وهذا المعروف يشمل كل وجوه الخير: تعليم العلم، والنصيحة الصادقة، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإصلاح بين الناس، وإعانة المحتاج، والدلالة على الخير، والأمر بالعدل، والنهي عن الظلم. فحياة المؤمن رسالة خير تمتد إلى من حوله، لأن قلبه امتلأ بمحبة الخير للناس.

لكن لما كان طريق الدعوة والإصلاح لا يخلو من أذى الجاهلين، جاءت الوصية الثالثة: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

والجاهل هنا ليس فقط من قل علمه، بل من غلب عليه السفه والطيش وسوء الأدب، وما أكثرهم بين عبيد الأهواء والرموز والمتعصبين للآراء والرجال. فمثل هذا لا يليق بالمؤمن أن ينزل إلى مستواه في الخصومة والجدال. ولذلك كان العلاج الذي يقدمه القرآن هو الإعراض؛ أي ترك مجادلة الجاهل والانشغال عنه.

وهذا الإعراض ليس ضعفًا ولا عجزًا، بل هو قوة نفس وحكمة. لأن الرد على كل كلمة جاهلة يستهلك طاقة القلب ويشغل الإنسان عن مقاصده الكبرى. أما الإعراض فهو حفاظ على كرامة النفس، وارتفاع عن مستوى السفه.

ولهذا كان من كمال هذا الخلق أن يقابل المؤمن الإساءة بالإحسان؛ فمن آذاه بقول أو فعل لا يقابله بمثله، ومن حرمه لا يحرمه، ومن قطعه يصله، ومن ظلمه يعدل معه. وهذه مرتبة عالية من الأخلاق لا يبلغها إلا من زكى الله قلبه وأصلح سريرته.

ولهذا يمكن أن يقال إن هذه الآية رسمت ثلاث قواعد عظيمة في معاملة الناس:

السماحة مع الخلق: في قوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾
الإصلاح والدعوة إلى الخير: في قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾
الحلم وترك مقابلة السفه بالسفه: في قوله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
فمن جمع هذه الثلاثة فقد جمع خلاصة حسن الخلق.

ومن لطائف ترتيب الآية أن الله بدأ بالعفو، لأن القلب إذا امتلأ بالعفو واللين أصبح مهيأً للأمر بالمعروف. ثم ختم بالإعراض عن الجاهلين، لأن من يدعو إلى الخير لا بد أن يلقى من الجاهلين أذى وسخرية، فلا بد له من سلاح الصبر والحلم.

ولهذا كانت هذه الآية منهجًا متكاملاً في الدعوة والحياة؛ تعامل باليسر، وانشر الخير، ولا تنشغل بجهل الجاهلين. فمن عمل بها عاش بين الناس كريم النفس، واسع الصدر، ثابت القلب، لا تؤذيه سفاهة السفهاء، ولا تصرفه عن الخير ضوضاء الجاهلين.

ثم تمضي الآيات في خواتيم سورة الأعراف لتكشف للمؤمن طريق السلامة في معركة خفية لا تنقطع، وهي معركة القلب مع الشيطان. فبعد أن قرر القرآن حقيقة الولاية الإلهية للصالحين، بيّن الوسيلة العملية لحفظ هذه الولاية وصيانتها من مكايد الشيطان.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
النَّزْغ هو التحريك الخفي، كأن الشيطان يلمس القلب لمسة خفية فيثير فيه وسوسة أو غضبًا أو شهوة أو تثبيطًا عن الخير. وهذه اللمسة قد تعترض المؤمن في أي لحظة؛ في حال غضب، أو جدال، أو غفلة، أو فتور. ولذلك جاء التعبير القرآني بصيغة الاحتمال المتكرر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، أي إن وقع منك شيء من ذلك في أي وقت.

لكن القرآن لا يترك المؤمن حائرًا أمام هذه الوساوس، بل يرشده إلى الدواء المباشر: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

أي التجئ إلى الله بقلبك ولسانك، واعتصم بحماه، فإن الشيطان لا يقوى على قلب احتمى بالله حق الاحتماء. فالقلب إذا اتصل بربه ضعف سلطان الشيطان عليه، لأن الشيطان إنما يتسلط على القلوب الغافلة البعيدة عن ذكر الله.

ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

سميع لندائك واستعاذتك، عليم بحالك وضعفك وصدق لجئك إليه، فيدفع عنك كيد الشيطان بلطفه ورحمته.

ثم يكشف القرآن علامة فارقة بين المتقين وأولياء الشيطان، فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

الطائف هو الوسوسة التي تمر بالقلب مرورًا عابرًا كطيف الليل. وهذه اللمسة قد تقع حتى من المؤمن التقي، لأن الإنسان بطبيعته يعتريه الغفلة أحيانًا. لكن الفارق العظيم أن المتقي لا يستسلم لهذا الطيف، بل سرعان ما يستيقظ قلبه بالتذكر.

يتذكر ربه، ويتذكر أوامره ونواهيه، ويتذكر عواقب الذنب، ويتذكر نعمة الله عليه، فتعود بصيرته التي كادت أن تغشى. ولذلك قال الله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

أي عاد إليهم نور البصيرة بعد لحظة الغفلة.

وهذا من أعجب ما يكون في حياة المؤمن؛ قد تزل قدمه لحظة، لكن ذكر الله يعيده سريعًا إلى الطريق. فإذا أخطأ استغفر، وإذا قصر بادر بالتوبة، وإذا غفل عاد إلى اليقظة. وهكذا تتحول الزلة عند المتقين إلى باب للرجوعِ إلى الله، فيخرجون منها أقوى إيمانًا وأشد يقظة.

ثم تقابل الآية هذا النموذج بنموذج آخر على النقيض تمامًا، فتقول:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾

فهؤلاء هم إخوان الشياطين؛ أي الذين ارتبطت قلوبهم بالباطل واطمأنت إلى المعصية. فإذا وقع أحدهم في ذنب لم يتذكر ولم يرجع، بل تمده الشياطين في الغي، ذنبًا بعد ذنب، وخطوة بعد خطوة، حتى يتدرج من صغيرة إلى أكبر منها.

فالشيطان لا يتعب من إغوائهم، وهم لا يتعبون من الاستجابة له؛ لأنه وجد فيهم قلوبًا مستسلمة، بلا مقاومة ولا يقظة. وهكذا يتحول الذنب عندهم إلى طريق متصل لا انقطاع فيه، لأنهم فقدوا تلك اللحظة الفارقة التي سماها القرآن التذكر.

ومن هنا يظهر الفرق الجوهري بين أهل التقوى وأهل الغواية:

المتقون قد تلمسهم وسوسة الشيطان، لكنهم يتذكرون فيبصرون.

أما الغافلون فتلمسهم الوسوسة، فيسترسلون معها حتى يمدوا في الغي بلا توقف.

وهكذا تكشف هذه الآيات قانونًا عظيمًا في تزكية النفس:
ليس الكمال في أن لا يخطئ الإنسان، ولكن الكمال في سرعة الرجوع إلى الله إذا أخطأ. فالقلب الحي قد يزل، لكنه لا يقيم على الزلة، لأنه يحمل في داخله نور التذكر الذي يعيده دائمًا إلى الطريق.

ومن تأمل هذا المقطع القرآني أدرك أن معركة المؤمن الحقيقية ليست مع الناس، بل مع الغفلة في قلبه. فإذا حافظ على ذكر الله واستعاذ به عند الوسوسة، بقي قلبه في دائرة الولاية التي وعد الله بها الصالحين.

ولهذا جاءت هذه الآيات كأنها ختام تربوي بديع:
ولاية الله للصالحين، ثم كشف ضعف الباطل، ثم بيان سلاح المؤمن في مواجهة الشيطان، ثم بيان الفرق بين قلب حي يتذكر فيبصر، وقلب غافل يُمد في الغي ولا يرجع.
فمن أراد النجاة فليحفظ قلبه بالتذكر، وليلوذ بربه عند كل نزغ، فإن من اعتصم بالله لا يضيع، ومن استجار به لا يُخذل.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

تكشف هذه الآية طبيعة نفسية المكذبين حين يواجهون الحق؛ فهم لا يقفون عند حدود التكذيب، بل يتجاوزونه إلى التعنت واقتراح الآيات. فإذا لم تأتهم آية على وفق أهوائهم قالوا للنبي ﷺ: هلا اخترعت آية من عندك؟!

وهذا يدل على جهلهم بحقيقة الرسالة، إذ توهموا أن الرسول ﷺ يملك إنزال الآيات أو اختراعها، بينما هو عبد متبع للوحي لا يملك من الأمر شيئا.

وفي هذا توجيه عظيم للدعاة إلى أن منهجهم ليس مجاراة الأهواء أو الاستجابة لمطالب المتعنتين، بل الثبات على الوحي والاحتكام إليه.

ثم يلفت الله الأنظار إلى أعظم آية باقية، وهي القرآن الكريم، الذي جعله الله بصائر تبصر القلوب بحقائق الإيمان، وهدى يخرج الناس من الضلال، ورحمة للمؤمنين الذين يفتحون قلوبهم لنوره. فالهداية ليست في كثرة الآيات الحسية، بل في صفاء القلب واستعداده لتلقي الحق.

ثم يقول ﷻ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

تؤسس هذه الآية أدبًا عظيمًا من آداب التعامل مع القرآن الكريم، إذ أمر الله بالجمع بين الاستماع والإنصات. فالإنصات هو كف الجوارح عن كل ما يشغل عن سماع القرآن، أما الاستماع فهو إلقاء السمع مع حضور القلب وتدبر المعاني.

وهذا يدل على أن الانتفاع بالقرآن لا يتحقق بمجرد سماع ألفاظه، بل يحتاج إلى قلب حاضر وعقل متفكر. ولذلك رتب الله تعالى على هذا الأدب العظيم نيل الرحمة، لأن القلب إذا أنصت للوحي وتدبره امتلأ نورا وهداية. ومن أعظم مواضع هذا الأدب الصلاة الجهرية، حيث يؤمر المأموم بالإنصات لقراءة الإمام، تعظيما لكلام الله وإجلالا له.

ويبقى هنا معنى يشدّني في هذه الآية الجليلة، وهو معنى الاستجابة، وما توجبه من فضائل للمؤمن. فكلما قويت الاستجابة عظمت الاستفادة، واستنار قلب المؤمن بفضائل الإيمان والقرآن. فمن أراد لنفسه قوة في الإيمان، قوة في العلم، قوة في العمل، فليقم نفسه على قوة الاستجابة لأمر الله عز وجل، فهي أرجى الوسائل نفعًا للقلب وثباتًا وحكمةً وبصيرةً وبركات! نسأل الله تعالى من فضله العظيم.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾

توجه هذه الآية إلى عبادة جليلة هي ذكر الله تعالى، وتبين أن الذكر الحقيقي يجمع بين حضور القلب وذكر اللسان. فقد أمر الله بذكره في النفس أي بإخلاص وخشوع، مع التضرع الذي يدل على الانكسار بين يدي الله تعالى، والخيفة التي تعبر عن خشية القلب من التقصير وعدم القبول.

كما أرشدت الآية إلى الاعتدال في الذكر، فلا يكون بصوت مرتفع يشوش، ولا بخفوت يذهب أثره، بل يكون وسطا بين ذلك.

وخصت الآية وقتي الغدو والآصال لأنهما وقتا انتقال في حياة الإنسان، فيحتاج فيهما إلى تجديد صلته بربه. ثم ختمت بالنهي عن الغفلة، لأن الغفلة عن ذكر الله سبب قسوة القلب وضياع الإنسان في دنياه وآخرته.

ليختم الله عز وجل سورة الأعراف الجليلة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾

تختم السورة بذكر حال الملائكة المقربين عند الله عز وجل، الذين لا يستكبرون عن عبادته، بل يداومون على تسبيحه والسجود له سبحانه وتعالى. وفي هذا تذكير للإنسان بأن عبادة الله ليست حاجة لله تعالى، بل هي حياة للعبد وسعادته.

فالملائكة مع علو منزلتهم وقربهم من الله لا يتكبرون عن العبادة، بل يلازمونها ليل نهار، مما يربي المؤمن على التواضع والخضوع لله عز وجل. وفي ذلك دعوة ضمنية للمؤمنين أن يقتدوا بهؤلاء الملائكة في دوام الطاعة والإخلاص، وأن يجعلوا حياتهم قائمة على عبادة الله وتسبيحه، حتى يحققوا الغاية التي خُلقوا من أجلها.

وكان ختام السورة، مقام سجود مهيب!

وهكذا في ختام هذه التدبرات لآيات سورة الأعراف يتجلى للمؤمن منهج متكامل في علاقته بربه، وبالوحي، وبالناس، وبنفسه. إذ تتجمع في هذه الآيات معالم الطريق للمؤمن:

اتباع الوحي، والتمسك بالقرآن، وملازمة الذكر والخشية، ومراعاة حسن الخلق والحكمة في التعامل مع الناس، والحذر من وساوس الشيطان، والاقتداء بالملائكة في التواضع والخضوع لله.

فمن استمسك بهذه المعالم استنار قلبه بالهداية، ونال رحمة الله في دنياه وآخرته، ومن أعرض عنها وقع في الضلال والغفلة، وفاته الخير، وحُرِم الارتقاء إلى أعلى مراتب الإيمان والعبودية الصادقة.

اللهم تولنا برحمتك وتأييدك ومعيتك ورضاك ومحبتك – جل جلالك –، وأنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت، اجعلنا من عبادك الصالحين المصلحين. اللهم آمين.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

سورة مُحَمَّد، سورة عظيمة، سُمِّيت باسم النبي ﷺ، وليس ذلك لمجرد التعريف به، فالأمة تعرف نبيها وتجلّه، ولكن ليبقى اسمه الشريف حاضرًا في سياق السورة التي تتحدث عن أعظم معركة يخوضها المؤمن في حياته: معركة الثبات على الحق وعدم الارتداد عنه. فالسورة ترسم طريق الإيمان في زمن الصراع، وتكشف مواقف الناس حين يُمتحنون بين الصدق والنفاق، وبين الثبات والتراجع.

واختيار اسم مُحَمَّد ﷺ عنوانًا للسورة يحمل دلالة عميقة؛ إذ هو القائد الذي تجسدت في حياته هذه المعاني كلها: الصبر في مواجهة الأذى، والثبات حين يضعف الناس، والصدق حين تتداخل المصالح والضغوط. والجهاد والقتال لإعلاء كلمة الحق! فكأن السورة تقول للمؤمنين: إن الطريق الذي تدعون إليه هو الطريق الذي سار فيه مُحَمَّد ﷺ، فمن أراد الثبات فليتأسَّ به.

إن اجتماع اسم سورة مُحَمَّد مع اسمها الآخر سورة القتال، ليس أمرًا عارضًا، بل هو من بديع الترابط في القرآن؛ فذكر اسم النبي ﷺ في هذه السورة يربط معانيها كلها

بشخصه ومنهجه. فهي تتحدث عن الصدق مع الله، وعن تمييز الصفوف، وعن الجهاد الذي يُظهر حقيقة الإيمان،

وكأن السورة تقول: إن الطريق الذي سلكه مُحَّد ﷺ هو طريق الإيمان الحق، طريق الثبات والبذل ونصرة الحق.

وقد جمع النبي ﷺ في شخصه بين كمال الرحمة وكمال القوة؛ فقد وصفه الصحابة بأنه الضحوك القتال: يملأ المجالس بشاشةً ورحمةً ولطفًا، فإذا انتهكت حرمات الله أو واجه الباطل، كان أشجع الناس وأثبتهم في ميدان القتال. وهكذا يتجسد في اسمي السورة معناها العميق: رحمة تقود القلوب، وقوة تحمي الحق، وهو المنهج الذي ربّى عليه النبي ﷺ أمته.

وحين نتدبر آيات سورة مُحَّد، نجدها تفضح حقيقة المنافقين الذين يثقل عليهم اتباع النبي ﷺ، وتبيّن كيف يقود غياب تدبر القرآن إلى الارتداد، والطاعة الظاهرية إلى التواطؤ الخفي مع أعداء الحق.

ومن هنا تتجلى الحكمة في أن القضية ليست مجرد معرفة الحق، بل الوفاء لرسالة مُحَّد ﷺ والثبات عليها حين تتكاثر الفتن وتشتد الضغوط.

فكلما تليت هذه السورة عاد اسم النبي ﷺ ليذكّر المؤمنين بأن طريق الإيمان اتباع صادق وجهاد في سبيل الله تعالى وثبات على المنهج الذي جاء به نبي الله تعالى. فيرتبط القلب بنور الوحي وبالطريق الذي خطّه مُحَمَّد ﷺ لأمته.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (مُحَمَّد: ٢٤)

توجه هذه الآية من سورة مُحَمَّد سؤالا يهزّ القلب:

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

إنه ليس سؤالًا عن الفهم اللغوي للنص، ولا عن مجرد التلاوة، بل عن التدبر؛ أي الوقوف مع المعاني، والنظر في العواقب، وربط الآيات بواقع النفس والحياة. وكأن القرآن يكشف حقيقة: إن الطريق إلى الهداية ليس غامضًا، والحق ليس مخفيًا، ولكن المشكلة الحقيقية في القلوب التي لا تفتح أبوابها للنور.

فالتدبر ليس مجرد عمل ذهني، بل هو انفتاح القلب على الوحي. فإذا تدبر العبد القرآن، وجد فيه بيان الخير والشر، وطريق النجاة وطريق الهلاك، وتعرّف إلى ربه بأسمائه وصفاته وإحسانه، فامتلأ قلبه إيمانًا ويقينًا. لكن حين تغلق القلوب أقفالها، يصبح القرآن كالنور أمام عين مغمضة؛ النور حاضر، لكن العين لا تستقبله.

ولهذا جاء التعبير القرآني بليغًا: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾، وكأن القلوب أبواب أُغلقت بإحكام، فلا يدخلها خير ولا يخرج منها صدق. وهذه الأقفال ليست شيئًا خارجيًا، بل هي تراكمات من الهوى، والذنوب، والإعراض المتكرر عن الحق، حتى يصل الإنسان إلى مرحلة لا يتأثر فيها بالموعظة ولا تحركه الآيات.

ثم تكشف الآية التالية نتيجة هذا الإغلاق: الارتداد بعد معرفة الحق فيقول عز من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾

فالمشكلة هنا ليست في الجهل، بل في رفض الحق بعد وضوحه. وهذا أخطر ما يمكن أن يصيب القلب؛ أن يرى الإنسان الهدى ثم يدير له ظهره. وهنا يتدخل الشيطان ليكمل مسار الانحراف، فيزين الباطل ويجعل الباطل يبدو خيارًا معقولًا. قال تعالى: ﴿الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾؛ أي زيّن لهم المعصية ومدّ لهم في الأمل، حتى يظنوا أن الطريق الذي يسلكونه لن تكون له عواقب.

لكن القرآن يكشف أيضًا الخطوة التي تقود إلى هذا السقوط؛ فهي لا تأتي فجأة، بل تبدأ بتنازل صغير في الولاء للحق. قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾

إنها كلمة تبدو في ظاهرها محدودة: في بعض الأمر. لكنها في حقيقتها فتح لباب الانحراف. فحين يقبل الإنسان أن يطيع الباطل في جزء من الطريق، فإنه يضعف صلته بالحق شيئًا فشيئًا، حتى ينتهي به الأمر إلى مفارقته.

وهنا تظهر سنة خطيرة من سنن الله في القلوب: أن التنازل عن الحق لا يبقى عند حدوده الأولى. فالذي يساوم على جزء من الحق قد يخسر الحق كله، لأن القلب إذا اعتاد المساومة فقد بوصلته. ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم إسرارهم﴾؛ فربما ظنوا أن هذه التفاهمات الخفية لن تُكشف، لكن الله يعلم خفايا القلوب ويظهرها حين يشاء.

ثم تنتقل الآيات فجأة إلى المشهد الأخير، حين تنكشف الحقيقة التي حاولوا تجاهلها:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

إنه تصوير مهيب للحظة الموت حين يواجه الإنسان نتائج اختياراته. فالذي أعرض عن الحق في حياته، واستدار عنه بظهره، يُقابل عند الموت بضرب الوجوه والأدبار؛ كأن الجزاء من جنس العمل، لأنهم هم الذين أدبروا عن الحق أولًا.

ثم تأتي الخلاصة التي تكشف أصل المشكلة كلها:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

فالقضية ليست مجرد خطأ في الاجتهاد، بل اختيار في الاتجاه. فهؤلاء لم يحبوا طريق رضوان الله، ولم تكن لهم رغبة في القرب منه، بل اتبعوا ما يثير سخطه. ومن هنا كانت النتيجة: ﴿فأحبط أعمالهم﴾.

إن إحباط العمل من أعظم الخسائر؛ لأن الإنسان قد يعمل أعمالًا كثيرة، لكن حين يفسد أصل الاتجاه في القلب تضيع تلك الأعمال كلها. فالأعمال في ميزان الله ليست مجرد أفعال ظاهرية، بل هي مرتبطة بصدق القلب واتجاهه.

وهكذا ترسم هذه الآيات مسار الانحراف خطوة خطوة:

يبدأ الأمر بإغلاق القلب عن تدبر القرآن، ثم يتحول إلى مساومة مع الباطل، ثم إلى اتباع ما يسخط الله، حتى يصل في النهاية إلى إحباط الأعمال والخسران المبين.

وفي المقابل يفهم المؤمن من هذه الآيات أن النجاة تبدأ من فتح القلب للقرآن؛ فمن تدبره بصدق، عرف طريق الله، وثبت عليه، وسلم من تلك الانحدارات الخفية التي قد تبدأ صغيرة لكنها تنتهي بخسارة عظيمة. فالتدبر ليس مجرد عبادة قلبية، بل هو صمام الأمان الذي يحفظ الإيمان ويمنع القلب من الانحراف. وأخذ الكتاب بقوة سبيل التأييد والمعية التي تمنع الانحراف بإذن الله تعالى.

وهنا أستحضر نصا جميلا لابن القيم رحمه الله يقول فيه:

"إن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملًا، وقبِل أوامره، وصدَّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه، ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوَّت حظًّا من التقوى، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هُداه، وكلما اهتدى زادت تقواه؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦)."

والبداية بتلاوة كتاب الله وتدبر آياته والاستجابة التي لا لجلجلة فيها لأمر الله عز وجل.

ثم تتواصل الآيات في رسم خريطة دقيقة لما يجري في القلوب، وكأن القرآن لا يكتفي بكشف ظاهر الأعمال، بل يغوص إلى العمق حيث تتشكل النيات والدوافع.

فبعد أن كشف الله حقيقة من أعرضوا عن التدبر، وبيّن كيف قادهم الشيطان خطوة بعد خطوة إلى الارتداد، يفتح القرآن نافذة أخرى على خفايا النفوس، فيقول:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾

إنه سؤال يحمل في طياته توبيخًا خطيرًا: هل ظنّ أصحاب القلوب المريضة أن ما يخفونه سيبقى مستورًا إلى الأبد؟

هل توهموا أن الأحقاد والعداوات الدفينة التي يضمرونها لدين الله ستظل حبيسة الصدور؟

إن مرض القلب يبدأ غالبًا صغيرًا: شبهة تُستقبل دون مقاومة، أو شهوة تُتبع دون توبة، أو حسد يختبئ خلف كلمات منمقة. أو كبر يعاند بلا خشية، لكن إن لم يُعالج هذا المرض بالتوبة والتدبر، يتحول شيئًا فشيئًا إلى ضغنٍ دفين وعداءٍ خفي للحق. وهنا يأتي التحذير الإلهي: إن الله لا يترك هذه الأضغان مدفونة إلى الأبد، بل سيُخرجها ويكشفها في الوقت الذي يريده.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾

أي أن الله قادر على أن يجعل علامات النفاق واضحة في وجوههم كما توسم العلامة على الدواب، لكن حكمته اقتضت أن تبقى الأمور في دائرة الاختبار؛ ليتميز الصادق من المدّعي بإرادته واختياره.

غير أن إخفاء النفاق لا يعني استحالة اكتشافه، فالله يقول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

فالألسنة مرايا القلوب. ومهما حاول الإنسان أن يزين كلامه، فإن فلتات لسانه تفضح ما في صدره.

فكلمة عابرة، أو نبرة ساخرة، أو تعبير يحمل احتقارًا للحق... كل ذلك يكشف ما تحاول القلوب المريضة إخفاءه.

ولهذا قال بعض أهل العلم: ما أسرّ أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

ثم ينتقل السياق إلى حقيقة كبرى في طريق الإيمان:

أن القلوب لا تُعرف حقيقتها بالادعاءات، بل بالامتحانات.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

فالدعوى سهلة، ولكن الثبات عند الابتلاء هو الذي يكشف معدن الإيمان.

إن الله يعلم كل شيء قبل وقوعه، ولكن هذا الابتلاء إنما هو ليظهر الإيمان في الواقع، فتتحول العقيدة من مجرد قول إلى تضحية وصبر وجهاد.

والجهاد هنا ليس القتال فحسب، بل هو كل موقف يضطر فيه المؤمن إلى دفع ثمن التمسك بالحق: الثمن من راحته، أو ماله، أو مكانته، أو حتى نفسه.

ومن المعاني الموجبة للخشية والوجل في هذا المقام، أن الجهاد نفسه ليس نهاية الامتحان، بل هو ميدان امتحانٍ آخر يكشف الله فيه صدق القلوب.

فليس كل من حمل سلاحًا كان مجاهدًا صادقًا، وليس كل من دخل ميدان القتال ثبت قلبه مخلصا لله تعالى. إنما يمتحن الله المجاهدين كما يمتحن غيرهم؛ فيظهر من يقاتل طلبًا لرضاه، ومن يقاتل لهوى أو عصبية أو طلب سمعة.

ولذلك قال: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي نظهر ما خفي في الصدور، فتتكشف السرائر في لحظات الشدة كما تنكشف المعادن في نار الامتحان.

فالجهاد في حقيقته ليس مجرد مواجهة للعدو، بل هو قبل ذلك امتحان للنفس والنية والصبر؛ فمن جاهد نفسه وهواه وثبت على أمر الله وإن أسخط الناس، كان من الصادقين، ومن تراجع أو قاتل لغير الله ظهر أمره ولو بعد حين مهما حمل من شعارات براقة.

ولذلك الله وحده يعلم من يجاهد في سبيله حقا، ولا يجوز تزكية كل مجاهد لمجرد أن حمل السلاح وانغمس في القتال، فالله أعلم بالنوايا والمقاصد!

فلا نزكي على الله أحدًا ونسأل الله الثبات لكل صادق. ونعوذ بالله من جهاد يغلب فيه الهوى الإخلاص، ويُرخص فيه البذل بالدماء لحظوظ الدنيا!

وهكذا تتحقق سنة الله في عباده: أن الإيمان لا يثبت بالدعوى، بل يُعرف حين توضع القلوب في ميدان البلاء والجهاد.

وفي هذه اللحظات يتبين الفرق بين قلب امتلأ باليقين، وقلب امتلأ بالتردد.

فالمؤمن يرى الابتلاء طريقًا إلى رفعة الدرجات، بينما يراه المنافق عبئًا يحاول الفرار منه. لذلك لابد أن ينكشف أو ينتهي إلى نهاية الظالمين! نعوذ بالله من قبح السريرة وسوء الخاتمة!

ثم تختم الآيات هذا المقطع بوعيد شديد لأولئك الذين جمعوا بين الكفر، وصد الناس عن الحق، ومعاندة الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾

فهؤلاء لم يكتفوا بالضلال لأنفسهم، بل تحولوا إلى حواجز تقف في طريق الهداية.

لم يضلوا فقط، بل عملوا على إضلال غيرهم.

وما أقبح أن يعرف المرء هدي النبي ﷺ ثم يعلن المخالفة له والحرب عليه أيًا كانت الوسائل والمبررات..!

لكن القرآن يقرر حقيقة كبرى: إن معاداتهم للحق لا تنقص من ملك الله شيئًا، ولا تعطل مسيرة هذا الدين. فالله غني عن عباده جميعًا، وإنما الخاسر الحقيقي هو من يقف في مواجهة الحق.

ولهذا كانت العقوبة مناسبة لعملهم: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾

أي أن كل ما ظنوه إنجازًا سينتهي إلى فراغ. كل جهد بذلوه في نصرة الباطل لن يثمر إلا الخيبة. وحتى الأعمال التي كانوا يرجون بها الثواب لن تُقبل؛ لأن أساسها – وهو الإيمان الصادق – مفقود.

ومن هنا تأتي الوصية الجامعة التي تعقب هذه المعاني في السورة:
التمسك بطاعة الله ورسوله، والحذر من كل ما قد يُبطل العمل أو يُفسده.
فالمؤمن لا يكتفي بالعمل، بل يخاف عليه من الضياع. يخاف من الرياء، ومن العجب، ومن الذنوب التي قد تحبط الأجر. لأنه يدرك أن أعظم الخسارة ليست في قلة العمل، بل في ضياع العمل بعد بذله.

وهكذا تتكامل هذه الآيات في بناء رسالة عميقة:
أن طريق الإيمان يبدأ بتدبر القرآن،
ثم يُحفظ بسلامة القلب من الأضغان،
ويُثبت بالصبر في الابتلاء والجهاد،
ويكتمل بالطاعة الصادقة لله ورسوله ﷺ.

فمن جمع هذه المعاني ثبت على طريق مُحَمَّد ﷺ حقًا،
ومن أهملها انحرف قلبه ولو كان ظاهره قريبًا من الحق.

وفي الختام، تكشف هذه الآيات من سورة محمد ﷺ حقيقة الطريق إلى الله، وتعرّي في الوقت نفسه أسباب الانحراف عنه. فالأمر لا يبدأ بكفرٍ صريح، ولا بنفاقٍ معلن، بل يبدأ غالبًا من لحظة إعراض عن تدبر القرآن، حين يغلق القلب بابه أمام نور الوحي، فتتسلل إليه الأهواء والشبهات شيئًا فشيئًا. ثم تتراكم تلك الأقفال حتى يصبح الحق واضحًا، لكن القلب لا يستجيب له.

ومن هنا يبدأ الانحدار، من مساومة خفية مع الباطل، وطاعة جزئية لأهل الضلال، ثم تتكشف الأضغان التي كانت مستترة في الصدور، حتى يفضحها الله تعالى في الكلمات والمواقف. وعندها تأتي سنة الله التي لا تتخلف: الابتلاء الذي يميز الصادق من المدّعي. ففي ميادين الصبر والجهاد تظهر حقيقة الإيمان، ويتبين من كان ثابتًا على طريق محمد ﷺ، ومن كان يسير خلفه ما دام الطريق سهلًا.

ثم يقرر القرآن الحقيقة الكبرى: أن معاداة هذا الدين لا تضر الله شيئًا، وإنما يرتد شرها على أصحابها. فكل جهد يُبذل في نصرة الباطل، وكل محاولة لصد الناس عن سبيل الله تعالى، مآلها إلى الخيبة، لأن الله عز وجل قد تكفّل بنصرة دينه، وجعل الخسران نصيب من يعاديه.

إن الرسالة التي تتركها هذه الآيات في قلب المؤمن واضحة جلية:

أن النجاة ليست في كثرة الأعمال وحدها، بل في سلامة القلب، وصدق الاتباع، وحفظ العمل من كل ما يبطله أو يفسده. فالمؤمن يخشى على عمله بعد أن يعمله، كما يخشى على قلبه قبل أن يعمل. وتلك حقيقة الوجل! وتلك حقيقة الإيمان!

فليكن القرآن إذن باب القلب المفتوح، وليكن تدبره زاد الطريق، حتى يبقى القلب حيًّا بنور الوحي، ثابتًا على منهج مُحَمَّد ﷺ، لا تفتنه الفتن، ولا تزلزله الضغوط، حتى يلقى الله بقلبٍ سليم وعملٍ مقبول في السلم كما في الحرب والقتال!

اللهم اجعلنا ممن آمن بك حقا، وجاهد في سبيلك صدقا، وثبت على منهج نبيك مُحَمَّد ﷺ إلى آخر رمق، محبةً ورجاءً وخشيةً.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾

في هدي سورة الإسراء خريطة ربانية لبناء الإنسان الرباني الذي يحمل الحق في نفسه وفي العالم من حوله. تبدأ بتنظيم علاقة العبد بربه عبر الصلاة، وتنتقل إلى تزكية الروح بقيام الليل، ثم إلى تصحيح المسار بالدعاء والصدق في المداخل والمخارج، ثم إلى إعلان الصراع بين الحق والباطل، وتختم ببيان مصدر الشفاء والرحمة: القرآن العظيم.

وكأن الآيات ترسم منهجاً متكاملاً لصناعة الإنسان المؤمن: بعبادة تضبط الوقت، وقيام يزكي القلب، ودعاء يصحح الاتجاه، ويقين بالحق يبدد الباطل، واعتصام بالقرآن العظيم يشفي القلوب.

فمن أراد الثبات في زمن الفتن، ومن أراد أن يكون من أهل الحق في عالم يموج بالباطل، فهذه الآيات تقدم له الأسس التي لا غنى عنها.

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (الإسراء: ٧٨)

أول ما يُبنى عليه صلاح الإنسان هو الصلاة؛ فهي التي تربط القلب بالله تعالى في حركة الزمن كله. فالنهار يبدأ بصلاة وينتهي بصلاة، وبينهما صلوات متتابعة، وكأن حياة المؤمن كلها محروسة بالوقوف بين يدي الله عز وجل.

وهذا يدل على أن من ضيع الصلاة ضيّع ميزان حياته، ومن أقامها أقام بنيان دينه كله.

ثم يخص الله صلاة الفجر بقوله:

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

إنها الصلاة التي يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار، وكأنها لحظة اجتماع السماء بالأرض. وفي هذا إشارة إلى أن من أراد نور القلب وقوة الإيمان فليحافظ على فجره؛ لأن بداية اليوم مع القرآن هي بداية يوم مبارك.

ثم تنتقل الآيات إلى مرتبة أعلى من العبودية:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾

فإذا كانت الصلوات الخمس تبني أساس الإيمان، فإن قيام الليل يبني علو الإيمان.

فالناس ينامون، وأهل القرب يقومون.

وهكذا حين يسكن الضجيج، تناجي القلوب الصادقة ربها، لتصبح هذه العبادة الجليلة المهيبة، مصدر قوتها كله، ومصدر الهداية والتوفيق والمعية والفتوحات الأرجى،

ولذلك موجبات وفضائل يعيى القلم بوصف عظمتها، فقيام الليل شرف المؤمن ويا له من شرف!

ولهذا كان قيام الليل طريقاً إلى أعظم مقام في الآخرة:

﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

فمن أراد المقامات العالية عند الله عز وجل فعليه بالخلوة مع الله تعالى في الليل؛ فالمقامات العظيمة لا تُنال إلا بالعبادات العظيمة.

ثم يعلم الله نبيه دعاءً عظيماً جامعاً:

﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾

إنها دعوة لأن تكون حياة المؤمن كلها صدقاً: صدق في النية، وصدق في العمل، وصدق في الطريق.

فالإنسان قد يدخل أموراً كثيرة في حياته، ويخرج من مواقف عديدة، لكن العبرة أن تكون كل مداخله ومخارجه في طاعة الله عز وجل.

ثم يأتي الطلب الأعظم:

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾

فالحق لا يكفي أن يُعرف، بل يحتاج إلى قوة تنصره. وسلطان الله يشمل الحجة والبرهان، ويشمل كذلك التمكين والنصر.

فالعبد الصادق يجمع بين أمرين: وضوح الحق، وقوة الثبات عليه.

ثم يأتي الإعلان العظيم الذي يلخص معركة التاريخ كله:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾

فالحق حين يأتي بقوته ونوره لا يستطيع الباطل أن يقف أمامه. قد يبدو الباطل قوياً في بعض الأزمنة، وقد يعلو صوته ويكثر أتباعه، لكن حقيقته أنه هش ضعيف.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

أي سريع الزوال بطبيعته. وإنما يعيش الباطل عندما يغيب الحق أو يضعف أهله.

فإذا ظهر الحق بوضوحه وقوته، فإن الباطل يتلاشى كما يتلاشى الظلام عند طلوع الشمس.

ثم تختم الآيات ببيان المصدر الحقيقي للقوة والهداية:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

فالقرآن ليس كتاب معلومات فقط، بل هو دواء القلوب. يشفي القلوب من الشبهات، ويطهرها من الشهوات، ويقيم فيها نور اليقين.

فهو شفاء من: الجهل والشك والانحراف والقلق والضياع وكل مرض وضعف.

لكن هذا الشفاء ليس لكل أحد؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

فالقرآن نفسه قد يكون هداية للبعض، وحجة على البعض الآخر. فالفرق ليس في القرآن، بل في القلوب التي تستقبله.

هذه الآيات ترسم طريق القوة الإيمانية الحقيقية: بصلاة تضبط الحياة. وقيام ليل يزكي القلب. وصدق في المسير إلى الله ويقين بأن الحق غالب لا محالة واعتصام بالقرآن الذي يشفي القلوب.

فمن جمع هذه المعاني، أصبح من أهل الحق الذين يبددون ظلمات الباطل بنور الإيمان. ويذهلك في هذا الترابط، جوهر العبودية الذي يبقى حاضرا في عمق المعاني، فسبحان ربي العظيم.

وبعد أن بينت الآيات السابقة طريق الهداية: (الصلاة، وقيام الليل، والصدق في المسير، واليقين بانتصار الحق، والاعتصام بالقرآن)؛ تنتقل الآيات إلى كشف حقيقة الإنسان، وبيان أسباب الضلال، والتحذير من ضياع أعظم نعمة وهي الوحي.

فكأنها تقول: إن الهداية ليست مجرد معرفة الطريق، بل تحتاج إلى قلب مستقيم يحسن التعامل مع النعم والابتلاءات، ويعرف قدر الوحي الذي بين يديه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾

وهذه من أخطر طبائع الإنسان إذا تُرك لنفسه: أنه إذا وسّع الله عليه، وأغدق عليه النعم، نسي المنعم. بدل أن يقوده الإحسان إلى الشكر، يقوده إلى الغفلة.

فيعرض عن ربه، ويتكبر، ويبتعد بقلبه، وكأن النعمة صارت سبباً في الاستغناء عن الله عز وجل.

وهذه آفة خطيرة في حياة البشر: فكثير من الناس تصلحهم الشدة أكثر مما تصلحهم النعمة، لأن الشدة تكسر القلب، أما النعمة فقد تورث الغرور.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

فإذا انقلبت الأحوال، وجاء المرض أو الفقر أو الضيق، تحول الإنسان من الغفلة إلى القنوط واليأس. فهو في النعمة متكبر، وفي البلاء يائس.

وهذا دليل على خلل عظيم في الإيمان؛ لأن المؤمن الصادق يكون في النعمة شاكرًا خاضعًا وفي البلاء صابرًا راجيًا.

أما من لم يعرف ربه حق المعرفة فإنه يتقلب بين الغفلة واليأس. ولا يليق هذا بالمؤمن أبدًا.

ثم يقرر القرآن قاعدة عظيمة وعادلة في فهم الناس:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾

أي أن كل إنسان يعمل بحسب ما في داخله من طبيعة وقلب واتجاه. فالأعمال ليست حركات عشوائية، بل هي ترجمة لما في القلب.

فصاحب القلب الصالح لا ينسجم إلا مع الطاعة. وصاحب القلب الفاسد لا يطمئن إلا إلى المعصية.

ولهذا فإن إصلاح السلوك لا يبدأ من الظاهر فقط، بل من إصلاح القلب الذي يوجه السلوك.

ثم ختم الآية بقوله:

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

فالله يعلم القلوب، ويعلم من يستحق الهداية فيوفقه، ومن يعرض عنها فيخذله.

فالإنسان قد يخدع الناس بظاهره، لكنه لا يستطيع أن يخدع الله عز وجل.

ولذلك دائما لننتبه إلى حقيقة أن زكاء القلب أهم من ذكاء العقل وقبله، فزكاء القلب سبيل الخير وذكاء العقل بلا زكاء قلب، فساد قلب ومسلك.

ثم تأتي آية تعلم الإنسان التواضع أمام علم الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾

فالروح سر من أسرار الله عز وجل، يعجز العقل البشري عن إدراك حقيقته.

ولهذا جاء الجواب الحاسم:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

أي أنها من عالم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهذا بحد ذاته مقام انكسار لعظمة الله تعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وهذه الآية تربي في الإنسان التواضع العلمي. فمهما بلغ العلم البشري من تقدم، فإنه يبقى قطرة صغيرة في بحر علم الله ﷻ.

ولهذا فإن أعظم الجهل هو أن يظن الإنسان أن عقله قادر على إدراك كل شيء أو أنه بلغ مبلغ العلم والفهم!

ثم تنتقل الآيات إلى تحذير عظيم:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

أي أن القرآن الذي بين أيديكم ليس شيئاً مضمون البقاء إن لم يُقدَّر قدره. فهو نعمة عظيمة من الله، ولو شاء الله لرفعه من الأرض.

وهذا المعنى يهز القلب؛ لأن كثيراً من الناس يتعامل مع القرآن وكأنه شيء مألوف عادي، مع أنه أعظم هدية أنزلت على البشرية.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾

أي لا أحد يستطيع أن يعيد هذه النعمة إذا رفعها الله تعالى. فالوحي فضل إلهي خالص، وليس حقاً مكتسباً للبشر.

ثم يختم الله تعالى هذه المعاني بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾

أي أن بقاء القرآن بين الناس إنما هو رحمة عظيمة من الله عز وجل.

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

فالقرآن هو أعظم فضل أنعم الله به على نبيه ﷺ وعلى أمته. به عرفت البشرية طريقها، وبه خرجت من الظلمات إلى النور.

لكن العجيب أن بعض الناس تعرض عليه أعظم نعمة في الوجود فيرفضها أو يزدريها ويزهد فيها. ليس لأن الحق ضعيف، بل لأن القلوب إذا خذلتها طواياها، لم تعد ترى النور نوراً وتتمسك بظلامها وضلالها والعياذ بالله.

وهذه الآيات تكشف حقائق عميقة في حياة الإنسان:

أن الإنسان إن لم يهده الله يتقلب بين الغفلة واليأس. وأن الأعمال تعكس حقيقة القلوب. وأن علم البشر محدود مهما اتسع. وأن القرآن أعظم نعمة في حياة الإنسان. وأن بقاء الوحي بين الناس رحمة عظيمة من الله تعالى.

فمن عرف قدر هذه النعمة، وأقبل على القرآن بقلب صادق، شفاه الله به، وهداه إلى صراط مستقيم. فطوبى لمن قدّر الله حق قدره عز وجل!

وهكذا بعد أن قادتنا الآيات السابقة في رحلة مهيبة: من الصلاة التي تبني علاقة العبد بربه، إلى قيام الليل الذي يزكي القلب، إلى صدق المسير في الحياة، إلى اليقين بزوال الباطل، ثم إلى القرآن الذي هو شفاء ورحمة، وكشفت لنا كذلك طبيعة الإنسان بين النعمة والابتلاء، وحدود العلم البشري، وعظمة نعمة الوحي.

تأتي هذه الآيات الأخيرة لتضع الخاتمة العظمى لكل هذه المعاني: عظمة القرآن الذي هو محور الهداية كلها.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾

إنها آية التحدي الكبرى في التاريخ. ليس التحدي موجهاً إلى قبيلة أو أمة، بل إلى الإنس والجن جميعاً، بكل عقولهم وعلومهم وبلاغتهم.

ولو اجتمعوا جميعاً، وتعاونوا، وبذلوا أقصى ما لديهم من قدرة، فإنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وليس ذلك لأنهم لم يحاولوا، بل لأن الفارق بين كلام الخالق وكلام المخلوق فارق لا يمكن تجاوزه.

فالقرآن ليس مجرد نص بليغ، بل هو كتاب يجمع: كمال العلم والبيان وعمق الهداية ودقة التشريع وقوة التأثير في القلوب وإحاطة المعاني التي تعجز العقول عن الإتيان بمثلها.

ولهذا فإن عجز البشر عن معارضته لم يكن عجزاً عابراً، بل هو عجز مستمر عبر القرون.

ومهما تقدم العلم وتوسعت المعرفة، يزداد وضوح هذه الحقيقة: أن هذا الكتاب ليس كلام بشر ولا يمكن لبشر ولا جن أن يأتوا بمثله.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾

أي أن الله قد نوع في القرآن طرق الهداية: مرة بالقصص ومرة بالأمثال ومرة بالمواعظ ومرة بالحجج والبراهين حتى لا يبقى للإنسان عذر.

فالقرآن يخاطب: العقل بالحجة والقلب بالموعظة والروح بالنور والحياة بالتشريع.

ومع هذا البيان كله يقول الله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

وهنا تظهر المأساة الكبرى في تاريخ الإنسان. فالمشكلة ليست في وضوح الحق، بل في إعراض القلوب عنه.

فالناس لا يرفضون الحق دائماً لأنه غير واضح، بل لأنهم لا يريدون اتباعه.

ولهذا فإن الهداية ليست مجرد معرفة، بل هي توفيق من الله تعالى واستجابة قبول في القلوب.

إذا تأملنا هذه الآيات وجدنا أنها ترسم منهجاً كاملاً لبناء الإنسان المؤمن. فمن أراد الهداية فبابها مفتوح، وطريقها واضح، ونورها بين يديه.

لكن الهداية ليست لمن يرى الطريق فقط، بل لمن يسلكه بقلب خاشع ونفس صادقة. وهكذا يبقى القرآن عبر العصور نوراً يهدي الله به من يشاء من عباده، بينما يبقى الباطل – مهما بدا قوياً – هشاً زائلاً أمام نور الحق.

فالسعيد من جعل هذا الكتاب قائد حياته، وشفاء قلبه، ونور طريقه. ولعل البداية المهيبة تكون من المحافظة على الصلاة بخشوع، والمحافظة على قيام الليل برجاء فضل الله تعالى، وبالرباط على القرآن طلبا للهداية والنصر والرضوان.

فاللهم اجعلنا من أهل القرآن وخاصة الله، اللهم اجعنا ممن أخذ الكتاب بقوة لا تعرف الانهزام..!

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

في قلب القرآن الكريم تنبض سورة عظيمة، هيبة وعزة، سورة لا تشبه غيرها، سورة جاءت لتكشف الحقائق، وتفضح النفوس، وتحدد مسار المؤمن والمنافق، وتعلن صراحة موقف الله سبحانه وتعالى من عباده، ومن المشركين، ومن كل من عارض دعوة الحق. إنها سورة التوبة، أو براءة، السورة التي لم تبدأ بالبسملة، لتؤكد منذ البداية على الصراحة والقطع، وعلى إعلان البراءة من كل ما يعارض الحق.

سورة التوبة هي مرآة للإيمان، ومقياس للطاعة والصدق، وفصل واضح بين الحق والباطل، بين الخوف من الله والرغبة في الهوى، بين المخلصين والمنافقين. إنها السورة التي جمعت في طياتها مقاصد الإسلام الكبرى: التوحيد، حسن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نصرة الحق، إقامة العدل، بيان حقوق الأمة، وتنظيم الحياة الفردية والجماعية.

من أول كلمة فيها "براءة" إلى آخر آية، ترى فيها توجيه الله لعباده، وتحذيره من الغفلة، وتذكيره بالجزاء، وتحفيزه على العمل الصالح، والجهاد في سبيله، والإخلاص في القول والفعل والاستعداد المهيب لحمل رسالة الدين وأمانة نصرة الحق. هي سورة جاءت لتكون نبراسًا للمجتمع المؤمن، وجدارًا حصينًا ضد الكفر والنفاق، ومرشدًا

لكل من يريد أن يعرف قدر الحق وفضل الصدق والتقوى في حياته. سورة تنبض عزة مع كل آية فيها، كيف لا وهي الفاضحة للمنافين والمغيظة للكافرين.

عندما نغوص في آياتها، نكتشف حكمة الله في بيان الحقائق كما هي، وبغض للكذب والخداع، ورفع مكانة من ساروا على نهج رسول الله ﷺ، وحثها على التوكل والثبات، والتمسك بالعلم والعمل، والتفريق بين من يستحق الثواب ومن يستحق العقاب.

إن هذه السورة، بأسمائها المتعددة: براءة، التوبة، الفاضحة، العذاب، المنقرة، والمشددة، ليست مجرد آيات تُقرأ على سبيل كسب الحسنات فحسب، بل هي رسوخ عقيدة ومنهج، وخريطة حياة لكل مؤمن يسعى إلى رضوان الله عز وجل، ودليل عملي على أن الإيمان الحق لا يكون إلا بالصدق، والإخلاص، والامتثال لأوامر الله ورسوله ﷺ والجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله عز وجل.

ولنا هاهنا وقفة مع خواتيمها المهيبة!

يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

يا قلب المؤمن، اسمع هذه النداء: تقوى الله ليست شعورًا لحظيًا، بل حرص دائم على البعد عن المحرمات، والاقتراب من الطاعات، والصدق في الأقوال والأفعال. والصدق هنا ليس مجرد الكلام، بل هو الصفاء في السر والعلن، والنقاء في النية، والوفاء للعهد مع الله ومع الناس.

المؤمن مع الصادقين، قلبه مستقيم، عمله خالص، حياته مثالٌ للبرّ، والبر يهدي إلى الجنة. في هذه الآية، هناك وعد للمخلصين بأن صبرهم وصدقهم لا يضيعان، فلتكن حياتك كلها صدقًا مع الله ومع نفسك ومع الآخرين. ثم لاقترانها بمقام الجهاد المهيب، وكأن الآية تذكرنا أن السير في مضمار الجهاد يتطلب صدقا عظيما، وتقوى الله عز وجل، وكل ذلك له فضائله ومعية الله التي تحفه، وهو عبادة يعيشها الفرد كما الجماعة، المقياس فيها ليس الجهاد كشعار، بل الجهاد بروح الصدق والتقوى، ومن حرم نفسه خسر!

ثم تأتي الآية الجليلة لتخبرنا عن فضل الجهاد والاخلاص في سبيل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠).

تأمل: المؤمنون مدعوون لأن يقدموا أنفسهم في نصرة الحق، دون أن يضعوا راحتهم أو أهواءهم فوق واجبهم تجاه الله ورسوله ﷺ.

كل تعب، كل جهد، كل خطوة في سبيل الله تُكتب عملًا صالحًا لا يضيع أجره أبدًا. فالمشقة تصبح سعادة، والكدح يصبح رفعة، وكل نية خالصة تتحول إلى نور يضيء الطريق للآخرين. حتى إغاظة الكافرين عبادة، حتى النيل منهم عبادة، بغض النظر عن حجم الإغاظة والنيل! فسبحان الله كيف يصنع العزة في النفوس! فكيف لأمة بهذا الهدي أن يذلها أعداؤها! إلا أن تكون فرّطت في هدي القرآن العظيم، والجهاد في سبيل رب العالمين!

والآية التالية تؤكد: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢١).

تخيل أن كل خطوة، كل إنفاق، كل مجهود، مهما صغر أو كبر، ملاحقٌ بأجر عظيم من الله عز وجل. لا حاجة للشعور بالضياع أو التعب، لأن كل عمل خالص لله سيجد جزاءه، وكل أثر من أثر الخير سيعود إليك أضعافًا مضاعفة. بأحسن ما يكون! والأهم في كل ذلك الإخلاص وحسن الاتباع.

ثم يذكر الله حكمة عظيمة:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

تأمل معي: ليس كل المؤمنين مطالبين بالخروج للقتال، فهناك من يُخصّص للعلم ونشره. والعلم الشرعي هو سلاح لا يُرى بالعين، لكنه يبني الأمة ويصون الدين ويهدي القلوب، ويحصن النفوس من دعوات الإرجاف والتخذيل والضلالة والانحراف عن سبيل المؤمنين التي قد تكون سلاحا أيضا في يد أعداء الدين.

ومن تعلم فقه الدين ووعاه، ثم نشره بحكمة وصدق ابتغاء مرضاة الله لا حظ نفسه، فقد ساهم في جهاد الأمة وصيانتها وتعزيز قوتها، وأرشد الناس لعبادة الله الحق، ونشر ميراث النبوة دون خيانة أو إهمال.

وهكذا تجمع هذه الآيات المعدودة من خواتيم سورة التوبة حقيقة الإيمان كحياة كاملة: بالتقوى والصدق، والجهاد والصبر، والعلم وحب الخير والهداية للناس.

وما الصدق إلا أن تقبل كما أنت، لا داعي للخجل، فالله يعرفك كما أنت، لكن صدق إقبالك هو الذي يصنع الفارق.

كل آية تنادينا: اجعل قلبك صادقًا، عملك خالصًا، جهادك في سبيل الحق، وعلمك نافعة للناس. فلا تقتصر الطاعة على الشعارات، بل اجعلها سلوكًا مستمرًا، حياةً مترابطة بين قلبك وعملك ومجتمعك، وبين الدنيا والآخرة.

ثم يقول الله عز وجل:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣)

يا قلب المؤمن، هذه الآية تُعلمنا أن الثبات والشدة في الحق واجب، وأن لا خوف في الدفاع عن الدين، لا خوف من الأعداء إذا كانت النية صادقة. الغلظة هنا صلابة في الموقف، وشجاعة في مواجهة الباطل وإقدام يحدوه اليقين الكامل. وعليك أن تعلم أن كل قوتك مستندة على تقوى الله، فكل خطوة محسوبة في سبيل الحق، والله معك دائمًا.

وتأتي الآية العظيمة:
﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤)

تأمل يا مؤمن، كيف أن المؤمن يفرح ويستبشر بالآيات، كيف أن فهمها والعمل بها يزيد القلب نورًا وطمأنينة. والإيمان ينمو بشكل مستمر بالعلم والعمل، والفرحة بالحق تزيد من قوة العزيمة وتصفو النفوس. ولذلك يزداد المؤمنون إيمانا بازدياد إقبالهم على القرآن والاستجابة لأمر الله عز وجل. وذلك بحد ذاته منحة ربانية جليلة تستوجب الحمد والشكر والتواصي!

لكن هذا الجمال والبهاء ليس حال كل الناس! يقول عز وجل:
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٥)

فأما من قسا قلبه، ومن حمل شكًّا أو نفاقًا، فكل آية تزداد عليه حزنًا وبلاءً. فالقلب المريض يزداد مرضًا إذا أعرض عن الحق وأبى التوبة.
هذه الآية تنبه المؤمن إلى أن يراقب قلبه دائمًا، ولا يدعه يفسد بالكسل أو الشك، فإن تجاهله يؤدي إلى الهلاك.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٦)

فالله يبتلي الناس ليعلمهم، ليرجعوا إليه، ليثبتهم، لكن من يصرّ على ضلاله، يفوته الدرس. والمؤمن الحقيقي يتفقد إيمانه باستمرار، ويعيد ترتيب قلبه، ويزداد طاعة وحرصًا على الخير. لأن الابتلاء فرصة، والفهم هو ما يميّز المؤمن عن غيره. لكن المنافقين يفشلون في امتحانات الصدق هذه! فلا يتوبون ولا يذّكرون .. لا يرجعون لله ولا يتعظون!

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ١٢٧)

فالمنافقون يخافون الحق، ويتسللون ليتفلتوا، فيزداد قلبهم بعدًا عن الله وضياعًا.
أما المؤمن، فإن نزول الآيات يجب أن يكون فرصة للاطمئنان، لتقوية الإيمان، وللتحرك بفعل الخير وحمل أمانة دين الله تعالى، بيقين وشجاعة، بلا خوف أو تردد.

هذه الآيات كلها تنقل القلب من الانكسار إلى الثبات، من الشك إلى اليقين، ومن الخوف إلى الإقبال على الله عز وجل. إنها تعلمنا أن الثبات على الحق يحتاج تقوى وصبرًا، وأن زيادة الإيمان تأتي بالعمل والفرح بالقرآن، وأن القلوب المرضية تفسد بلا اجتهاد وتوبة.

كل آية هي دعوة للارتقاء، وللصعود في سلم الإيمان، لتكون حياتنا ملأى بالصدق، والثبات، والخوف من الله تعالى، والرجاء فيه ﷻ.

ثم تأتي آيات يهتز القلب لها شوقا وحنينا، لسيد الخلق أجمعين:
يقول الله ﷻ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

تأمل قلبك، يا مؤمن، في هذه الآية: نبيك من نفسك، يعرف حالك، ويتألم لما تتألم له. كم هو عظيم هذا الحب النقي الذي يجعل الرسول ﷺ يحرص على هدايتك، ويستبقيك من الشر، ويحب لك الخير قبل نفسه. إنه رؤوف رحيم بالمؤمنين، أرحم بهم من والديهم، وأشدهم حرصًا على سعادتهم في الدنيا والآخرة.

من هذه الحقيقة نعي أن حب النبي ﷺ وطاعته حق واجب على كل قلب مؤمن، وأن السير على نهجه طريق للنجاة والطمأنينة وحسن الخواتيم.

وتأتي المواساة كلها، والتوصية الأرجى هنا: حيث قال الله عز وجل:
﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩)

فعندما يصر البعض ولو كثروا، على الإعراض والعناد، تظل دعوتك صافية، لا تتزعزع، لأنك تعلم أن الله كافٍ لك وحده. فيتردد في قلبك: "حسبي الله"، أي: الله يكفيني في كل ما يقلقني ويهمني، واثق أنت من أن لا إله إلا هو، وأنه الحامي والمعين لكل من ابتغى الحق بصدق.

والتوكل هنا طمأنينة واستسلام كامل لحكمة الله وقدرته، التي تشمل كل شيء، من أعظم المخلوقات إلى أدق التفاصيل في حياتك.

إن هذه الآيات تجمع بين حب النبي ﷺ والحرص على المؤمنين، وبين الثقة المطلقة بالله والتوكل عليه في مواجهة حقائق القلوب المفجعة. فالمؤمن يتعلم منها أن:

يكون قلبه مع النبي ﷺ، مستنيرًا برؤياه ونصحه، شاكرًا لرحمته وحرصه عليه.
لا يلتفت إلى العناد أو النفور من الآخرين، بل يمضي في سبيل الحق بثبات وصبر وجهاد.

يضع ثقته في الله وحده، ويعلم أن من أعظم المخلوقات إلى أصغرها تحت قدرة الله عز وجل، وأنه كافٍ لكل همومه، وموفر لكل حاجاته، وناصره في كل معركة على الحق.
هذه هي الرسالة وهذه هي الطريق، فماذا بقي بعد ذلك من عذر للقاعدين!

هكذا، تجمع هذه الآيات بين الحنان والرحمة، والحزم والثقة، والعمل الصادق والثبات على الطريق المستقيم، لتصبح دروسًا حية في قلب كل مؤمن يسعى للحق، ويبتغي مرضاة الله في الدنيا والآخرة. وتلك هي سبيل العزة لا غيرها!

وفي الختام،

إن سورة التوبة رحلة قلب ووجدان، ومرشد لحياة المؤمن، ودليل على ثبات الحق ودوام النصر للمخلصين. هي السورة التي جمعت بين حب النبي ﷺ، والحرص على المؤمنين، وحثهم على العمل الصالح، والجد والشجاعة والإقدام بلا تلجلج في نشر الحق ونصرته، والتوكل على الله في كل أمر وخطوة.

تجعلنا هذه الآيات نعي أن الإيمان عمل مستمر، وجهاد دائم، وتقوى ترافق كل خطوة، وصدق يملأ القلوب، وعلم يُنشر بحكمة، ونية صافية تتحول إلى نور يهدي الناس. تدعونا للتأمل في أنفسنا، لنراجع قلوبنا، ونقوي إيماننا، ونجدد ارتباطنا بالله عز وجل، ولنتأسى برسول الله ﷺ في حرصه علينا، ورحمته بنا، وإخلاصه لدينه. فدته نفسي!

فالآيات كلها تصوغ فينا رؤية شاملة: أن كل مجهود، وكل إنفاق، وكل كلمة صادقة، وكل خطوة في سبيل الحق محسوبة عند الله عز وجل، وأن من سار على الصراط

المستقيم، لم يضل ولا يندم. وأن المؤمن الحق هو من يجمع بين الرحمة والحنان مع الحزم والشدة، بين الحب للحق والثقة بالله، بين العمل الصالح والتوكل الكامل عليه.

كما تكشف هذه السورة بعمق! أمراض القلوب، وأصناف البشر، وخطورة المسالك، وتأثير دقائق المقاصد في القول والعمل، ما يستوجب يقظة ووجلا ومحاسبة للنفس، ليستمر أداؤها مسددًا، ثم يقظة وحذرا واستعداد مواجهة مع الأعداء. وعدم الاستهانة بأصغر ما يقدم المؤمن لنفسه في سبيل العزة والجهاد، حتى الفرح بالقرآن، معلم حق في المسيرة إلى الله تعالى، فسبحان الله!

فلنأخذ من هذه السورة نبراسًا يضيء طريقنا، ونموذجًا نحيا به حياتنا، فليكن قلبنا مع النبي ﷺ محبة واتباعا، وعملنا لله عز وجل إخلاصا واستقامة، وثقتنا في رب العرش العظيم لا تتزعزع، ولنحرص على أن نكون مع الصادقين دوما في القول والعمل، ثابتين في الحق، مطمئنين في كل أمر، مستبشرين بالخير، موقنين بأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

إنها دعوة للتفكر، ودعوة للثبات، ودعوة للجهاد في سبيل الله بكل جوارحنا وفي كل ميادين الجهاد لا نستصغر ميدانًا منها مهما بدى مهملا، لتصبح حياتنا شهادة للإيمان، وللصدق! ونورًا للآخرين وإقامة للحجة لهم أو عليهم، وطريقًا إلى رضوانه والجنة بإذن الله عز وجل.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ* فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

وما أعجب خاتمة سورة التوبة!

تبدأ بالبراءة من المشركين بخطاب شديد وواضح المفاصلة!

وتنتهي بالمحبة لسيد الخلق أجمعين، بخطاب رقيق، شديد الرفق والمواساة!

وفي طياتها معالم الحق وأسباب الثبات للمجاهدين!

وكأنها تقول، عز هذه الأمة، يبدأ من محبة النبي ﷺ واتباع منهجه تمام الاتباع ..! ولا تبال بعدها بشيء!

اللهم اجعلنا من أهل الصدق والعلم، والجهاد والشهادة!

﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

في عالم تختلط فيه الحقائق وتغلب فيه الأهواء، ويختلط فيه الصادق بالمتلون، يبقى الإيمان الحق ميزانا للحق، واليقين بالله درعا للقلوب. فالله جل وعلا قد وضع للأمم قواعد لا تتغير، وحكمة بليغة تُظهر الفرق بين القلوب المؤمنة والقلوب المرتابة، بين من يثابر على الخير ومن يختبئ خلف الأوهام والذرائع.

تأتي الآيات العظيمة من سورة التوبة، لتكشف عن علامات المتقين وأثر الإيمان الحق في الاستقامة على طريق الله عز وجل، ولتُبين لمن خالفوا الحق، كيف تكون مصائرهم في الدنيا والآخرة، كما توضح الحكمة في ترتيب الأمور الإلهية، فيدبر الله الأمور بحكمته، ويُعين من يسعى في سبيله مخلصا له الدين.

هي آيات تروي لنا قصص الفلاح والخذلان، والنصر والفتنة، والثبات والانحراف، والتوكل على الله وأساليب المكر والخيانة! وتعلمنا أن ما يصيب المؤمنين من أحداث هو جزء من تقدير الله وحكمته، وأن كل اختبار هو فرصة للارتقاء والثبات، وكل مكيدة من أعداء الحق ما هي إلا سبب لتقوية الإيمان وتصحيح المسار والتمكين للحق.

إنها دعوة للتأمل في النفوس، وللتنبيه على ميادين منازعة الأعداء، وضرورة الابتعاد عن الفتن، والاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لتكون القلوب مستعدة، متزنة، معلقة بالله في كل حركة وسكون، فهذه الآيات هي بمثابة خارطة طريق للمؤمنين في زمن الفتن والامتحانات الكبرى.

نقف اليوم عند آيات تتجلى لنا فيها موازين القلوب ومراتب الإيمان، حيث يوضح الله تعالى فيها الفرق بين المؤمنين والمنافقين، بين القلوب الصافية والقلوب المرتابة، بين الساعين إلى رضاه والساعين وراء أهوائهم.

يقول الله عز وجل:
﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤٤)

إن المؤمنين بحق لا يحتاجون إلى إذن للانخراط في سبيل الله تعالى، فإيمانهم بالحقائق الكبرى، وإدراكهم لليوم الآخر، يجعلهم يحملون الخير في نفوسهم ويقودهم إلى الجهاد بالمال والنفس دون تردد أو حث من أحد. مستمرون هم على ذلك حتى وإن غفلت عنهم العيون والأصوات، قد عقدوا بيعتهم لله الواحد الأحد!

فقلوبهم متشبعة باليقين، وأرواحهم متوجسة للباطل، ومعرفتهم بالله عز وجل تقودهم نحو الطاعة المنجية، بلا تردد ولا ارتياب ولا لجلجة. وهذا حال المؤمنين حقا، أقوياء في الحق، في الاستجابة لله ورسوله ﷺ، في التوبة والاستدراك، في أخذ الكتاب بقوة!

وفي قوله تعالى: «والله عليم بالمتقين» إشهاد على أن أعمال المؤمنين واضحة أمام الله تعالى، وأن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الواجب، فإنهم ملتزمون بطريق الحق من الداخل قبل الخارج. فهم الأبعد عن التفلت في مقامات الظفر والارتقاء مهما حفتها الشدائد.

ثم يبين الله طبقات القلوب الأخرى، فيقول:
﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥)

هنا يظهر التردد والشك الذي يعيشه المنافقون، فقلوبهم لم تستقم على اليقين، وإيمانهم ناقص، ورغبتهم في الخير ضعيفة، وأولوياتهم مختلفة تماما عن المؤمنين، فتحتاج أفعالهم إلى إذن، ويظل الشك يعصف بهم، فلا يجدون القدرة على المبادرة، ولا الشجاعة على الثبات أو حتى مواجهة حقيقة نفوسهم.

هؤلاء يعيشون في هالة من الحيرة، بين الموالاة لله والموالاة لهواهم، بين الالتزام المعلن والنيات المبطنة، فلا يستقيم لهم مسار ولا يعينهم عزمهم أبدًا، فكانوا عبئًا لا سندًا.

ثم يختتم المولى عز وجل بمشهد واضح لقسوة الحقيقة في أولئك المنافقين:
﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦)

هنا، تكشف الأقدار الإلهية الصادقين من المدّعين. فلو أرادوا الجهاد بصدق، لاستعدوا له بكل الوسائل، لكنهم لم يعدوا أنفسهم، فثبت الله على قلوبهم القنوط والكسل، وثبط عزائمهم، فمَن لم يعزم ولم يسعَ، اختار الله له الفشل، فأصبح مع القاعدين بلا اعتبار.

هنا يظهر أن القدرة على العمل ليست مجرد إمكان، بل تتطلب نية صادقة واستعدادا حقيقيا، وعزيمة تتجلى في صدق الحركة، فكل عذر باطل لا يغني عن حساب الله تعالى ولا عن حقيقة خبث الاستجابة. وكل تخلف وتفلت وإعراض ومراوغة، له ثمن وتكلفة!

تدبر هذا المشهد:
المؤمن يتحرك بدافع يقينه وإيمانه، والمنافق يتحرك بتردد وكسل، والمعيار هنا واضح: الإيمان بالحقائق الكبرى، واستقامة القلب، واستعداد النفس للواجب، هي التي تصنع

الفرق بين من يصعد إلى الله بالعمل والنية الصافية، ومن يبقى في دنو، حبيس الريبة والشك والخوف من المسؤولية.

درس لنا اليوم: أن النية الصادقة والعزم الذي يؤكد صدقها، هما قوة لا تقدر بثمن، وأن الجهاد في كل أمر صالح يبدأ من الداخل، من صدق القلب، ومن اجتهاد النفس، قبل أن يبدأ بالمال أو بالبدن. فكم من إنسان يحمل القوة الظاهرية، لكنه فقير في اليقين، يظل متردداً، فلا يستقيم له طريق، ولا يكون له أثر.

وكأن في ذلك وصفة عظيمة لكسر قيود الوهن والخمول والكسل والتسويف: قم واستجب لله تعالى بصدق وخشية ورجاء، وأبشر بمعية وتأييد يغنيانك ويصنعان فيك وفيما يصدر عنك الفارق!

أما البخل والتخلف والتفلت، فخسارة عظيمة لموجبات وفضائل، وكفى بذلك خسارة مضاعفة، خسارة مقام استجابة مهيب وخسارة فضائل هذه الاستجابة في آن واحد، فأي عزاء يكفي المحرومين!

وفي الواقع كلما ارتقى المؤمن في مراتب الإيمان وجد ما يدفعه أكثر ويقوي قلبه ويسنده ويسعده! فكيف بسبيل يبذل فيه نفسه وماله وكل ما يملك! إن الله يعز المؤمنين الصادقين، ويذل المرتابين الخائنين! وكلّ بما قدمت يداه!

ثم يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين محذرًا من مكائد المنافقين وأعداء الحق، مبينًا طبيعة فسادهم وخبث قلوبهم، فقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٧)

هنا تظهر حكمة الله تعالى في منع المنافقين من الانخراط في صفوف المؤمنين، فإنهم لو خرجوا لما جلبوا إلا الفساد والانقسام، لما في قلوبهم من الحقد على الحق، وما في أفعالهم من غايات خبيثة ولئيمة.

لقد كانوا يسعون إلى الفتنة بين المؤمنين، ولقلب جماعتهم على بعضهم البعض، مستغلين ضعفاء عقول الذين يغترون بأقوالهم ويستجيبون لدعواتهم.

وهذا التحذير الإلهي يوضح أن الله يعلم الظالمين وأفعالهم، ويكشف للمؤمنين خطر الاختلاط بهم، ويرشدهم إلى أن يبقوا بعيدين عن من لا يخلص لله في سعيه. وإن كان بين صفوف المجاهدين!

وهنا تتجلى المعية ومحبة الله لعباده الذين ينصرون دينه! كيف يصف لهم أعداءهم ويشير إليهم ولو تسللوا بين الصفوف، كيف ينبههم لخبثهم فيأخذوا حذرهم، فسبحان ربي ما أرحمه بعباده ومن كان الله مولاه فلا يخشى شيئا ولا يشقى في سبيله أبدًا.

ثم يذكر الحق تعالى سوابقهم في الشر والمكر:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٤٨)

لقد سبق لهم أن سعوا لإيقاع الفتنة وقلّبوا الأمور، يحاولون إبطال الحق، والتشويش على الدعوة، بحجة ساقطة مهما كانت محتالة، ولكن الحق ظهر وأمر الله تحقق رغم كيدهم، فبطل باطلهم واضمحل سعيهم، وظلوا منكرين للحق، كارهين لسيرته ولأمر الله عز وجل.

وهنا درسٌ عظيم: لا يضر المنافقون المؤمنين، بل يظهر الله الحق ويثبت دعائم التمكين للحق، مهما طال الباطل واشتد.

ثم يُكشف عن طبيعة أعذار المنافقين وادعاءاتهم:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩)

فبعضهم يتظاهر بالحرص على الطاعة، ويتستر بثوب الاستقامة ويطلب الإذن للتخلف عن الجهاد بحجة الخوف من الفتنة، ولكن الآية تكشف زيف هذه الحجج، فالمقصود الحقيقي هو الرياء والنفاق، إذ لم يسبق أن سعوا لخير حقيقي. والنتيجة واضحة: قد سقطوا في الفتنة، ووقعت عليهم مفسدة عظيمة، والله محيط بهم ويحاسبهم على كذبهم وإخفاء الحقائق والعبث في مقام جد وصدق.

وأخيرًا، يبين الله موقفهم من النصر والهزيمة:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ۗ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥٠-٥١)

إن المنافقين، حتى في مواجهة الخير أو الشر، يجدون في الأحداث ما يفرحهم أو يحزنهم حسب مصالحهم الخبيثة، فيفرحون بمصيبة المؤمنين ويحزنون بنصرهم، ولكن المؤمن حقا يعلم أن كل ما يصيبه هو بإرادة الله وتقديره الحكيم، وهو الذي ولي أمره، وعليه فليتوكل المؤمنون، ويا لجمال اليقين!

ويا لها من مواساة عظيمة لعباد الله المؤمنين: امضوا في سبيل الله مجاهدين مخلصين، ولا عليكم بالمرتابين، فقد علمتم حالهم وخبث طواياهم، والله مولاكم وناصركم، ولن يصيبكم إلا ما كتبه الله لكم وأذن به، ليطهركم ويرفع درجتكم ويضاعف أجركم، ويقيم حجته على من عصاه وخالف أمره، فأي جمال تحمله هذه الآية وأي بشرى للمجاهدين!

وهكذا تكشف الآيات عن ثلاثة حقائق مهيبة:

- الحقيقة الأولى أن المؤمن الحق يسارع بلا تردد لمقامات الاستجابة، ويقدم الجهاد والوفاء بالواجب دون أدنى تأخير، وقلبه مشرق باليقين في سبيل المسابقة.

- والحقيقة الثانية أن المنافقين أعداء داخليون، يسعون للفتنة والانقسام وإضعاف صفوف المؤمنين، وتحذير الله تعالى عباده منهم ضرورة للثبات. ويكفيهم عقوبة ترددهم الذي لا يخرجون منه، فيحرمهم الخير ومراتب القبول!

- والحقيقة الثالثة أن كل الخير والشر بيد الله عز وجل، والتوكل عليه هو الضمان الحقيقي لحفظ القلوب والمجتمعات والمصائر! فلا يخشى المؤمن المجاهد إلا الله تعالى، ومن توكل على الله فهو حسبه.

ثم يختتم الله عز وجل سياق هذه الآيات بالتذكير بعظمة قدرته وحكمته المطلقة في التقدير والمكافأة والعقاب، فقال:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (التوبة: ٥٢)

إنها آية تُرسخ في القلوب ثقل اليقين والثبات على الحق. فالمؤمن يدرك أن كل شيء مقدر بيد الله عز وجل، وأن الله وحده هو المولى والمتصرف في كل الأمور، فلا يثنيه خذلان الناس أو مؤامرات الأعداء عن التوكل على مولاه والثقة بحكمته في صراع بين الحق والباطل محسوم.

فالمؤمنون يعلمون أن ما كتبه الله لهم في اللوح المحفوظ لا يخطئ، وأن كل خير أو شر يأتي وفق علم الله وحكمته، وما عليهم إلا الصبر، والتوكل، والسعي بما يرضيه، مع الاطمئنان إلى نصرة الحق والثواب الأبقى والدائم.

أما المنافقون وأعداء الدين الذين يحاولون الفرقة والفتنة، فهم كما أظهرت الآيات السابقة، أدوات للشر لا تزيد المؤمنين إلا ثباتًا وقوة. فمن استحقوا السقوط في الفتنة

أو تآمروا لإلحاق الضرر بصفوف الحق، كان الله قد سبق أن ثبطهم ومنعهم، فكان ذلك رحمة للمؤمنين وحماية لهم وسلامة.

وهذا الهدي الجليل يصنع في القلب الطمأنينة والثبات واليقين، فالمؤمنون حقا لا يترددون في الخير ولا يحتاجون لإذن في الجهاد، قلوبهم معلقة بالله، وإقبالهم يحفه اليقين.

أما المنافقون والأعداء، فمهما حاولوا الفتنة والتفرقة، وهي أساليبهم المشتهرة، فإنهم محدودو القدرة، وحكم الله يسبق كل محاولة، فلا يصلون إلا إلى الفشل والخذلان. قد رد الله كيدهم في نحورهم.

وبقى كل ما يصيب المؤمنين هو بتقدير الله وحكمته، والتوكل عليه وحده هو السبيل لتحقيق المصالح وحماية القلوب من الانكسار والخوف.

فقدر الله ماضٍ في الظالمين، عاجلًا أم آجلًا، وعدله فيهم نراه بآيات الله فيهم أو بتسخير الله عز وجل لعباده ليقتصوا منهم كل مظلمة وإفساد في الأرض ومخالفة لأمر الله عز وجل.

وما أجمل ذلك الوعد المزدان بالحسم! ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

صراع مستمر، يتطلب نفيرًا مستمرًا، وإعدادًا متواصلا، وتنقية للصف من المخذلين والمرجفين والأعداء الداخليين، وتربص بالكافرين وعمل دؤوب لإعلاء راية الدين، وفي الوقت نفسه الحذر من الأمراض الداخلية والمكائد والفتن والمكر وتربص الأعداء، ويحف كل ذلك، معية ربانية لمن صبر وتوكل، وآمن بحق!

هكذا، تتجلى حكمة الله في تنظيم العلاقات بين الحق والباطل، بين المؤمنين والمنافقين، بين النصر والابتلاء. فالمؤمن يعيش مع الله في كل حركة وسكون، يواجه الفتن بالصبر، والشر بالحكمة، ويثق بأن كل محنة أو فتنة إنما هي اختبار وتقويم، وكل نصرة أو فوز هو من عنده وحده.

ومن أدرك هذا، وملأ قلبه بالتوكل والثقة المطلقة بالله عز وجل، أصبح قلبه حصنًا لا يخترقه القلق، وعقله ميزانًا للتمييز ببصيرة، وروحه قوة للتقدم في طريق الحق بثبات، فلا تزلزلها المؤامرات، ولا تحبطها الملمات، بل يكون المؤمن حقا، سائرًا على النهج، ثابتًا بيقين، منتظرًا نصرة الله المتمم لوعده. ولن يخلف الله وعده!

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم اجعل حياتنا كلها هجرة وجهادًا في سبيلك إلى أن نلقاك، في خاتمة توثق الصدق، بشهادة في سبيلك وحدك لا شريك لك، جل جلالك.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قد تمرّ على الإنسان في حياته لحظات يظن فيها أن الأمور تسير بغير ميزان، وأن الظلم قد يعلو، وأن الباطل قد يمتد به الأمد. ولكن القرآن العظيم يعيد ترتيب النظر، ويكشف الحقيقة الكبرى: أن الكون كله قائم على ميزان العدل الإلهي، وأن ما يراه الناس من اضطراب أو تأخر للجزاء ليس خللًا في الميزان، بل هو جزء من حكمة الله في الابتلاء والتمحيص.

نقف اليوم عند آيات جليلة من سورة يونس تفتح للقلب نافذة واسعة على حقيقة العدل، وسرّ الغفلة، وسرعة انقضاء الدنيا، وحتمية اللقاء بالله عز وجل. إنها لا تخاطب العقل فحسب، بل تهز القلب هزًّا، وتوقظ الإنسان من سُبات العادة، ليعلم أن الطريق الذي يسلكه اليوم هو الطريق الذي سيقف عليه غدًا بين يدي الله سبحانه وتعالى.

فهي آيات تُظهر أن الظلم الحقيقي ليس ما يقع على الإنسان، بل ما يوقعه الإنسان بنفسه حين يعرض عن الحق، وأن الزمن الذي يظنه الناس طويلًا ليس عند الله إلا لحظة عابرة، وأن العذاب الذي يستهزئ به المكذبون قد يأتيهم في غفلة وهم لا يشعرون.

يبدأ الخطاب بحقيقة كبرى تهدم كل وهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤)

إنها قاعدة من أعظم قواعد الوجود:

الله سبحانه لا يظلم أحدًا، فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يعاقب بغير جرم. لكن الناس حين تُعرض عليهم آيات الحق فيردّونها، وحين تأتيهم الهداية فيصدّون عنها، فإنهم بذلك يكتبون بأيديهم بداية شقائهم.

فالظلم الحقيقي ليس أن تُبتلى، بل أن ترفض النور حين يأتيك.

وما الطبع على القلوب، ولا الختم على الأسماع والأبصار، إلا نتيجة طريق طويل من الإعراض والعناد.

ثم ينتقل القرآن بالقلب إلى مشهد يهز الغافلين:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾

كم تبدو الدنيا طويلة في أعين أهلها! سنوات من السعي والكدح، وأعمار من الطموحات والآمال. لكن حين يقف الناس في ساحة القيامة، تنكمش هذه الأعمار كلها حتى تبدو كساعة من نهار.

كأن كل ما مرّ لم يكن إلا لحظة عابرة. وكأن الضجيج الذي ملأ الدنيا لم يكن إلا همسًا زائلًا. كل الأرقام، كل مقاييس الدنيا لا يعود لها اعتبار!

عندها تتجلى الحقيقة الموجعة: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾

الخسارة ليست خسارة مال أو جاه، بل خسارة الأبد كله. خسروا الطريق، وخسروا النعيم، وخسروا فرصة النجاة.

ثم تأتي آيات تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الحق: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾

ليست مهمة الرسل أن يعجّلوا العقوبة، ولا أن ينتقموا لأنفسهم، بل مهمتهم البلاغ والبيان.

أما الحساب فموعده عند الله ﷻ.

فإن رأى المؤمن بعض العدل في الدنيا فذلك من فضل الله تعالى، وإن تأخر الجزاء فذلك موعد محفوظ في علم الله لا يضيع.

ثم يقرر القرآن سنة عظيمة في تاريخ البشر:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾

ما من أمة إلا قامت عليها الحجة، وما من قوم إلا أرسل الله إليهم من يدلهم على الطريق.

فإذا جاء الرسول وانقسم الناس بين مؤمن ومكذب، جاء حكم الله العادل:

﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

ينجو المؤمنون، ويهلك المكذبون. وهكذا تتكرر القصة في تاريخ الأمم، لأن السنن الإلهية لا تتبدل.

لكن المكذبين في كل زمان يسلكون الطريق نفسه: طريق السخرية والاستعجال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

يستعجلون العذاب كأنهم يستعجلون بشرى! وما علموا أن تأخر العذاب ليس عجزًا، بل إمهال من الله لعل القلوب ترجع.

ثم يأتي الرد الحاسم:

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

حتى النبي ﷺ لا يملك لنفسه شيئًا إلا ما شاء الله. فكيف يملك تعجيل العقوبة أو تأخيرها؟

إن لكل أمة أجلًا، ولكل مرحلة موعدًا مقدرًا:

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

فإذا جاء ذلك الموعد، لا ينفع حذر، ولا تؤخره قوة. ثم يصور القرآن فجأة العذاب وهو يأتي في غفلة:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾

قد يأتي ليلًا والناس نيام، أو نهارًا والناس في غفلتهم وأعمالهم.

فأي شيء يستعجل منه المجرمون؟ وأي بشرى في عذاب يدمّر كل شيء؟

ثم يأتي التوبيخ القاسي:

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ﴾

الآن تؤمنون؟ بعد أن وقع العذاب؟ بعد أن انكشف الغطاء؟

إن الإيمان ساعة الشدة لا ينفع إن كان القلب قد أعرض زمن القدرة والاختيار. ولهذا يقال لهم يوم القيامة:

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾

عذاب لا ينقطع، ولا يفتر، ولا يزول. ثم يختم السياق بيمين عظيم يقطع كل شك:

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾

القيامة حق. الحساب حق. الجزاء حق.

وما أنتم بمعجزين الله، ولا هاربين من قدره.

هكذا تجمع هذه الآيات بين العدل الإلهي، وسرعة زوال الدنيا، وحتمية الحساب.

فهي تعلمنا أن الظلم الحقيقي ليس ما يلقاه الإنسان من البلاء، بل ما يصنعه بيده حين يعرض عن الحق.

وتعلمنا أن العمر الذي نراه طويلًا ليس إلا لحظة عابرة في ميزان الآخرة، وأن العذاب الذي يستهزئ به الغافلون قد يأتي فجأة حين لا ينفع الندم.

فالسعيد من انتبه قبل أن يقال له: الآن؟ والفائز من جعل الدنيا مزرعة للقاء الله عز وجل.

أما من عاش غافلًا حتى انكشف الغطاء، فسيعلم يومئذ أن أعظم الخسارة ليست خسارة الدنيا، بل خسارة الأبد كله.

ثم يكشف القرآن مشهدًا آخر من مشاهد القيامة. مشهدٌ تتجرد فيه النفوس من كل وهم كانت تتشبث به في الدنيا:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾

في الدنيا يتوهم الناس أن المال يفتح الأبواب المغلقة، وأن الثروة تستطيع أن تدفع المصائب وتغير المصائر. لكن حين يقف الظالم بين يدي الله، لو ملك كل ما في الأرض من ذهب وفضة وكنوز لبذله في لحظة واحدة ليفتدي نفسه من عذاب الله عز وجل.

غير أن تلك اللحظة تكشف الحقيقة القاسية: أن ما ينجي الإنسان ليس ما جمعه بيديه، بل ما قدمه بقلبه وعمله.

ثم يرسم القرآن صورة نفسية عميقة:

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾

إنها ندامة صامتة، ندامة لا يستطيع أصحابها حتى أن يصرخوا بها.

الصدمة أكبر من أن تُقال، والخسارة أعظم من أن توصف. لكن الندم في ذلك اليوم لا يغيّر مصيرًا، ولا يمحو خطيئة.

فقد قُضي الأمر:

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

عدل كامل لا جور فيه، ولا نقص، ولا زيادة. كل نفس تأخذ ما عملت، وكل إنسان يلقى ما قدم.

ثم يرفع القرآن أنظار القلوب إلى حقيقة الملك:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

كل ما يتصارع الناس عليه في الدنيا من سلطان وملك ونفوذ، هو في الحقيقة ملك لله وحده.

فالملوك الذين يظنون أنهم يملكون الأرض، إنما هم عابرون في ملك الله ﷻ.

ولهذا يأتي التذكير الحاسم:

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

ليس وعدًا مجازيًا، ولا تهديدًا رمزيًا، بل حقيقة تنتظر موعدها. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لأن الغفلة تغشي القلوب، ولأن الدنيا تملأ الأبصار.

ثم يقرر القرآن حقيقة الوجود الكبرى:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

من بيده البداية بيده النهاية. ومن خلق الإنسان أول مرة، قادر على أن يعيده مرة أخرى.

فالحياة ليست دائرة مغلقة تنتهي بالموت، بل رحلة تبدأ بالميلاد وتنتهي بالرجوع إلى الله عز وجل.

ثم ينتقل السياق من مشاهد الوعيد إلى باب الرحمة، فيفتح للإنسان طريق النجاة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

إنه القرآن العظيم!

ليس كتاب معلومات، ولا نصًا تاريخيًا فحسب، بل موعظة تهز القلوب وتوقظ الضمائر.

ثم يصف أثره العميق:

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾

فكم في الصدور من أمراض! أمراض الشهوات التي تشد الإنسان إلى الأرض، وأمراض الشبهات التي تلبس الحق بالباطل. فيأتي القرآن ليزيل الظلمة، ويعيد للقلب صفاءه.

فإذا شُفي القلب من مرضه، تبعته الجوارح كلها؛ لأن القلب هو القائد الحقيقي للإنسان.

ثم يبين القرآن ثمرة ذلك كله:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

الهداية طريق، والرحمة ثمرة. فمن اهتدى بالقرآن، نال رحمة الله في الدنيا والآخرة.

ولهذا يأمر الله عباده بفرح مختلف عن فرح الدنيا:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾

الناس يفرحون بما يجمعون من المال والمتاع، لكن الفرح الحقيقي هو فرح القلب بالهداية.

فالقرآن والإيمان أعظم من كل كنوز الأرض؛ لأن متاع الدنيا يزول، أما نعمة الدين فتبقى إلى الأبد.

ثم يفضح القرآن خطيئة أخرى من خطايا البشر:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾

حين يضع الإنسان نفسه في موضع التشريع بغير إذن الله تعالى، فإنه لا يغيّر حكمًا فحسب، بل يتجرأ على مقام الربوبية.

ولهذا يأتي السؤال الذي يهدم كل دعوى:

﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾

إما وحي من الله، وإما افتراء على الله. ولا منزلة ثالثة بينهما.

وكما أن تحليل ما حرم الله عظيم، فإن تحريم ما أحل الله عظيم، لا يحق لبشر أن يحل أو يحرم فيفتري على الله عز وجل!

ثم يأتي التهديد الذي يهز القلوب:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

أيّ ظنّ يظنه من نسب إلى الله ما لم يقله؟ وأي مصير ينتظر من كذب على خالقه؟

ومع ذلك فإن الله واسع الفضل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾

رزقهم، وهداهم، وأمهلهم، وفتح لهم أبواب التوبة. لكن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعم، بل يستعينون بها على المعصية.

ثم يختم السياق بتذكير عظيم يوقظ ضمير الإنسان في كل لحظة:
﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

آية يتصدع لها القلب وينحني ركوعا وسجودا، لا إله إلا أنت!

كل حركة في الحياة، كل كلمة تُقال، كل فكرة تمر في القلب، هي في علم الله عز وجل، وتحت شهوده. فلا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.
إنه علم يحيط بكل شيء، وكتاب كُتب فيه كل شيء.
ولهذا فإن حياة المؤمن الحق هي حياة المراقبة الدائمة؛ أن يعمل وهو يعلم أن الله يراه، ويتكلم وهو يعلم أن الله يسمعه، ويتحرك وهو يعلم أن كل شيء مكتوب عند الله.
فإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب، صار الإنسان يعيش في الدنيا بقلب يقظ، وروح متصلة بالله، يسير في الطريق وهو يعلم أن كل خطوة فيه تقرّبه من لحظة اللقاء.

واستحضار هذه المعاني لحظة قراءة القرآن سعادة لا تُبارى موجبة للخشوع والانكسار!

وبعد أن عرضت الآيات مشاهد الحساب والندم والعدل الإلهي، ينتقل القرآن فجأة إلى مشهد آخر مفعم بالطمأنينة، كأنما يفتح نافذة نور وسط مشاهد القيامة المهيبة:
﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

إنها بشارة عظيمة تهز القلب رجاءً. ففي يوم يملؤه الخوف والاضطراب، ويقع فيه الناس تحت ثقل الحساب، هناك طائفة استثناها الله عز وجل من هذا القلق العظيم.
لا خوف عليهم مما يستقبلهم من أهوال القيامة، ولا حزن يعتصر قلوبهم على ما خلفوه وراءهم في الدنيا.
لقد عبروا الدنيا بقلوب مطمئنة بالله تعالى، فجاءهم الأمن يوم الفزع الأكبر.
لا خوف عليهم! ولا هم يحزنون! مهما أثخنت فيهم تكاليف الاستقامة، مهما كاد لهم الأعداء! فيا لجلال الولاية!

لكن من هم أولياء الله؟
ليسوا أصحاب ألقاب، ولا جماعات مخصوصة، ولا طبقة دينية مغلقة.

إن القرآن يعرّفهم تعريفًا واضحًا صريحًا:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

الإيمان في القلب، والتقوى في العمل. صدق مع الله في الاعتقاد، واستقامة مع الله في السلوك.

فكل من جمع بين الإيمان الصادق والتقوى الصادقة فهو من أولياء الله، مهما كان اسمه أو نسبه أو مكانه.

ثم يفيض القرآن ببشارة أخرى تملأ النفس رجاءً:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾

فالله لا يؤخر كرامة أوليائه كلها إلى الآخرة، بل يذيقهم من طعمها في الدنيا.

فمن بشارات الدنيا:

أن يفتح الله للعبد أبواب الطاعة، ويحبب إليه الإيمان، ويجعل له قبولًا في قلوب المؤمنين، ويريه من لطف الله عز وجل ما يطمئن به قلبه.

وقد تكون البشارة رؤيا صالحة، أو توفيقًا في الطاعة، أو انشراح صدر للخير.

ثم إذا جاء الموت، بدأت البشارات الكبرى:

تتنزل الملائكة عند خروج الروح قائلة: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

ثم تمتد هذه البشرى في القبر، وفي الحشر، وفي الجنة. ولهذا قال الله ﷻ:

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾

وعد الله لا يتغير، ولا يتبدل، ولا يتراجع. فمن أقبل بالإيمان والتقوى نال هذه البشرى حتمًا.

ولهذا ختمت الآية بهذه الحقيقة العظيمة:

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

ليس الفوز أن يملك الإنسان الدنيا، ولا أن يعلو اسمه بين الناس، بل الفوز الحقيقي هو النجاة من النار ودخول الجنة. وهذه هي المرتبة التي تبذل لها الأعمار والأنفاس والأموال والجهود وكل عمل صالح ونية صالحة!

ثم يلتفت الخطاب إلى قلب النبي ﷺ، وكل من يسير في طريق الدعوة لله ونصرة دينه عز وجل: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾

سيقول أهل الباطل ما يشاؤون. سيسخرون، ويشككون، ويطعنون. لكن كلماتهم لا تملك أن تغيّر الحقيقة، ولا أن تهزم الحق. لأن العزة ليست في أيدي الناس، بل في يد الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

فالذي يطلب العزة من غير الله يطلب سرابًا. أما من طلبها بطاعة الله، فإن الله يرفعه ولو حاول الناس خفضه.

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

إنها عزة تقوم على الإيمان، لا على القوة المجردة. وعزة تستمد من السماء، لا من تصفيق الأرض.

ثم يختم السياق بتذكير عظيم يطمئن القلوب:

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يسمع أقوالك، ويسمع أقوال أعدائك، ويعلم ما في الصدور من صدق وكذب. فلا يضيع عنده حق، ولا تخفى عليه نية.

ومن علم أن الله تعالى يسمع ويرى، عاش مطمئن القلب، ثابت الخطوة، لا يضطرب أمام ضجيج الباطل.

وفي الختام،

تجمع هذه الآيات رحلة كاملة من الإنذار إلى الرجاء، ومن العدل إلى الرحمة.

بدأت بتذكير الإنسان بأن الظلم الحقيقي هو ظلم النفس، وأن يوم القيامة يوم تنكشف فيه الحقائق، حتى إن الظالم لو ملك كنوز الأرض كلها لبذلها ليفتدي نفسه من عذاب الله عز وجل.

ثم قررت أن ملك السماوات والأرض لله وحده، وأن الحياة والموت بيده، وأن الرجوع إليه حتمي لا مفر منه.

ثم فتحت أبواب النجاة، فبيّنت أن القرآن العظيم موعظة وشفاء وهداية ورحمة، وأن أعظم ما ينبغي أن يفرح به الإنسان ليس مال الدنيا، بل نعمة الإيمان والهداية.

ثم حذرت من أخطر الجرائم: الافتراء على الله وتغيير أحكامه، وذكّرت بأن الله تعالى مطلع على كل حركة في الكون، لا يغيب عنه مثقال ذرة.

ثم ختمت هذه الرحلة بفتح باب الأمل العظيم: باب ولاية الله ﷻ.

فمن آمن واتقى صار من أولياء الله، ومن كان لله وليًا نال الأمن يوم الخوف، والبشرى في الدنيا والآخرة، والعزة التي لا تزول.

وهكذا يرسم القرآن للإنسان طريقه بوضوح:
طريق يبدأ بالإيمان، ويمتد بالتقوى، ويثمر طمأنينة في الدنيا، وينتهي بفوز عظيم يوم اللقاء.
فالسعيد من جعل قلبه مع القرآن قبل أن يقف بين يدي الرحمن، ومن استعد ليومٍ يعلم فيه أن كل شيء في الدنيا يزول، إلا ما كان لله جل في علاه.

اللهم اجعلنا من أوليائك الأصدق والأتقى والأحب!

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

سورة الحج من السور العجيبة في بنائها ومعانيها؛ فهي سورة تجمع بين هيبة الآخرة وحركة الحياة، وبين التوحيد والشعائر، وبين العبادة القلبية والعمل الظاهر.

تبدأ السورة بنداء يهز القلوب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فتضع الإنسان منذ البداية أمام الحقيقة الكبرى: أن الحياة رحلة إلى الله عز وجل.

ثم تنتقل السورة في مشاهدها بين دلائل القدرة، وقصص الأمم، ومناسك الحج، والجهاد في سبيل الله، لتؤكد أن الدين ليس مجرد شعور داخلي، بل هو منهج حياة يظهر في الشعائر والعبادات والطاعة والاستسلام لله عز وجل.

ولهذا جاء الحديث في هذه الآيات عن تعظيم الشعائر؛ لأن الشعائر في الإسلام ليست طقوسًا جامدة، بل جسور تربط القلب بربه، وتحوّل الإيمان من فكرة إلى واقع حيّ في حياة الإنسان.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)

الشعائر هي أعلام الدين الظاهرة؛ كل ما جعله الله علامة على عبادته وتعظيمه: كالصلاة، والحج، والذبح، والصفا والمروة، وسائر المناسك.

ولم يقل الله: من تقوى الألسنة أو من تقوى الأعمال، بل قال: ﴿ مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ لأن القلب هو الأصل، وما يظهر في الخارج إنما هو انعكاس لما في الداخل.

فالذي يعظم شعائر الله إنما يعظمها لأنه يعظم الله نفسه ﷻ.

ولهذا قال المفسرون: إن تعظيمها يكون بإجلالها في القلب وإقامتها على أكمل وجه وتحسينها وإتقانها.

فالمؤمن لا يؤدي العبادة أداءً بارداً، بل يؤديها بقلب حاضر، وتعظيم صادق.

ولهذا كان السلف يرون أن استهانة العبد بالشعائر علامة على ضعف الإيمان، وأن تعظيمها دليل على حياة القلب.

فالصلاة ليست مجرد حركات، والحج ليس مجرد رحلة، والأضحية ليست مجرد ذبح.

إنها لغة تعبر عن تعظيم العبد لربه ﷻ.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

في الهدي والأضاحي منافع قبل ذبحها؛ يُركب عليها، ويُنتفع بلبنها، ونحو ذلك، إلى أن يبلغ وقت النحر.

وهنا تتجلى حكمة الشريعة:

فهي لا تحرم الإنسان من المنافع، ولا تفصله عن واقعه، لكنها تربطه بالله تعالى في كل شيء.

فحتى المنافع الدنيوية تتحول في الإسلام إلى عبادة إذا كانت في طاعة الله عز وجل.

ثم تنتهي هذه المنافع إلى البيت العتيق، حيث يذبح الهدي، فيأكل منه صاحبه ويطعم الفقير.

وكأن الرسالة هنا تقول:

إن المال والرزق الذي بين يديك ليس ملكًا خالصًا لك، بل هو نعمة من الله عز وجل، ومن شكرها أن تشرك فيها المحتاجين.

ثم يقرر القرآن حقيقة كبرى في تاريخ الرسالات:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾

اختلاف الشرائع في تفاصيلها لا يعني اختلافها في أصلها.

فالرسالات كلها قامت على ركيزة واحدة: توحيد الله وإفراده بالعبادة.

ولهذا ختمت الآية بقول الله:

﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾

أي: استسلموا له وحده، وانقادوا لأمره دون سواه عز وجل.

فالإسلام في جوهره حقيقة واحدة عبر التاريخ: أن يسلم الإنسان قلبه لله عز وجل.

ثم تأتي البشارة العظيمة: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾

والمخبت هو: الخاضع لله، المطمئن إليه، المتواضع لعباده.

فالمخبت ليس مجرد عابد، بل هو إنسان رقّ قلبه لله تعالى.

ثم وصفهم الله بصفات أربع عظيمة:

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

قلوبهم ليست قاسية، بل ترتجف عند ذكر الله عز وجل؛ خشية وتعظيماً.

﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾

فالمؤمن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء، فيستقبل البلاء بصبر وثقة بالله عز وجل.

﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ ﴾

ليس مجرد أداء للصلاة، بل إقامة لها؛ بخشوعها، وحدودها، وإخلاصها لله عز وجل.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

فالمال عندهم وسيلة للطاعة، لا غاية للحياة. ولذلك قال الله: ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾، ليذكر العبد أن ما في يده رزق من الله تعالى، وأن الإنفاق إنما هو ردّ بعض النعمة إلى أهلها.

تكشف هذه الآيات عن حقيقة عظيمة في الدين:

أن تعظيم الشعائر ليس مجرد مظهر ديني، بل هو انعكاس لتقوى القلب.

فحين يعظم القلب ربه، يعظم أمره، ويعظم عبادته، ويعظم كل ما نُسب إليه.

ومن هنا يتشكل المؤمن الحق: بقلب يخشع عند ذكر الله، وصبر عند البلاء، وصلاة قائمة، وعطاء لا ينقطع.

فالشعائر في الإسلام ليست طقوسًا، بل مدارس تصنع القلوب، وتربي النفوس، وتبني الإنسان الذي يعيش لله عز وجل.

ولهذا كان تعظيم شعائر الله علامة حياة القلب؛ فكلما ازداد القلب تعظيمًا لله، ازداد تعظيمًا لدينه، وكلما عظّم العبد شعائر ربه، رفع الله قدره، وجعل قلبه من القلوب التي قال عنها: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

وعكس ذلك، ضعف التعظيم لشعائر الله عز وجل علامة موت القلب! والعياذ بالله.

من الشعائر إلى التقوى... ومن التقوى إلى النصر

وبعد أن بيّنت الآيات أن تعظيم الشعائر علامة تقوى القلوب، انتقلت لتكشف جانبًا آخر من هذا التعظيم، وهو ما يتعلق بالهدي والقرابين، فقال تعالى:

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

فالبدن – وهي الإبل، وقيل يدخل معها البقر – ليست مجرد حيوان يذبح، بل شعيرة من شعائر الله عز وجل، يؤديها العبد بإخلاص وخشوع. ولهذا كان السلف يعظمونها، فيختارون أجودها وأكملها، ويستسمِنونها ويستحسنونها؛ لأن ما يُقَدَّم لله ينبغي أن يكون من أحسن ما يملك الإنسان.

وفي هذا درس عظيم:

أن العبادة في الإسلام ليست مجرد أداء شكلي، بل هي تعبير عن تعظيم القلب لله عز وجل، والتعظيم يصنع الخشوع وهيبة المقام.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾.

خير في الدنيا والآخرة: خير في الأكل، وخير في الصدقة، وخير في الأجر والثواب، وخير في تهذيب النفس وتربيتها على البذل.

ثم يأمر الله بذكر اسمه عند النحر: ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾

أي قائمة على قوائمها، مهيأة للنحر، فيقف الإنسان أمام هذا المشهد العجيب: مخلوق ضخم قوي، قد ذلّله الله للإنسان، يقف ساكنًا خاضعًا، ينتظر لحظة النحر.

فإذا سقطت جنوبها على الأرض قال تعالى:

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾

القانع: الفقير المتعفف الذي لا يسأل. والمعتر: الذي يسأل ويطلب.

وكأن الشريعة تقول: إن العبادة الحقيقية لا تكتمل إلا حين تتحول إلى رحمة بالخلق. فلا يبقى الخير حبيس يد صاحبه، بل يمتد إلى الفقراء والمحتاجين.

ثم يذكّر الله بنعمته العظيمة:

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

فلو شاء الله لجعل هذه المخلوقات أقوى من الإنسان وأعجزه عنها، لكنه ذللها له وسخرها بين يديه.

وهنا يتعلم المؤمن أن ما في يده من النعم ليس نتيجة قوته، بل ثمرة رحمة الله وتسخيره ذي الجلال والإكرام.

ثم يضع القرآن القاعدة الكبرى في فهم العبادة:

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾

فالله ﷻ غني عن اللحوم والدماء، وغني عن الذبائح والقرابين. وإنما الذي يصل إليه هو ما في القلب: الإخلاص، والنية، وتعظيم الله عز وجل.

فقد يذبح إنسان أضحية عظيمة، لكن قلبه خالٍ من الإخلاص، وقد يقدم آخر شيئًا يسيرًا، لكن قلبه ممتلئ بتقوى الله عز وجل.

ولهذا قال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل عظيم تصغره النية.

فكل عبادة بلا إخلاص هي كالجسد بلا روح، وكالقشرة بلا لب.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾

أي لتعلنوا في كل شعيرة: أن الله أكبر من المال، وأكبر من النفس، وأكبر من الدنيا كلها.

ثم تأتي البشارة العظيمة:

﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

والمحسنون هم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يبلغوا هذه الدرجة، عبدوه وهم موقنون أنه يراهم.

وهم كذلك يحسنون إلى الناس: بمالهم، وعلمهم، وكلامهم، ونصحهم. فجزاؤهم من الله تعالى أعظم الجزاء: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾

ثم تنتقل الآيات من بناء القلب بالعبادة إلى طمأنته بوعد الله ﷻ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

إنها آية عظيمة تبث الطمأنينة في قلب المؤمن. فالمؤمن ليس وحده في معركة الحياة، بل الله نفسه ﷻ يدافع عنه.

يدافع عنه من: شر الأعداء ووساوس الشيطان وشرور النفس وكثير من البلايا التي لا يشعر بها. وكلما ازداد إيمان العبد، ازدادت مدافعة الله تعالى عنه. فيا لعظمة المقام!

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

فالخيانة والكفران طريق لسقوط الإنسان من عناية الله عز وجل، أما الأمانة والشكر فهما طريق محبته.

ثم تكشف السورة مرحلة عظيمة من تاريخ الإسلام:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾

فالمسلمون في بداية الدعوة كانوا مأمورين بالصبر على الأذى، لكن حين اشتد الظلم، وأُخرجوا من ديارهم، أذن الله لهم بالدفاع عن أنفسهم. فالجهاد في الإسلام لم يُشرع للعدوان،

بل لرفع الظلم، وحماية الحق، وتمكين الناس من عبادة الله عز وجل ونشر رسالته.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

والنصر ليس بعدد الجيوش، ولا بكثرة العتاد، بل بعون الله عز وجل.

ثم يذكر القرآن سببًا عظيمًا من أسباب الجهاد:

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

لم يكن ذنبهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله.

وهذا يكشف أن الصراع عبر التاريخ لم يكن صراع أرض فقط، بل صراع عقيدة وهوية.

ثم يقرر القرآن قاعدة عظيمة في حركة التاريخ:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾

أي لولا أن الله يدفع الظالمين بالمؤمنين، ويمنع الطغيان بالقوة، لانتشر الفساد في الأرض.

فالجهاد ليس غايته الحرب، بل حماية دور العبادة وحرية الإيمان وعزة الإسلام.

ثم يختم الله تعالى هذا المشهد بوعد عظيم:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾

إنها قاعدة من سنن الله في التاريخ. من نصر دين الله، نصره الله.

لكن النصر يبدأ أولًا بنصر الدين في النفس ونصره في الأخلاق ونصره في العمل.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قوي لا يعجزه شيء، وعزيز لا يُغلب. ولهذا مهما اشتد ضعف المؤمنين، ومهما عظمت قوة أعدائهم، فإن ركنهم الأعظم هو الله.

وهكذا نرى كيف تبدأ هذه الآيات بتعظيم الشعائر، وتنتهي بوعد النصر.

وكأن القرآن يريد أن يقرر حقيقة كبرى: أن طريق النصر يبدأ من القلب. من تعظيم الله، وتعظيم شعائره، والإخلاص في عبادته.

فإذا صلحت القلوب، وأقيمت الشعائر، وعاش الناس بالتقوى والإحسان، تحققت سنة الله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾.

فالنصر ليس مجرد حدث عسكري، بل هو ثمرة إيمان حيّ، وعبادة صادقة، وقلب معلق بالله عز وجل.

ومن هنا نفهم أن أعظم معركة يخوضها الإنسان ليست مع عدوه فقط، بل مع قلبه أولًا.

فإذا انتصر على نفسه، وانتصر لدينه، كان وعد الله له حقًا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

وبعد أن وعد الله بنصر من ينصره، وكشف أن الجهاد إنما شُرِع لدفع الظلم وإقامة دين الله في الأرض، جاءت هذه الآية لتكشف الحقيقة الكبرى في معنى النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾

هذه الآية ليست مجرد وصف للمؤمنين، بل هي ميزان دقيق يُعرف به الصادق من المدّعي.

فكثير من الناس قد يرفع شعار نصرة الدين، لكن القرآن يضع معيارًا واضحًا: من نصر الله حقًا ظهرت آثار ذلك في حياته وسلطانه. ولهذا قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾

أي إن أعطاهم الله القوة والسلطان، وجعل لهم القدرة والنفوذ. فما الذي يفعلونه حين يملكون القوة؟

هل ينشغلون بالترف؟ هل يتنافسون في الدنيا؟ هل يقيمون سلطانهم على أهوائهم؟

الجواب في قول الله تعالى: ﴿ أَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾

أول ما يقيمونه هو صلة العبد بربه. فالصلاة ليست عبادة فردية فحسب، بل هي عمود المجتمع المؤمن.

ولهذا قال: أقاموا الصلاة، أي أقاموها في أنفسهم، وأقاموها في مجتمعهم، وأقاموها في مساجدهم وجماعاتهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

فإذا صلحت العلاقة مع الله، جاء إصلاح العلاقة مع الناس. فالزكاة ليست مجرد صدقة، بل هي نظام عدل اجتماعي يطهر المال ويخفف الفقر ويزرع الرحمة بين الناس.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

وهنا تبلغ الرسالة كمالها. فالمجتمع المؤمن ليس مجتمعًا محايدًا بين الخير والشر، بل هو مجتمع يحرس الفضيلة ويحارب الفساد. فالأمر بالمعروف يشمل كل خير عرفه الشرع والعقل: من العدل، والصدق، والرحمة، والوفاء، والإحسان.

والنهي عن المنكر يشمل كل شر: من الظلم، والفساد، والخيانة، والاعتداء. ولذلك فإن إقامة هذا المبدأ تحتاج إلى: العلم والتعليم والنصح والإرشاد والتأديب والعقوبة وإقامة المؤسسات التي تحمي الأخلاق وتطبق الشريعة. فالمجتمع الصالح لا يقوم على الشعارات، بل يقوم على حراسة القيم وحماية الفضيلة والحكم بما أنزل الله تعالى.

ثم ختمت الآية بحقيقة كبرى من سنن الله في التاريخ:

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

أي أن نهاية كل شيء بيد الله تعالى. قد يملك الظالم زمناً، وقد يعلو الطغيان فترة، لكن العاقبة في النهاية ليست للقوة المجردة، بل للتقوى والعدل.

ولهذا أخبر الله في مواضع كثيرة أن: العاقبة للمتقين.

فالملك الذي يقيم العدل ويعظم أمر الله عز وجل تكون عاقبته حميدة، أما من يبني سلطانه على الظلم والهوى وإن رفع شعار الإسلام وشريعة الله! فمهما طال ملكه فإن نهايته إلى زوال.

وإذا تأملنا هذه الآيات وجدنا أنها ترسم منهجًا متكاملًا لبناء الأمة.

بدأت الآيات بتعظيم الشعائر، لأن إصلاح الأمة يبدأ من إصلاح القلوب. ثم بيّنت أن روح العبادة هي التقوى والإخلاص، لا المظاهر الفارغة والدعايات الجوفاء.

ثم وعدت المؤمنين بأن الله يدافع عنهم، وأن النصر وعد إلهي لمن ينصر دينه.

ثم كشفت أن الجهاد إنما شُرع لدفع الظلم وحماية دور العبادة وإعلاء كلمة الله تعالى.

ثم ختمت ببيان أن التمكين الحقيقي ليس في امتلاك الأرض فقط، بل في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحراسة القيم والأخلاق وإقامة شريعة الله عز وجل.

وهكذا تتكامل الصورة: بقلب يعظم الله، وعبادة مخلصة صادقة، ومجتمع قائم على العدل، وأمة تدفع الظلم عن الناس. عندها تتحقق سنة الله التي لا تتخلف:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾.

فالنصر في ميزان القرآن ليس مجرد غلبة عسكرية، بل هو قيام أمة تعبد الله، وتعدل في الأرض، وتحمل الخير للعالم.

ومن سار في هذا الطريق، فمهما اشتدت المحن، ومهما طال ليل الابتلاء، فإن وعد الله باقٍ لا يتغير: ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾.

وإن كان من بقية كلمة، فإن هذه الآيات ترسم لنا خطة التمكين الحقيقي، من الشعائر إلى التقوى... ومن التقوى إلى النصر! فكلما عظمت القلوب شعائر الله عز وجل واستعلت بإيمانها، وجاهدت في سبيل ربها مستعينة به متوكلة عليه سبحانه، يحدوها في كل خطوة وعمل تقوى الله ﷻ، فإنها مؤهلة للنصر والتأييد الرباني، ثم! دلالة صدقها، إقامة شريعة ربها في الأرض، فيدبر الله لها الأمور بخير في الدنيا والآخرة.

وخلال هذه الرحلة، تفوز النفس المعظمة لشعائر ربها، التقية في مسيرتها، المجاهدة لإقامة شريعة ربها، بنصر الله تعالى لها، ودفاعه عنها، وتلك حقيقة النصر! حتى لو لم يتمكن المجاهدون في الأرض ببنيان وسلطان، فيكفيهم شرفا، أن يكونوا ممن يجاهد في سبيل الله لإقامة شريعته في الأرض. ولله عاقبة الأمور!

اللهم اجعلنا ممن يعظمون شعائرك ويقيمون شريعتك، ويجاهدون في سبيلك مخلصين لك الدين وحدك لا شريك لك! اللهم اجعلنا ممن تدافع عنهم، وممن ينصرونك وتنصرهم جل جلالك.

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

سورة الأحزاب سورة عظيمة تكشف سنن الله تعالى في الصراع بين الحق والباطل، وتفضح طبائع النفوس حين تتعرض الأمة للامتحان. فهي سورة المواقف الكبرى، نزلت في سياق أحداث جسام مرّت بها الجماعة المؤمنة، حين تكالبت عليها قوى الأرض من كل جهة في غزوة الأحزاب. وفي هذا السياق لا تتحدث السورة عن معركة عسكرية فحسب، بل عن معركة القلوب؛ عن الإيمان حين يُختبر، وعن النفاق حين ينكشف، وعن الصادقين الذين يثبتون، والمتخاذلين الذين يتوارون.

ولهذا جاءت آياتها كاشفةً لأدقّ خلجات النفس البشرية، فترسم ببلاغة قرآنية بديعة صورة الصف حين يضربه الخوف، وتكشف كيف يُمتحن الناس عند الشدائد: من يثبت، ومن يخذل، ومن يتسلل من الصف وهو يتذرع بأعذار ظاهرها الحذر وباطنها الجبن.

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٨)

في لحظات الخطر، لا يظهر المتخاذل دائمًا بصورة العدو الصريح؛ بل قد يكون في الصف نفسه، يثبط العزائم ويزرع التردد في النفوس. هؤلاء هم المعوِّقون: لا يكتفون بالتخلف، بل يحاولون جرّ غيرهم إلى التخلف. ينسحبون من ميدان الواجب، ثم يدعون غيرهم إلى الانسحاب معهم: هلمّ إلينا.

إنها ظاهرة تتكرر في كل زمان:

أناس لا يملكون شجاعة المواجهة، فيستبدلونها بصناعة الأعذار، ويستبدلون التضحية بدعوة الآخرين إلى السلامة الزائفة.

لكن القرآن يقرر حقيقة فاصلة: الله يعلمهم.

قد تخفى نواياهم على الناس، وقد ينجحون في التستر خلف كلمات حذرة أو مواقف رمادية، لكن علم الله يحيط بهم، فلا تضيع حقيقة المواقف في ميزان السماء.

ثم يكشف القرآن أصل الداء فيقول:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾

إنها كلمة قصيرة لكنها عميقة الدلالة.

فالشحّ هنا ليس شحّ المال فقط، بل شحّ النفس: شحّ بالجهد، شحّ بالموقف، شحّ بالشجاعة، شحّ بالتضحية.

فالمنافق لا يمنع الخير عن غيره فحسب، بل يبخل حتى بما يجب عليه.

يبخل بجسده أن يقف في ميدان التضحية، ويبخل بماله أن يُنفق في سبيل الحق، ويبخل بكلمته أن ينصر بها المظلوم.

ولهذا كان الشح من أخطر أمراض النفوس؛ لأنه يحبس الإنسان داخل دائرة ضيقة من المصلحة الشخصية، فلا يرى وراءها حقًا ولا قضية.

والشحّ... جذر العجز!

ثم يرسم القرآن مشهدًا بديعًا من مشاهد النفس البشرية:

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾

إنها صورة حية: عيون تدور، ووجوه شاحبة، ونفوس مذعورة. وصف القرآن ليس لحالة خوف اعتيادية، بل لخوف يخلع القلوب.

لكن المفارقة العجيبة تأتي بعد ذلك:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

فإذا انقشع الخطر، وانتهت المعركة، وإذا الألسنة تشتدّ، والبطولات اللفظية تبدأ.

فيتحدثون بحدة، ويكثرون الادعاءات، حتى يظن السامع أنهم أهل الشجاعة والإقدام.

وهذه من أعجب ظواهر النفاق: الجبن في الميدان، والبطولة في طول اللسان!

ثم يفضح القرآن اضطرابهم الداخلي:

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾

حتى بعد انصراف الأعداء، تبقى قلوبهم أسيرة الخوف. فالقلب الذي لا يسكنه اليقين، لا يعرف الطمأنينة، ولو زالت الأخطار كلها.

بل يبلغ بهم الجبن غايته:

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾

يتمنون لو كانوا بعيدين في الصحراء، يراقبون الأحداث من بعيد، يسألون عن الأخبار دون أن يكون لهم فيها موقف.

إنهم يريدون معرفة النتائج دون أدنى جهد في صناعتها. يريدون البقاء في مقاعد المتفرجين، يحسبون ذلك هو مبلغ الأمن والأمان!

هذه الآيات ليست مجرد وصف لحادثة تاريخية، بل هي سنّة تتكرر في كل زمان.

ففي كل معركة للحق يظهر: من يثبت في الميدان. ومن يتوارى خلف الأعذار ومن يحارب بالكلمة بلا خجل من خذلانه للموقف!

لكن القرآن يطمئن المؤمنين: أن هؤلاء المتخاذلين لا يضرون الصف كثيرًا؛ لأن الله يكشفهم، ويجعل ضعفهم سببًا في تماسك المؤمنين الصادقين.

فالصف الذي يقوم على الإيمان الصادق، لا ينهدم بتخلف المترددين، بل يصفو ويشتدّ.

بل صرفهم عن الصف خير وصرف للسوء!

﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

فهؤلاء عبء لا يقدم سندًا، بل قد يعطلوا مسيرة الجهاد والعمل في سبيل الله تعالى.

وإن أعظم ما تكشفه هذه الآيات أن المعركة الحقيقية ليست مع العدو الخارجي فقط، بل مع ضعف النفس وشحّها وخوفها. فإذا تطهرت النفوس من الشح، وامتلأت يقينًا بالله عز وجل، صار الخوف نفسه طريقًا إلى الثبات.

ولهذا كان المؤمنون في الأزمات يزدادون يقينًا، بينما يزداد المنافقون اضطرابًا. فشتان بين قلبٍ يرى الأحداث بعين الخوف، وقلبٍ يراها بعين الإيمان.

فالأول يعيش الهزيمة قبل وقوعها، والثاني يعيش النصر قبل ظهوره.

وبعد أن كشفت الآيات السابقة حقيقة المنافقين عند الشدائد، تأخذنا آيات القرآن إلى الجهة الأخرى من الصورة؛ جهة النور والثبات، فقال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

كأن القرآن بعد أن فضح الضعف والنفاق، يشير إلى العلاج الأعظم: الاقتداء بالرسول ﷺ.

فالأزمات لا تعالج بالخطب، ولا بالمواعظ المجردة، وإنما تعالج بالنماذج الحية التي تجسد الإيمان في الواقع.

ولذلك لم يكن رسول الله ﷺ قائدًا يأمر من بعيد، بل كان في قلب الميدان؛ يحفر الخندق بيده، ويقف في مواجهة الخطر مع أصحابه، ويباشر الشدة بنفسه الكريمة. فإذا كان النبي ﷺ، وهو سيد الخلق، لم يتخلّف عن موطن الشدّة، فكيف يشحّ المؤمن بنفسه عن موضعٍ حضره رسول الله ﷺ؟

إن الأسوة ليست مجرد إعجاب بالسيرة، بل اتباعٌ في الهدي، واقتداءٌ في الثبات، وسلوكٌ للطريق نفسه.

ولهذا قيدت الآية هذا الاقتداء بشرطٍ بصير:

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾

فمن امتلأ قلبه برجاء الله تعالى، وخوف الحساب، صار رسول الله ﷺ قدوته الطبيعية؛ أما من غلب عليه حب الدنيا، فإنه يبحث عن أسوة أخرى تشبه هواه، ولو كانت أسوة باطلة.

ولهذا قال القرآن في موضع آخر عن الكافرين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فهم أيضًا يقتدون، لكنهم يقتدون بمن يوافق هواهم لا بمن يأخذ بأيديهم إلى مرافئ الهداية والأمان.

﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

لأن ذكر الله دليل صدق المحبة لله تعالى، وصدق الاتباع للنبي ﷺ، وأيضا لأنه من أرجى أسباب الثبات في طريق تحفّه الشدائد والفتن وتكاليف المراغمة، فمن ذكر الله كثيرًا أمسك بحبل نجاته، وهذا حال من كان يرجو الله واليوم الآخر.

ثم يعرض القرآن مشهدًا آخر يبين الفرق الكبير بين القلوب:

﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾

إنها كلمة مدهشة!

فحين رأى المنافقون الخطر ازدادوا خوفًا، أما المؤمنون فلما رأوا الخطر ازدادوا يقينًا.

لم يقولوا: كيف نجونا؟ ولم يقولوا: لماذا حدث هذا؟ بل قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله ﷺ.

لقد فهموا أن طريق الإيمان ليس طريقًا مفروشًا بالراحة، بل طريقًا تُختبر فيه القلوب وتُمتحن فيه الإرادات. لذلك فإن المؤمن لا يفاجئه البلاء؛ لأنه يعلم أن سنن الله في الأرض تقوم على الابتلاء قبل التمكين.

ولهذا قال الله بعدها:

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾

فالمحنة عند المؤمن وقودٌ للإيمان وفرصة ارتقاء، أما عند المنافق فهي سببٌ للانهيار بل كشف لما يخفي الستار!

ثم يبلغ السياق ذروة العظمة في وصف المؤمنين:

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾

إنها شهادة قرآنية خالدة.

فليست الرجولة في الهيئة ولا في الصورة، بل في الوفاء بالعهد. رجال صدقوا في لحظة الاختبار، حين يصبح الصدق مكلفًا، والثبات صعبًا.

﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾

أي مضى إلى ربه شهيدًا، وقد أدى العهد كاملاً.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾

أي ما زال في الطريق، ثابتًا على العهد، ينتظر اللحظة التي يفي فيها بما عاهد الله عليه.

لكن الأجمل في وصفهم قول الله ﷻ:

﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

لم تغيرهم السنين، ولم تضعفهم المحن، ولم تُبدّلهم المصالح ولم يرهبهم الكيد والعدوان.

ثبتوا على العهد كما ثبتت الجبال في وجه العواصف.

فهؤلاء هم الرجال حقًا؛ أما من تخلّى عن العهد، فصورته صورة رجل، لكن قلبه لم يبلغ مقام الرجولة.

ويختم الله هذه الآيات بقانونٍ إلهي عادل:

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾

فالأحداث التي تبدو فوضى في ظاهرها، إنما تجري في الحقيقة وفق ميزان دقيق. يمتحن الله بها القلوب، فيميز الصادق من المدعي، ويكشف المنافق من المؤمن.

لكن رحمة الله تظل مفتوحة؛ فحتى المنافق الذي سقط في الامتحان، باب التوبة لا يزال أمامه إن صدق ورجع.

ولهذا ختمت الآية باسمين عظيمين:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ليظل الأمل مرجوًا، والعودة ممكنة، والرحمة أقرب من اليأس. فلا إله إلا الله ما أرحمه بعبيده سبحانه!

إن هذه الآيات ترسم قانونًا ثابتًا في حياة الأمم: حين تشتد الأزمات ينكشف الصف.
ويظهر الفرق بين من يتبع النبي ﷺ أسوةً وعقيدة، ومن يتبعه شعارًا وادعاءً.
فالرجال الحقيقيون هم الذين يصدقون في العهد مع الله، ويثبتون حين يضطرب غيرهم، ويزدادون إيمانًا حين تتكاثر المحن.
أما الذين يبنون مواقفهم على الخوف والمصلحة والجبن، فإنهم يعيشون دائمًا على هامش التاريخ.

لأن التاريخ لا يصنعه المترددون،
بل يصنعه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

بعد عرض مشاهد الخوف، والامتحان، وصدق المؤمنين وثباتهم، تأتي هذه الآيات لتكشف النهاية التي قد لا يراها الناس في لحظة المحنة:

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

لقد اجتمع الأحزاب بكل قوتهم، وتكاثرت جموعهم، وظنوا أن النهاية قد اقتربت، وأن المدينة ستسقط لا محالة. لكن القرآن يكشف المفاجأة الكبرى: عادوا كما جاءوا... خائبين.

عادوا بغيظهم، لم يحققوا هدفًا، ولم ينالوا ما أرادوا.

لم ينتصروا رغم كثرتهم، ولم يغلبوا رغم قوتهم، لأن المعركة في حقيقتها لم تكن معركة عدد وعدة فقط، بل معركة سنن إلهية.

فقد أرسل الله عليهم الريح، وزعزع صفوفهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فانهارت الجموع التي كانت قبل ساعات تظن أنها لا تُغلب.

ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾

أي أن الله تولى عنهم ما عجزت عنه قوتهم البشرية، فأجرى النصر بأسباب قدَرية لا يملكها البشر. وهنا يظهر معنى الاسم الذي ختمت به الآية:

﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

قويًّا لا يعجزه شيء، عزيزًا لا يُغلب من نصره. لا إله إلا الله وحده لا شريك له!

ثم ينتقل السياق إلى مشهد آخر من نتائج تلك المعركة:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾

أي أن الذين عاونوا الأحزاب وخانوا العهد، كانوا يعتمدون على حصونهم المنيعة، ويظنون أن الجدران تحميهم. لكن حين نزل حكم الله سقطت الحصون قبل أن تسقط الجدران.

لأن الله إذا أراد أن يفتح باب الهزيمة، فتحه أولًا في القلوب.

ولهذا قال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾

فالخوف حين يدخل القلب، لا تنفع معه الحصون، ولا الجيوش، ولا الأسلحة.

ثم كانت النتيجة: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

أي أن الذين كانوا بالأمس يحاصرون المدينة، أصبحوا هم اليوم تحت حكمها.

وهكذا تتبدل الموازين حين يجري قدر الله عز وجل.

ثم يختم الله هذا المشهد بقانون آخر من قوانين التاريخ:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

فبعد الخوف جاء الأمن، وبعد الحصار جاء التمكين.

هذه سنة تتكرر في تاريخ الرسالات: فالتمكين المهيب يأتي بعد الامتحان الشديد. فالذين صبروا في لحظة الشدة، هم الذين يرثون الأرض بعد ذلك. ولهذا لم يكن النصر مجرد نجاة من المعركة، بل تحول إلى بداية مرحلة جديدة من القوة والتمكين.

فيا لجلال فضائل الإيمان والجهاد والثبات واليقين!

إذا تأملنا هذه الآيات كلها – من بداية مشهد الأحزاب إلى نهايته – فإنها ترسم لنا قانونًا عظيمًا في حياة الأمم والدعوات:

تبدأ الطريق بالمحنة. ثم يظهر فيها المنافق والمتردد. ويثبت فيها الصادقون. فإذا اكتمل الامتحان، جاء نصر الله من حيث لا يحتسب الناس.

فالذين قالوا يوم الخوف: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾

هم أنفسهم الذين رأوا بعد ذلك كيف رد الله الأحزاب بغيظهم، وكيف انقلبت الموازين في لحظات.

وهكذا يعلمنا القرآن أن النصر ليس مجرد تفوق عسكري، بل هو ثمرة صدقٍ مع الله عز وجل، وثباتٍ عند الفتن، واقتداءٍ صادقٍ برسول الله ﷺ.

فإذا وجدت هذه المعاني في أمة، فإن الهزيمة المؤقتة لا تضرها، لأن وعد الله لها في النهاية: أن يرد أعداءها بغيظهم... ويورثها الأرض بعد الصبر والابتلاء.

فاللهم اجعلنا ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. اللهم اجعلنا ممن تلهج قلوبهم وألسنتهم بـ"هذا ما وعدنا الله ورسوله"!

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

سورة الشورى من السور المكية الجليلة التي تعالج أعظم قضايا الإيمان: قضية الوحي، والتوحيد، ووحدة الرسالات، ومرجعية الحق. وهي سورة تبني في قلب المؤمن ميزانًا واضحًا بين هداية السماء واضطراب الأرض، وتقرر أن الطريق إلى الله لا يقوم على أهواء البشر، بل على الوحي الذي أنزله الله رحمةً للعالمين.

وتتجلى في هذه السورة معالم العقيدة الصافية؛ فتربط بين ملك الله للسماوات والأرض، وبين حقه المطلق في التشريع والحكم، وتبين أن اختلاف الناس لا يزيل الحق، وأن المرجع الأخير في كل أمر إنما هو إلى الله وحده لا شريك له. ومن تأمل آياتها وجدها تبني في النفس يقينًا راسخًا بأن النجاة في الاعتصام بالوحي، والهلاك في التعلق بغير الله تعالى.

ولننظر كيف تأتي هذه الآيات لتكشف حقيقة من أعظم حقائق الانحراف البشري: انحراف الولاية.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى: ٦)

إنها صورة متكررة في تاريخ البشرية: قوم يتركون ولاية الله الحق، ويتعلقون بأولياء من دونه، يوالونهم بالحب والطاعة والاتباع، حتى تصبح تلك الولاءات بديلاً عن الولاء لله عز وجل. لكن القرآن يكشف زيف هذا المشهد كله بكلمة حاسمة: هؤلاء ليسوا أولياء على الحقيقة، وإنما هي ولاية موهومة صنعها الهوى وزينها الباطل.

أما الله سبحانه فهو الحفيظ الذي لا يضيع شيئًا من أعمالهم؛ يحصيها عليهم بدقة، ثم يلقون جزاءها يوم الحساب. وفي الوقت نفسه يقرر للنبي ﷺ حقيقة رسالته: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، فالهداية ليست بالإكراه، وإنما بالبلاغ. فالرسول يبلغ، والله يحاسب.

ثم يذكر الله منته العظمى بإنزال هذا الوحي:
﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

قرآنًا واضح الألفاظ، بيّن المعاني، نزل بلسان القوم ليقيم الحجة عليهم، وليكون النور الذي يبدد ظلمات الضلال. بدأ إنذاره من أم القرى، مكة المكرمة، ثم انطلقت رسالته لتبلغ الآفاق كلها. فالوحي يبدأ من موضع، لكنه ليس حكرًا على مكان؛ إنه خطاب للإنسانية كلها.

ومحور هذا الإنذار هو يوم الجمع: اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون بين يدي الله عز وجل، يوم لا يختلط فيه الحق بالباطل، ولا تختبئ فيه النيات خلف المظاهر. هناك تنكشف الحقيقة الكبرى:

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾

تقسيم حاسم لا ثالث له، بعد أن تنتهي رحلة الاختيار في هذه الحياة.

ثم يبين القرآن أن اختلاف الناس ليس عجزًا في القدرة الإلهية، بل هو جزء من الحكمة الإلهية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾

فالله قادر على أن يجمع الناس كلهم على الهدى، لكنه أراد أن تكون الحياة ميدان اختبار؛ ليميز الصادق من المدعي، والمؤمن من المعرض. فمن اختار طريق الهداية أدخله الله تعالى في رحمته، ومن ظلم نفسه بالإعراض عن الحق حُرم الولاية والنصرة:

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وهنا يعود القرآن ليصحح أصل المسألة من جديد:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فمن ذا الذي يستحق الولاية غير الله؟! هو الذي يحيي الموتى، وهو القادر على كل شيء، وهو الذي يتولى عباده بتدبيره ورحمته. يتولى المؤمنين خاصةً فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ويربيهم بلطفه، ويعينهم على السير إليه.

أما الأولياء الذين يتخذهم الناس من دون الله فسراب؛ لا يملكون حياةً ولا موتًا، ولا نفعًا ولا ضرًا. فكيف تُترك ولاية الحي القيوم لولاية العاجزين؟

ثم تختم الآيات بقاعدة عظيمة في بناء الحياة والدين:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾

فكل خلاف في أصول الدين أو فروعه، مرده إلى الوحي: إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فما حكم به الوحي فهو الحق، وما خالفه فليس إلا ظنًا أو هوى.

وهنا يتجلى المعنى الكامل للعبودية حين يقول المؤمن:

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

فالتوكل اعتماد القلب على الله ﷻ، والإنابة رجوع القلب إليه عز وجل. وهذان الأصلان يجتمع بهما كمال العبد: أن يعبد الله ويستعين به، وأن يقصد وجهه ويعتمد عليه.

وهكذا ترسم هذه الآيات طريق النجاة بوضوح: ولاية لله وحده، واتباع للوحي، وردٌّ لكل خلاف إلى حكم الله عز وجل، وتوكل صادق علي سبحانه، وإنابة دائمة إليه جل في علاه. فمن استمسك بهذا الطريق اهتدى، ومن التمس الولاية في غيره تاه في متاهات التاريخ التي ما زالت تعيد أخطاءها جيلاً بعد جيل.

وتتواصل آيات سورة الشورى في بناء هذا التصور الرباني الشامل، فبعد أن قررت حقيقة الولاية لله وحده، ومرجعية الحكم إلى وحيه، تنتقل إلى آفاق أوسع من التعريف بعظمة الرب الذي يستحق هذه الولاية والطاعة.

يقول تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

إنها كلمة تفتح أبواب التأمل في أصل الوجود كله. فالله هو الفاطر؛ الذي شقّ ظلمة العدم فأوجد السماوات والأرض بقدرته وحكمته، لا عن مثال سابق، ولا بمعين أو شريك. فإذا كان هذا الكون العظيم كله أثرًا من آثار قدرته، فكيف يُعدل به غيره في الولاية أو العبادة؟

ثم يلفت القرآن النظر إلى آية قريبة من حياة الإنسان اليومية، لكنها تحمل سرّ استمرار الحياة:

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾

ليست الحياة البشرية سلسلة أفراد متفرقة، بل بناء متكامل يقوم على السكن والمودة والرحمة. فالزوجية ليست مجرد نظام اجتماعي، بل آية من آيات الحكمة الإلهية؛ بها يستقر القلب، وتستمر الذرية، وتتجدد الحياة جيلاً بعد جيل.

ثم يمد هذا النظام نفسه إلى عالم الحيوان:

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾

فهو نظام كوني شامل، تنتظم به حياة البشر والدواب معًا، فيتكاثر الخلق وتستمر النعمة. ولهذا قال:

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾

أي يبثكم ويكثركم في هذا النظام البديع الذي جعله الله تعالى سببًا لعمران الأرض.

لكن وسط هذه الآيات الكونية العظيمة تأتي القاعدة الكبرى في العقيدة:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

فهو الخالق الذي لا يشبهه مخلوق، ولا يقاربه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وكل ما يخطر ببال الإنسان من صور الكمال فالله أعظم منه وأجل.

ومع تنزيهه المطلق عن المماثلة يثبت القرآن صفات الكمال له:
﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يسمع اختلاف الأصوات على تعدد اللغات وتنوع الحاجات، ويرى خفايا الوجود ودقائقه؛ يرى دبيب النملة في ظلمة الليل، كما يرى حركات الكواكب في فضاء السماء. فليس في هذا الكون سرّ يغيب عن علمه، ولا حركة تفلت من بصره ﷻ.

ثم ينتقل السياق إلى حقيقة أخرى من حقائق الربوبية:
﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

أي له مفاتيح الملك كله؛ مفاتيح الرحمة والرزق، والنفع والضر، والعطاء والمنع. فالخلق جميعًا مفتقرون إليه في كل لحظة، لا يملكون لأنفسهم رزقًا ولا حياة ولا نجاة إلا بإذنه.

ولهذا قال سبحانه: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يوسّع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، لا عبثًا ولا ظلمًا، بل بعلمٍ محيط وحكمة بالغة. فقد يكون التضييق رحمة، وقد يكون التوسيع ابتلاء، وكل ذلك يجري تحت علم الله الذي لا يغيب عنه شيء:

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم تبلغ الآيات ذروة الامتنان الإلهي على البشرية، حين تذكر أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده: نعمة الدين.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾

إنه دين واحد عبر التاريخ؛ وصية الله لنوح، ووحيه لمحمد ﷺ، وما أوصى به إبراهيم وموسى وعيسى. اختلاف الشرائع في بعض التفصيلات، لكن الأصل واحد: عبودية الله وحده، وإقامة الدين على أساس التوحيد.

ولهذا جاءت الوصية الجامعة:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

إقامة الدين ليست مجرد اعتقاد في القلب، بل قيام شامل بشريعته وأخلاقه وعباداته، في النفس والمجتمع والحياة كلها. كما أن وحدة الدين تقتضي وحدة الأمة، فلا تتحول الخلافات الجزئية إلى رايات تفرق القلوب وتمزق الصفوف.

لكن هذه الدعوة إلى التوحيد الخالص كانت دائمًا ثقيلة على قلوب المشركين:
﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾

لأن التوحيد يهدم كل الأصنام التي تعلقت بها النفوس، سواء كانت أصنام حجارة أو أصنام شهوات أو سلطات.

ومع ذلك فإن الهداية ليست بعيدة على من صدق في طلبها، فالله عز وجل يقول:
﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

فالاجتباء فضل من الله تعالى، لكن طريقه يبدأ من قلبٍ منيب؛ قلبٍ يرجع إلى ربه، ويتجه إليه بصدق، فيفتح الله له أبواب الهداية.

ثم تحذر الآيات من مرض قديم يتكرر في تاريخ الأمم: مرض التفرق بعد العلم.
﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

لم يكن سبب اختلافهم الجهل وحده، بل البغي والحسد وطلب العلو في الأرض. حين يدخل الهوى إلى قلوب أهل العلم يتحول العلم نفسه إلى ساحة نزاع.

وفي قوله ﷻ بشأن توقيت الاختلاف، "بعد ما جاءهم العلم"، تشخيص دقيق لما تفعله الأهواء بالنفوس والناس!

ولو شاء الله لعجّل لهم العقوبة، لكنه أمهلهم بحلمه:
﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم يخبر عن حال من جاء بعدهم من ورثة الكتب، فإذا بهم يقعون في لون آخر من الضلال:
﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

فالأولون اختلفوا بغياً، والآخرون اختلفوا شكًا وارتيابًا، وكلا الطريقين يفضي إلى التفرق والضياع.

وهكذا ترسم هذه الآيات لوحة متكاملة: إلهٌ خالقٌ متفرد بالكمال، بيده مفاتيح الكون، أنعم على عباده بالدين الواحد الذي يجمع القلوب، وحذرهم من مصير الأمم التي فرقت دينها بعد العلم.

فمن عرف ربَّه بهذه الصفات، وعرف نعمة الدين بهذه الحقيقة، علم أن أعظم النجاة أن يقيم الدين في نفسه، ويحفظ قلبه من البغي والهوى، حتى لا يكون من أولئك الذين عرفوا الحق ثم تفرقوا عنه.

وتتابع آيات سورة الشورى بعد ذلك لترسم للنبي ﷺ ولأمته طريق الدعوة في عالم يموج بالاختلاف والجدال. فبعد أن بُيِّنت أصول العقيدة، وحُدِّدت مرجعية الحق، جاءت الوصية الجامعة التي تختصر منهج الرسالة كلها:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

فلأجل هذا الدين العظيم، ولأجل هذا الوحي الذي أنزله الله تعالى هدايةً للناس، فلتكن الدعوة قائمة لا تفتر، ولتكن الاستقامة ثابتة لا تميل. فالدعوة بلا استقامة دعوى فارغة، والاستقامة بلا دعوة انكفاء على النفس؛ ولذلك جمع الله بينهما: إصلاح النفس أولًا، ثم إصلاح الخلق بعد ذلك.

وليست الاستقامة مجرد ميل عاطفي إلى الخير، بل هي التزام دقيق بأمر الله عز وجل: بلا إفراط ولا تفريط، بلا خضوع لضغط الواقع أو هوى الناس. ولهذا جاء التحذير الصريح:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾

فالأهواء هي الطريق الذي ضلت به الأمم من قبل؛ حين تركت الوحي واتخذت أذواق البشر ومصالحهم ميزانًا للحق. ولهذا لم يقل الله تعالى: لا تتبع دينهم، لأن الدين الذي أنزله الله واحد في أصله، ولكنهم هم الذين حوّلوه إلى أهواء متفرقة.

ثم يرشد القرآن إلى منهج الحوار مع المخالفين، فيقول:
﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾

فأساس المناظرة ليس التعصب لاسم أو جماعة، بل الإيمان بكل ما أنزل الله تعالى من الكتب حقًّا. وهذا إعلان لعالمية الإسلام وشموله؛ فهو لا ينكر رسالات الله السابقة، بل يصدقها ويضعها في موضعها الصحيح.

ثم يعلن النبي ﷺ غاية دعوته:
﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾

فالعدل هو روح الرسالة، وهو الميزان الذي تُوزن به الأقوال والمواقف. فلا يحمل الداعية بغض قوم على أن يجور عليهم، ولا يمنعه اختلافهم عن إنصافهم. فالله رب الجميع، والناس جميعًا عباده:
﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

ثم يضع القرآن حدًّا للجدال العقيم بعد وضوح الحق:

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾

أي إذا ظهرت الحجة وانكشف الطريق، لم يبق للمراء موضع. فالمجادلة إنما شُرعت لإظهار الحق، فإذا بان الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لأن النهاية ليست في ساحات الجدل، بل في يوم اللقاء:

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

وهنا يكشف القرآن حال أولئك الذين يصرّون على الجدل بعد وضوح الدليل:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾

أي يجادلون في الحق بعدما استجاب له أهل العقول والبصائر، وبعدما قامت البراهين القاطعة. هؤلاء لا يبحثون عن الحقيقة، بل يدافعون عن أهوائهم. ولذلك حكم القرآن على حجتهم حكمًا قاطعًا:

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

أي ساقطة باطلة، لأن كل حجة تخالف الحق فهي باطل مهما زخرفت بالألفاظ أو لبست ثوب العقل.

ومن كان هذا حاله فمصيره معلوم:

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

لأنهم لم يجهلوا الحق، بل أعرضوا عنه بعد أن عرفوه.

ثم تعود الآيات إلى أصل القضية كلها، فتذكر مصدر الحق الذي يحتكم إليه الناس:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾

فالكتاب هو الوحي الذي يبين الحقائق، والميزان هو العدل والعقل الصحيح الذي يزن الأقوال والأعمال. وباجتماعهما يستقيم ميزان الحياة: وحي يهدي، وعقل يزن.

فكل دليل يخرج عن هذين الأصلين – عن الوحي والميزان – فليس إلا شبهة متهاوية، مهما تلونت بعبارات براقة أو حجج ظاهرها القوة.

ثم يوقظ القرآن القلوب بحقيقة قريبة قد تغيب عن الناس:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

فالساعة ليست حدثًا بعيدًا في آخر التاريخ، بل احتمال قائم في كل لحظة. وما من جيل ظنها بعيدة إلا فاجأه الموت قبلها.

ولهذا يختلف موقف الناس منها اختلافًا عجيبًا:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾

يطلبونها استهزاءً وتكذيبًا، كأنهم يتحدون الوعد الإلهي. أما المؤمنون فحالهم على النقيض تمامًا:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾

خائفون منها، لا لأنهم يشكون في وقوعها، بل لأنهم يوقنون بها، ويعلمون ما فيها من حساب وجزاء. ولهذا قال تعالى:

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾

حق لا مرية فيه، ووعد لا يتخلف.

ثم يختم السياق بحكم صارم على من يجادل في أمرها:

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

وأي ضلال أبعد من إنكار الدار التي خُلق الخلق لأجلها؟ دار البقاء والجزاء، التي تتجلى فيها عدالة الله وفضله ﷻ.

أما هذه الدنيا التي يختلف الناس عليها ويتنازعون من أجلها، فما هي إلا ظل عابر؛ كراكب استظل بشجرة ساعة ثم مضى وتركها. لكنها مع قصرها هي ميدان الاختبار، والطريق الذي يحدد مصير الإنسان في تلك الدار الباقية.

وهكذا تعود بنا آيات سورة الشورى إلى حقيقتها الكبرى:

دينٌ واحد من عند الله عز وجل، دعوة قائمة على الاستقامة والعدل، وميزان من الوحي والعقل، ونهاية حتمية عند يوم الجمع حيث ينكشف كل شيء. فمن استمسك بالوحي اهتدى، ومن تبع الهوى ضل، ومن تذكر الآخرة استقام، ومن نسيها تاه في جدل الدنيا الذي لا ينتهي.

ثم تمضي الآيات في سورة الشورى لتكشف وجهًا آخر من وجوه ربوبية الله تعالى، وجهًا يجمع بين الرحمة والقدرة، وبين اللطف والقوة، فيقول سبحانه:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾

إنها كلمة تختصر عالمًا واسعًا من عناية الله بخلقه. فاللطف الإلهي ليس مجرد رحمة ظاهرة، بل تدبير خفيّ يسري في حياة الإنسان من حيث لا يشعر. لطفٌ يدرك خفايا الصدور، ويعلم دقائق النفوس، ويهيئ لعباده أسباب الخير قبل أن يخطر لهم في بال.

كم من إنسان ساقه الله إلى طريق الهداية بأسباب لم يكن يتوقعها، وكم من بلاءٍ ظنه العبد شقاءً فإذا به باب نجاة، وكم من حرمانٍ ظنه خسارة فإذا هو عين العطاء. فربما صرف الله تعالى عن عبده مالًا أو جاهًا أو سلطانًا، لأنه يعلم أن في ذلك هلاكه، فيضيق عليه رزقه ليحفظ عليه قلبه ودينه.

ولهذا قال سبحانه:

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾

فالرزق ليس مجرد حسابات مادية، بل هو تدبير رباني يجري على مقتضى الحكمة واللطف. يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا لعجزٍ ولا لبخل، بل لأنه القوي العزيز الذي بيده خزائن السماوات والأرض، لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء.

ثم يكشف القرآن قانونًا عظيمًا من قوانين الحياة، قانون المقاصد والنيات:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾

فالحياة أشبه بحقلٍ واسع، والناس فيه زُرّاع. كل إنسان يزرع بعمله ونيته، لكن اختلافهم في المقصود هو الذي يحدد مصير الحصاد. فمن جعل الآخرة غايته، وسعى لها سعيها، فإن الله تعالى لا يكتفي بقبول عمله، بل يضاعفه ويباركه ويزيده أضعافًا كثيرة.

أما من ضاقت همته فلم يرَ أبعد من حدود الدنيا، فجعلها غاية قلبه ومقصود جهده، فإن الله تعالى يعطيه منها نصيبه الذي قدره له، لكنه يخرج من الدنيا خالي الوفاض من نصيب الآخرة:

﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾

وهنا تتجلى المفارقة الكبرى: من طلب الآخرة نال خير الدارين، ومن طلب الدنيا وحدها خسر الآخرة وإن ظفر ببعض متاعها.

ثم تعود الآيات إلى أصل الضلال الذي وقع فيه المشركون، فتقول:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾

فالمشكلة لم تكن مجرد شرك في العبادة، بل تعدّت ذلك إلى الشرك في التشريع؛ حين جعل الناس لأنفسهم أو لغيرهم حقَّ وضع الدين، وتحليل الحرام وتحريم الحلال.

وهذا أعظم صور الانحراف، لأن الدين في حقيقته عهد بين العبد وربه، لا يُؤخذ إلا من الوحي الذي أنزله الله تعالى. فإذا صار التشريع تابعًا للأهواء، تحولت العبادة إلى تقاليد، وتحول الدين إلى أداة في يد البشر.

لكن الله بحكمته أمهلهم، فلم يعجل لهم العقوبة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾

أي لولا الأجل الذي قضى الله تعالى أن يؤخر إليه الحساب، لعُجّل الحكم بين الحق والباطل. ولكن العدل الكامل مؤخر إلى ذلك اليوم العظيم الذي يجتمع فيه الخلق جميعًا.

ولهذا يختم التحذير بقوله:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

عذاب ينتظر كل من ظلم نفسه بالشرك أو بالتحريف في دين الله عز وجل.

وهكذا، إذا اجتمعت هذه الآيات كلها في سياقها، ظهرت لنا لوحة إيمانية متكاملة ترسم معالم الطريق بوضوحٍ لا لبس فيه.

تبدأ السورة بتقرير الولاية لله وحده، وتنتهي بإظهار لطفه بعباده؛ وبين البداية والنهاية تمتد رحلة العقيدة كلها: دعوة إلى الاستقامة، وتحذير من الأهواء، وبيان لمرجعية الوحي، وتذكير بيوم الجمع، وكشف لقوانين الهداية والضلال، وفضح لأوهام الذين يجعلون الدين تابعًا لأهوائهم.

فالله هو الخالق الذي ليس كمثله شيء، وهو الملك الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو المشرِّع الذي شرع الدين لعباده، وهو الحكم الذي تُرد إليه الخصومات، وهو اللطيف الذي يدبر شؤون عباده، وهو القوي العزيز الذي لا يُغلب.

والناس في ضوء هذه الحقائق فريقان لا ثالث لهما:

فريق جعل قلبه للآخرة فزرع لها، فسقاه الله بلطفه وزاده من فضله حتى يلقى حصاده يوم القيامة مضاعفًا.

وفريق انشغل بحَرث الدنيا وحدها، فأخذ منها ما كُتب له ثم وقف يوم الحساب بلا زاد.

فالسورة كلها نداء واحد يتردد في أعماق القلب: أن اجعل ولاءك لله عز وجل، ومرجعك إلى وحيه ﷻ، وقصدك إلى آخرته سبحانه، واستقم على طريقه وحده لا شريك له، ولا تغتر بزينة دنيا عابرة، فإن النهاية المحتومة يوم يجمع الله الخلق جميعًا، ويظهر الحق ظهور الشمس، ويعلم كل إنسان يومئذ أيَّ زرعٍ كان يزرع.

اللهم ثبتنا على سبيل الاستقامة كما تحب وترضى، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن وأيدنا بنصرك وبالمؤمنين، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، واختم لنا بخاتمة الشهادة في سبيل الحق والشهادة!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

سورة الحديد، سورة تنبض آياتها قوة وحكمة، وتقدم بوصلة لكل مؤمن يسعى لفهم معاني الحياة، والدار الآخرة، والرباط بين الإيمان والعمل. ففي هذه السورة، تتجلى قدرة الله عز وجل، وعظمته، وتتضح سنن التغيير والتحذير، وتبرز قيمة الخشوع، والإحسان، والصدق في القول والعمل. إنها سورة ترفع القلوب عن دنو الغفلة، وتوجه العقول إلى التأمل في الحقائق الكبرى: الحق والباطل، الحياة الدنيا والآخرة، قوة الله تعالى ورعايته سبحانه لعباده.

يقول الله عز وجل مخاطبا المؤمنين خطابًا يتصدع له القلب!

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)

إن هذه الآية تذكّرنا بأن الخشوع ضرورة لحياة القلب. فالقلوب تحتاج أن تنقاد لله تعالى، وتتذكر آياته وحكمته باستمرار، كي لا تقتصر حياة الإنسان على الروتين الدنيوي، فتقسو القلوب ويضيع اليقين. إن المؤمن الحق هو الذي يحيي قلبه بالذكر،

ويجعل القرآن مرآة لنفسه، فلا يكون كالذين أوتوا الكتب السابقة، فانطمس نورهم مع طول الزمن وغفلة القلوب.

ثم يوضح الله حكمة سنن الحياة والموت والبعث فيقول ﷻ:
﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

هنا تتجلى قدرة الله المطلقة على الإحياء والتغيير: كما يحيي الأرض بعد موتها بماء المطر، يحيي القلوب الميتة بالإيمان والحق. إنها دعوة للتفكر بأن كل ما نراه من ضعف أو غفلة يمكن أن يتحول بنور الحق واليقين، وأن القوة الحقيقية ليست في المادة وحدها، بل في الإحياء بالقيم والمعاني التي رسمها الله لعباده.

ثم يؤكد تعالى على أثر العمل الصالح وصدقات القلب فيقول تعالى:
﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

فالإنفاق في سبيل الله تعالى ليس مجرد فعل مادي، بل استثمار روحي وقلبي، يضاعف الله له أضعافا ويمنحه مكانة كريمة في الجنة. إنه تذكير بأن القوة الحقيقية في العمل الصالح، والبركة في تقديم الخير للآخرين، وهي وسيلة لإحياء القلوب، وإظهار اليقين في الحق. والقلوب المنفقة، كريمة بأصلها، تشد الأزر وتكرم وتجبر وتمد يد العون، فتنعكس بركات ما تقدمه من خير أمنا وسعادة في المجتمعات المسلمة.

وأخيرًا، يربط الله بين الإيمان الكامل، والجهاد في سبيله، والجزاء الأوفى فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

إن هذه الآية تجمع بين الإيمان والعمل والجزاء: فالصدّيقون هم الذين جمعوا بين العلم بالله واليقين والعمل الصالح، والشهداء هم الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم لنصرة الحق، وأصحاب الجحيم هم الذين كذبوا وآثروا الباطل. فالآخرة معيار حقيقي، والقيم العملية هي التي تحدد المصير الأبدي، وليس مجرد الأقوال أو العبارات الخالية من العمل.

وهكذا، من سورة الحديد نتعلم أن الخشوع للحق، واليقين بالقوة الإلهية، والعمل الصالح، والصدقة، والجهاد في سبيل الله تعالى، هي وسائل لإحياء القلوب، ولصناعة مجتمع متماسك وقوي، قادر على مواجهة التحديات. إنها دعوة للتفكر في السنن الإلهية: كما تحيا الأرض بالمطر، تحيا القلوب بالحق، وكما يُجازى المؤمن بالصدق والعمل، يُحاسب الغافل على قسوته وغفلته.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان حقيقة الحياة الدنيا فيقول الله تعالى:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

إن هذه الآية تكشف واقع الدنيا المظهر الزائف والباطن الغادر. فهي لعب ولهو يلهو بها الإنسان عن ذكر الله تعالى، وزينة تجعل القلوب تغتر، وتفاخر بين البشر في المال والأولاد، وكلها أمور عابرة لا تخلد. والدنيا كما الغيث الذي يبهج الأرض، لكنه سرعان ما ييبس ويزول، كذلك الدنيا مهما صنعت زينتها الإعجاب، فإنها فانية. أما من جعل قلبه لله تعالى، فسعى للآخرة بالعمل الصالح، فستكون هذه الأعمال كالمطر الدائم الذي يحيي القلب ويرتقي به إلى نور الله تعالى ورضوانه.

ثم يحث الله تعالى عباده على المسابقة إلى مغفرته وجنته العظيمة:

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

إنها دعوة إلى العمل المخلص، والسعي الجدّي، والحرص على رضا الله تعالى بكل أفعالنا. فمن اتبع السبيل الصحيح، وابتغى مغفرة الله عز وجل، عمل الخير في عبادته ومعاملاته، وحرص على رضوان الله ﷻ، فإن الله سيمنحه فضلًا عظيمًا وأجرًا كريمًا،

فلا يُقارن ما يناله من الدنيا بما يُحفظ له في الآخرة، فذلك فضل لا يحصي، وعطاء لا يُحد.

ثم يطمئن الله تعالى عباده بحكمته في قضائه وقدره:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

إنها تأكيد على أن كل ما يحدث في الكون، من خير أو شر، مكتوب في اللوح المحفوظ. فلا يأس على ما فات، ولا فخر بما أُعطي، فكل أمر بقدر الله وعلمه مسبق، وما علينا إلا أن نرتقي بفهمنا ونحسن تعاملنا مع ما قدره الله لنا.

ويختتم الله تعالى بالتوجيه الشافي:

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

إن هذه الآية تضع الاعتدال واليقين في قلب المؤمن: فلا يغتر بالرزق ولا ييأس من فقده، فلا يرفع الغرور والكبر في النفس، بل يكون شاكراً لله تعالى في نعمه، صابراً في محنه، عارفًا بأن كل شيء تحت قدرة الله وعلمه ﷻ.

من هذه الآيات الجليلة، ندرك أن الدنيا زائلة، والآخرة باقية، وأن العمل الصالح هو الذي ينفع القلوب والأنفس ويثبتها على الحق. فكما يذهب الغيث ويعود، كذلك الأحوال تتغير، وما ينفع الإنسان حقًا هو ما زرع من الإيمان والعمل والصدق والتقوى.

إن من فهم أن الدنيا متاع غرور، والآخرة دار القرار، وأن فضل الله تعالى لا يُحصى، وقدره شامل لكل شيء، قد وصل إلى حكمة الحياة الكبرى، وعرف الطريق للخشوع والرضا والسعي الصادق في سبيل الله عز وجل. فلتكن هذه الآيات نورًا لكل قلب، وهداية لكل عقل، وذريعة لكل عمل صالح، يرفع الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان ويجعله من أهل المغفرة والرضوان والفلاح الأبدي.

سورة الحديد، هذه السورة المباركة، تفيض بحكم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وتكشف عن سنن الحياة، وسبل الرشد للقلوب والعقول، وتضع أمام الإنسان خارطة واضحة للفلاح والخسران. في هذه الآيات تتجلى عظمة العدل الإلهي، وامتلاك الله لكل فضل، وقوة الإيمان والعمل الصالح، وكيف أن من يتوكل على الله، ويترك البخل والطغيان، ينال السعادة والرضوان.

يحذر الله تعالى فيها من الصفات الذميمة للبخل والطغيان فيقول ﷻ:

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

فالذين يجمعون بين البخل ومنع الحقوق، ويأمرون الناس بالبخل، ينكشف عندهم إعراض عن طاعة الله تعالى، وانحراف عن العدالة الاجتماعية. أما من تولّى عن طاعة الله تعالى، فضرره على نفسه لا على الله عز وجل، فهو الغني الحميد، الذي له ملك السماوات والأرض، وقادر على أن يقيم الدين بالعدل والقسط.

ثم يبين الله دور الرسل والكتب السماوية في إقامة القسط والعدل بين الناس، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

فالرسل جاءوا بالبينات، والكتب والميزان، ليعلّموا الناس العدل في الأقوال والأفعال، والقيام بالقسط في الحياة والدين. وقد أنزل الله تعالى الحديد ليكون أداة قوة ومنافع للبشر، معبرة عن القدرة الإلهية في نصرة الحق وتحقيق العدل، ليعلم من ينصر الله ورسله ﷺ بالغيب قبل الشهادة العملية. وهنا وصف مهيب لعبادة الإعداد والجهاد

بذكر الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، والحق لابد أن تكون له قوة! فلا يليق بالحق إلا العزة!

ثم يذكر الله تعالى مثالاً على ثبات النبوة والضلال البشري:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

فالأنبياء من ذرية نوح وإبراهيم، أنزلت لهم الكتب والهدى، ومن اتبعهم اهتدى، ومن غفل عن هداهم فاسق. وهكذا يبين الله تعالى أن الاختيار بين الحق والباطل قائم دائمًا، وأن مسؤولية كل فرد واضحة أمام نفسه وربه. وسبحان الله كيف يدعونا وصف الضالين للتفكر، "وكثير منهم فاسقون" فما أكثر الفاسقين في كل زمان تعارض فيه رسالة الأنبياء!

ثم يعرض الله تعالى حالة أتباع عيسى عليه السلام، ويبين أنهم إن ابتدعوا الرهبانية من أنفسهم، ولم يوفوها حقها، فبقيت النية والإيمان جزءًا من القسط، والجزاء عند الله لمن اهتدى من بينهم. قال الله عز وجل:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

فهذه الآية تذكرنا بأن النية والإيمان والعمل الصالح هما معيار الفلاح، وليس مجرد التقليد أو الابتداع الفارغ.

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى والإيمان بالرسل، ليُعطوا نصيبين من الرحمة، ونورًا يمشون به، ومغفرة واسعة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

إنها دعوة واضحة للالتزام بكل أصول الدين وفروعه، لتكون الحياة نورًا، والقلوب مستقيمة، والأعمال صالحة، والآخرة مأوى للرحمة والمغفرة.

ثم يختم الله تعالى بتأكيد أن الفضل كله بيده سبحانه، وأنه يُعطي من يشاء، فلا يمكن لأحد أن يحجز فضله:

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

فهذه الآية تضع حدود غرور البشر، وتعلن أن كل فضل وكرامة ومغفرة بيد الله وحده ﷻ، وأن ما أعده الله للمؤمنين لا يمكن لأحد أن يمنعه أو يقيده. فما أسفه من يحتكر الفضل في نفسه أو في جماعته!

ومن هذه الآيات يتجلى نور الله في الدنيا والآخرة، فتتضح حقيقة الحياة الدنيا: زائلة، متاعها غرور، لا يصلح لها إلا القلوب الغافلة، بينما العمل الصالح والإنفاق والجهاد بصدق وإخلاص، فيثبت الإنسان في طريق الحق. والثبات على الإيمان يتطلب هذه الأسباب فلابد من العناية بها.

وتظهر سنن الله في الكون: من يحسن القسط والعدل ينصره، ونلاحظ ذلك الربط الوثيق بين الحق والعدل، فلا يمكن أن ننصر الحق بالظلم ولا يمكن أن نقيم العدل بدون حق! ومن يغفل عن الحق يضل عن طريقه، وكل ما يحدث مكتوب ومقدر بدقة.

ويتبين فضل الله العظيم: هو الغني الحميد، ذو القوة والعزة، وهو الذي يعطي من يشاء من عباده النور، والرحمة، والمغفرة، والفضل العظيم.

ومن فهم هذا التدبر، ووعى أن الدنيا مجرد امتحان، والآخرة دار القرار، وأن كل فضل في يد الله عز وجل، وأن الإيمان والعمل هما سبيل النجاة، أدرك أن الطريق إلى

السعادة الحقيقية ليس بالمتاع الزائل، بل بالعمل الصالح، بالخشوع، بالعدل، بالصدق، والسعي لنصرة الحق واتباع الهداة من الرسل عليهم السلام.

فالإنسان الذي يمشي في هذه الحياة بقلب خاشع، ويد عاملة صالحة، إنفاقًا وجهادًا، وعقل متفكر، يكون مستعدًا ليوم القيامة، محاطًا بنور الله عز وجل، محفوظًا من الغرور، مستحقًا لفضله العظيم، مشاركًا في القسط والعدل الذي أراده الله للبشرية.

فاللهم اجعل قلوبنا خاشعة لذكر الله ولما نزل من الحق، وجوارحنا وأجسادنا فداء لنصرة الله ورسوله ﷺ. وآثارنا شاهدة على الصدق والإخلاص. اللهم مرتبة الصديقين والشهداء.

﴿أولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

سورة الأنفال مدرسة ربانية لصناعة العزة، وميزان حق مهيب، تُلخص معالم النصر والهزيمة، والولاء والبراء، والرحمة والحزم. في تكامل يتصدع له القلب. هي السورة التي نزلت في لحظة فاصلة من تاريخ الأمة، يوم انتقل الإسلام من الاستضعاف إلى التمكين، ومن الفكرة إلى الدولة، ومن الإيمان المجرد إلى الإيمان الذي يبني واقعًا ويصنع حضارة.

فيها يتجلّى هدي السماء في إدارة الصراع، وضبط العواطف، وتقويم القلوب قبل تقويم الصفوف. ومن تدبرها أدرك أن النصر لا ينزل صدفة، وأن التمكين ليس هبة عشوائية، بل هو ثمرة سننٍ إلهية، إذا تحققت في القلوب تجلت في الواقع.

يقول الله عز وجل في خواتيم هذه السورة الجليلة المهيبة:
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠)

هكذا تبدأ الآيات بفتح باب الأمل حتى في قلب الأسير في حرب ... فليس الميزان في الإسلام ما يبدو من ظاهر الحال، بل ما استقر في أعماق القلب. قد يكون الإنسان

في صف الباطل ظاهرًا، لكنه يحمل في داخله بذرة خير لو سُقيت بالإيمان لأثمرت هداية وحسن استجابة.

إنها رسالة عظيمة: أن الله عز وجل لا يغلق الأبواب بسبب الماضي، بل يفتحها بقدر ما في القلوب من صدق. وأن الخسائر التي يراها الناس نهاية، قد يجعلها الله تعالى بداية لعطاء أعظم: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

فما يُؤخذ منك في طريق الله عز وجل ... يُعاد إليك مضاعفًا، ولكن بعد أن تُصفّى نيتك وتصدق مع ربك!

ثم يأتي التحذير الواقعي:

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

هنا توازن عجيب بين الرحمة والحزم. فالإسلام لا يبني سذاجة، ولا يدعو إلى السطحية! بل يعلّمك أن تفتح باب الخير، لكن دون أن تُسقط حسابات الواقع. فالخيانة ليست حدثًا طارئًا، بل نمطٌ متكرر لمن لم يُطهّر قلبه. ومن خان الله من قبل، لا يُستبعد أن يخون خلقه. لكن الطمأنينة في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي أن كل ما يجري في هذا الصراع، مضبوط بعلم الله وحكمته ﷻ، فلا تخف من مكرهم، فالله أقدر، ولا تقلق من تدبيرهم، فالله أحكم. وفي ذلك طمأنة مهيبة للقلوب المتوكلة على ربها، فالله سبحانه يعلم كل شيء ويجعل تدبير الظالمين في نحورهم!

ثم تنتقل الآيات لبناء الأمة لا الفرد فقط:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

هنا يُرسم نموذج الأمة الحقيقية: إيمانٌ يدفع إلى تضحية، وتضحيةٌ تُثمر نصرة، ونصرةٌ تُنشئ ولاية صادقة بين القلوب. تلك العلاقة التي تصنعها الهجرة والنصرة في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى، أعظم رابطة إنسانية!

فليست الأخوة في الإسلام شعارًا عاطفيًا، بل عقدٌ يُبنى على مواقف الهجرة والجهاد والنصرة والبذل.

ولهذا لم يجعل الله الولاية لمن آمن فقط دون أن يتحمل تبعات الإيمان، فقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُو﴾، وكأن الرسالة المختصرة تؤكد أن الإيمان الذي لا ينعكس موقفا حقيقيا عند الحاجة، إيمان ناقص الأثر في بناء الأمة.

ثم يأتي ضبط دقيق للموازين:

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾

حتى في أشد لحظات الصراع، لا يُسمح للمؤمن أن يخون عهده. فالعدل في الإسلام ليس اختيارًا، بل فريضة، والوفاء ليس خُلُقًا ثانويًا، بل أصلٌ من أصول الدين.

وهنا يتجلى سمو هذا الدين وهيبة عدالته: ينصرك، لكنه لا يسمح لك أن تظلم. يقوّيك، لكنه لا يبيح لك أن تخون. فيا لهذا الجمال ويا لهيبة هذا الحق والعدل! وهو سبيل النصر حقا، لا سبيل الغمط والبخس والخذلان والتفلت!

ثم تكشف الآية التالية قانونًا خطيرًا في الصراع:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

إنهم يتناصرون رغم اختلافهم فكيف ينهزم المؤمنون وهم يجتمعون على الحق؟!

ثم يأتي التحذير الصادم:

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

أي إن ترك موالاة المؤمنين، وتمييع الحدود بين الحق والباطل، ليس مجرد خطأ بل هو سبب مباشر لفساد شامل، تختلط فيه المفاهيم، وتضيع فيه الهويات، وتُهدم فيه معالم الدين. ولذلك وصفه الله ﷻ بفتنة في الأرض وفساد كبير، ولذلك أيضا، يكون التهاون في أمره من أسباب فتنة الناس والإفساد في الأرض.

هذه الآيات تلخص لنا حقيقة سنن تتداول. وتعلمنا أن النصر يبدأ من القلب وصدقه، وأن الصف لا يقوم إلا على صدق التضحية والإيثار والبذل وتعاون المؤمنين على البر والتقوى، وأن الأمة لا تُبنى بالمشاعر، بل بالمواقف، وأن الرحمة لا تُلغي الحذر، وأن العدل لا يسقط في زمن الصراع وإن اشتد. فكل هذه مقامات عبودية لله الواحد الأحد.

فإذا أردنا تمكينًا كتمكين بدر، فلنبحث أولًا: هل في قلوبنا "خير" يستحق وعد الله عز وجل؟

وهل في صفوفنا "ولاية" تستحق نصره؟ وهل في واقعنا "تمييز" بين الحق والباطل يحفظ الأمة من الفتنة؟

عندها فقط ينعكس العمل بهدي الآيات واقعا يشفي صدور المؤمنين.

وإقامة النفس على هدي هذه الآيات الجليلة من الفقه والبصيرة وأسباب النصر! وكل تهاون في جزء منها هو تأخير لموعد النصر! فطوبى للصادقين الذين يحفظون شرف الإيمان والجهاد في النفوس وميادين المسابقة، ويوفون لكل مقام حقه، بالحق والعدل، والذين يبقون معالم الحق بارزة ظاهرة، لا تشوشها الفتن ولا تطمسها الأهواء، إلى آخر رمق..!

ثم تنتقل الآيات من بيان العلاقات إلى تعريف الحقيقة:
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

إن أكثر ما يأسر القلب في وصف الله تعالى للمؤمنين في هذه الآية، وهو وصفهم بالمؤمنين "حقًا."

وكأن الإيمان مراتب، وليس كل من ادعاه بلغه. إنه تعريف ثقيل لا يُنال بالادعاءات، بل يُثبت بالأعمال: إيمانٌ ينعكس صدقه في هجرة، وهجرةٌ تتحول إلى جهاد، وجهادٌ يُثمر نصرة، ونصرةٌ تُقيم أمة.

فهؤلاء لم يكتفوا بأن "يؤمنوا" بل صدّقوا إيمانهم بحركة في الواقع، وتضحية في الطريق، وثبات عند الابتلاء. ولهذا استحقوا هذا الوسام الرباني: ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وقد ورد ذكر وصف "المؤمنين حقا" مرتين في القرآن الكريم، وكلاهما في سورة الأنفال، وجاءت الأولى في قول الله عز وجل بداية السورة الجليلة: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤)

يأتي الجزاء على قدر الحقيقة: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
مغفرة تمحو الماضي ورزق كريم يصنع المستقبل. إن المؤمن الحق لا يعيش أسير ذنبه، ولا محدودًا بواقعه، بل يُفتح له بابان: باب يغلق خلفه أثر التقصير، وباب يفتح أمامه لعطاء لا ينفد.

وهذا الوصف تكرر، ليؤكد أن "حقيقة الإيمان" لها جذور ولها ثمار:
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
فالبداية من الداخل... من القلب. قلبٌ يرتجف عند ذكر الله تعالى، وقلبٌ يزداد حياة عند سماع الوحي، ومن نقصت طاعته لله ورسوله ﷺ، فذلك لنقص إيمانه، ثم قلبٌ لا يتعلق إلا بربه توكلًا واعتمادًا، والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به. لتنعكس هذه الحياة على الجوارح: بصلاةٌ قائمة بروحها قبل صورتها، وإنفاقٌ يتدفق من نفسٍ واثقة بوعد ربها.

وهنا يظهر سر عظيم: أن الله قدّم أعمال القلوب... لأنها الأصل، ومنها تنبت كل الأعمال. فإن صلح القلب... استقامت الجوارح، وإن فسد... تفرقت الأعمال وإن كثرت.

ولهذا كان الإيمان يزيد وينقص... يزيد بطاعة تُحيي القلب، وينقص بمعصية تُطفئ نوره. وأعظم ما يحييه تدبر القرآن... فهو الذي يفتح المعاني، ويوقظ النفوس، ويصنع التحول الحقيقي.

إن أُولَئِكَ الذين اتصفوا بتلك الصفات التي تذكرها الآيات في سورة الأنفال، "هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا" لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. وخير مثال وقدوة لهم: المهاجرون والأنصار.

لذلك تعود الآيات لتربط هذا الجيل الأول بمن يأتي بعده:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾

إنه فتح باب الانتماء... عبر الزمن. فليست العبرة أن تعيش في زمن النبوة، بل أن تسير على طريقها. فكل من حقق هذا المنهج... فهو من ذلك الصف، ومن ذلك الامتداد، ومن تلك الأمة الحية.

لكن مع هذا الامتداد، يُضبط النظام:

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ليؤكد أن هذا الدين ليس عاطفة فقط، ولا حماسة مجردة، بل هو شريعة دقيقة، تنظم حتى أدق العلاقات. فالإيمان يبني الروابط والشرع يضبطها. وكله يسير برقابة وعلم الله تعالى.

في ختام سورة الأنفال يتضح أن هذا الدين لا يصنع "أفرادًا صالحين" فقط، بل يصنع قلوبًا واعية، وصفوفًا مترابطة، وأمةً قادرة على النهوض.

يبدأ من قلبٍ وجلٍ عند ذكر الله عز وجل، ثم يرتقي إلى عملٍ صادق في الواقع ينعكس أثره في النفس وفي هذا الواقع ثباتًا وخيرًا وبركات، ثم يتجسد في أمةٍ متماسكة تعرف من توالي، ومن تعادي، وكيف تتحرك.

فإذا اجتمع: صدق القلب، وصحة المنهج، وقوة الرابطة، تحققت "حقيقة الإيمان"... وحينها فقط، تنزل المغفرة، ويتدفق الرزق الكريم، ويتحقق الوعد.

أما إذا اختلّ هذا البناء فمهما كثرت الشعارات، فلن تقوم أمة، ولن يتحقق نصر.

إنها رسالة الأنفال الخالدة: أن التمكين لا يُورث بل يُبنى، ولا يُمنح بل يُفدى، ولا يبدأ من الخارج بل من أعماق القلوب.

فاللهم اجعلنا من المؤمنين حقا، اللهم اجعلنا ممن اتبع بإحسان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واجمعنا بهم في فردوسك الأعلى، ومنّ علينا – جل جلالك – بفضل "المرء مع من أحب"!

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

سورة البقرة أطول سور القرآن، وهي في الوقت نفسه، ميدان بناء الإيمان، ومنهج إقامة الحياة على هدى الله عز وجل. فيها تتجلى سنن الهداية، وتُعرض نماذج السقوط والنجاة، وتُرسم معالم الطريق لمن أراد أن يسير إلى الله تعالى على بصيرة. هي سورة تُربّي القلب وتُنظّم السلوك، وتغرس اليقين وتُكلّف بالأحكام. ومن أعظم ما فيها: أنها تفتح للعبد باب القرب من ربه، لا عبر وسائط، ولا عبر حجب، بل عبر خطابٍ مباشرٍ يفيض رحمةً ولطفًا.

يأتي نداء الصيام في سورة البقرة مهيبًا، لا يكلّف الجوارح فحسب، بل يعيد تشكيل القلب، ويعيد ترتيب العلاقة بين العبد وربه؛ فهو مشروعُ تقوى، وبناءُ نفس، وارتقاءُ روح.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)

إنه نداء الإيمان... وكأن الله عز وجل يقول: إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان، فها هو طريق تزكيته. فالصيام لم يُفرض على هذه الأمة وحدها، بل هو ميراث الأنبياء،

وسُنّة السائرين إلى الله تعالى عبر الأزمنة؛ لتعلم أن هذا الطريق قد سلكه من قبلك الصفوة، وأنك لست وحدك في مجاهدة النفس.

ثم يكشف الله الحكمة الجامعة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ والتقوى حالٌ يُبنى، وسلوكٌ يُربّى، ومجاهدةٌ مستمرة.

وفي الصيام تتجلى معاني التقوى في أصفى صورها: تترك ما تشتهي لا لأن أحدًا يراك، بل لأن الله يراك. تجوع وتظمأ لتشبع روحك وترتوي قربًا من الله عز وجل. تُضيّق على نفسك مجاري الشهوة فتضيق معها مداخل الشيطان. وتتحول من عبدٍ للشهوة إلى عبدٍ لله وحده.

ثم يأتي التخفيف الإلهي الرحيم: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾
كأن الله يهوّن الطريق قبل أن تبدأ، فليست حياةً كاملة، ولا عبئًا دائمًا، بل أيام قليلة، لكنها ثقيلة في ميزان من عرف قدرها.

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

هنا يتجلّى وجه آخر من وجوه العبودية: أن الشريعة ليست تكليفًا يُرهق، بل رحمةٌ تُراعي، وعدلٌ يوازن بين القدرة والمشقة. فالله تعالى لا يريد منك أن تُتعب نفسك لمجرد إتعابك، بل أن تعبده على بصيرة، وأن تسير إليه بقلبٍ مطمئن، هو الذي يحمل جسدك وإن كان منهكًا.

ثم يكشف لك منهج التربية الرباني: لم يُفرض الصيام دفعةً واحدة، بل دُرِّج الناس فيه، ليتهيأ القلب قبل الجسد، وليتعلّم العبد أن الدين تدرّجٌ حكيم يقودك إلى الكمال. والتطوع تربية ربانية جليلة، تصنع في النفس القوة والاستعداد.

ثم تأتي الذروة:
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

ليس رمضان شهر الجوع بل شهر القرآن. وما الجوع إلا وسيلة، ولكن القرآن غاية. فالصيام يفرّغ القلب والقرآن يملؤه نورًا.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾
فالقرآن هداية تُبصر بها الطريق، وفرقانٌ تميّز به بين الحق والباطل، والنور والظلمة، والنجاة والهلاك.

فمن صام ولم يهتدِ بالقرآن فقد فاته المقصود الأعظم.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

هنا يتحول النداء إلى إلزام بعد البيان، وبعد التهيئة، وبعد التيسير.

فمن حضر هذا الموسم العظيم، فلا عذر له في التفريط.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

قاعدة كبرى ليست في الصيام وحده، بل في الدين كله:

أن الله لا يكلفك ليعذبك، بل ليطهّرك، ولا يشرّع لك ليضيّق عليك، بل ليفتح لك أبواب رحمته.

فكل أمرٍ في الشريعة في أصله يسير، وإن عرضت مشقة جاء التخفيف، وإن ضاق الطريق فتح الله مخرجًا.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾

فمن لم يشهد هلال شوال وغمّ عليه، ليكمل عدّة رمضان ثلاثين يوما، ثم تأتي الشعيرة المهيبة التي يختتم بها شهر رمضان ويفتتح بها شهر شوال!

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

فخاتمة الصيام تكبيرٌ وشكر. كأن العبد يقول: يا رب، ما صمتُ بقوتي بل بهدايتك، وما ثبتُّ إلا بتوفيقك. وكأن "الله أكبر" جاءت هنا في حالة نصر وفتح وتمكين للقلب!

يُختم بالتكبير. كأن العبد بعد أيام المجاهدة، والقيام، والدموع، يقف على عتبة الوداع ليعلنها مدوّية: الله أكبر... أكبر من شهواتي التي قهرتها، وأكبر من نفسي التي روّضتها، وأكبر من ذنوبي التي غفرتها برجائي فيه.

التكبير إعلان انتصار القلب؛ انتصار على الهوى، وعلى الغفلة، وعلى كل ما كان يحجبك عن الله تعالى. هو شكرٌ يفيض حين تعجز الكلمات عن حمل الامتنان، وهو اعترافٌ أن ما بلغتَه لم يكن بقوتك بل بفضل الله وحده.

فإذا كبّرت، فكبّر بقلبٍ شهد الطريق، وذاق القرب، وخاف الفراق. كبّر وكأنك تقول: يا رب، إن انقضى رمضان، فلا ينقضي عهدي معك وإن انقطعت المواسم، فلا ينقطع سيري إليك.

فإنما يكبّر الصادقون لأنهم عرفوا من هو الأكبر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وهنا الغاية الأخيرة: أن يتحول الصيام من عبادة مؤقتة إلى قلبٍ شاكر، ومن موسمٍ مرحلي إلى حياةٍ ممتدة. وعبادة الشكر لها موجبات عظيمة، في الثبات والمسابقة والاحتساب.

وهذه الآيات ترسم لك حقيقة الصيام كما أرادها الله عز وجل:

صيامٌ يورث التقوى... وتقوى تُنير القلب... وقرآنٌ يهدي الطريق... وتيسيرٌ يفتح أبواب الرجاء... وشكرٌ يربط العبد بربه بعد انقضاء الموسم.

فليس الصيام أن تجوع بل أن تتغيّر، وليس أن تمسك عن الطعام بل أن تمسك عن المعصية، وليس أن تعيش رمضان بل أن يترك رمضان أثره فيك بعد أن يرحل.

فمن خرج من رمضان كما دخل فقد فاته الطريق، ومن خرج بقلبٍ أتقى فقد أدرك أرجى مقاصده، ومن عرف الله في صيامه عرفه الله في سائر أيامه.

ثم تنتقل الآيات لما يتصدع له القلب رجاء!

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

تأمل هذا اللطف الإلهي العجيب: لم يقل الله تعالى: فقل لهم إني قريب، بل حذف الواسطة، وكأن المسافة بين العبد وربه قد أُزيلت، وكأن القلب إذا سأل، وجد الجواب حاضرًا قبل أن يتمّ السؤال. إنها آية تُسقط الحواجز، وتُذيب الوحشة، وتُشعر العبد أن الله عز وجل أقرب إليه من أن يُعرّف، وألطف به من أن يُستدعى بوسيط.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

قربٌ لا يُقاس بالمسافات، بل يُدرك بالمعاني: قربُ علمٍ يحيط بالسر وأخفى، وقربُ عنايةٍ لا يغيب عنها همٌّ ولا دمع، وقربُ إجابةٍ يسمع فيه الله تعالى أنين القلوب قبل أن تنطق به الشفاه. هو القريب الذي لا يُحجب عنه خفاء، ولا يُعجزه دعاء.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

لم يقل: إذا استحق، ولا إذا أطال، ولا إذا أحسن العبارة، بل قال: إذا دعان. فالدعاء في ذاته عبودية، وهو إعلان فقر، وافتقارٌ صادق يفتح أبواب الإجابة. غير أن هذا الوعد مشروطٌ بصدق التوجه، وحضور القلب، ونقاء المطعم والمكسب، لأن الدعاء له أدبه وفضله.

وهنا يظهر الميزان الدقيق: كما أنك تطلب من الله تعالى أن يستجيب، فإن الله يطلب منك أن تستجيب.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾

فالإجابة ليست طريقًا ذا اتجاهٍ واحد، بل هي علاقة متبادلة:

عبدٌ يدعو، وربٌ يجيب... وربٌ يأمر، وعبدٌ يستجيب.

فمن أراد أن تُفتح له أبواب السماء، فليفتح قلبه لأوامر الله عز وجل، فإن من أغلق أبواب الطاعة، كيف يُرجى أن تُفتح له أبواب الإجابة كما يرجو ويتمنى؟

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

الرشد هو ثمرة هذا الاتصال: أن ترى الطريق واضحًا، وأن يُفرّق لك بين الحق والباطل، وأن يُنقذ قلبك من التيه. فكلما صدق العبد في إيمانه واستجابته، أورثه الله نورًا يميز به، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

إنها آية عظيمة في سورة البقرة، جاءت بعد آيات الصيام ورمضان، تُعيد تعريف العلاقة مع الله تعالى: فليست علاقة بعيدة تُطلب برفع الصوت والوساطات، ولا غامضة تُنال بالتكلّف والتعسير، بل هي علاقة قربٍ تُبنى على الصدق، واستجابة تُثمر الرشد. فإذا شعرت يومًا بثقل الطريق، فلا تبحث بعيدًا، ارجع إلى قلبك، وأصلح صلتك، وادعُ ربك بصدق، واستجب له بإخلاص؛ فإن من كان الله قريبًا منه، فلن يضل، ولن يُخذل، ولن يُترك وحيدًا.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عنا.

اللهم تقبّل منا صيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا، وتجاوز عن تقصيرنا وزللنا.

اللهم اجعلنا ممن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا فغفرتَ له ما تقدم من ذنبه،

واجعلنا فيه من المقبولين، ولا تجعلنا من المحرومين.

اللهم لا تجعل هذا الشهر آخر عهدنا بطاعتك،

وإن جعلته آخر عهدنا، فاجعلنا من المرحومين الذين اصطفيتهم شهداء مرضيين.

اللهم كما بلغتنا رمضان، فأتمم علينا نعمته بالقبول والرضوان،

واجعلنا بعده على الطاعة أثبت، وعلى المعصية أبعد.

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل،

وأدم علينا لذة القرب منك، ولا تحرمنا بعده من حلاوة الإيمان.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا،

واجعلنا من أهله الذين هم أهلك وخاصتك.

اللهم اعتق رقابنا من النار،

واكتبنا في هذه الليالي من الفائزين،

واجعل عيدنا فرحًا بطاعتك، لا غفلةً عنك.

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم،
وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك،
اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا،
اللهم لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد،

اللهم لك الحمد عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك،
اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى،

اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة، ولك الحمد على كل حال،
اللهم لك الحمد على نعمك التي لا تُعد، وآلائك التي لا تُحصى،
اللهم لك الحمد على ما أعطيت، ولك الحمد على ما منعت، ولك الحمد على ما قضيت،

اللهم لك الحمد حمداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك،
اللهم لك الحمد حتى يبلغ الحمد منتهاه ...


لا إله إلا الله محمد رسول الله